

شرح
غاية المراد
في نظم الاعتقاد
لسماحة الشيخ العلامة
أحمد بن حمد بن سليمان الخليلي
المفتي العام لسلطنة عمان
الشيخ العلامة أحمد بن حمد بن سليمان الخليلي
شرح غاية المراد في نظم الاعتقاد

شرح غاية المراد

في نظم الاعتقاد

غاية المراد في نظم الاعتقاد

الناظم: الإمام العلَّامة نور الدين عبد الله بن حميد السالمي

الشارح: الشيخ العلَّامة أحمد بن حمد الخليلي

أعد الأسئلة: محمد بن سالم الخروصي

الطّبْعَة الأولى

١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م



مسقط ـ سلطنة عُمان

شَرحُ غَايةِ المُرادِ
فِي نَظمِ الاعتِقَادِ

لسَماحة الشيخ العلّامة

أحمد بن حمد الخليلي

ـ حفظه الله ـ

المفتي العام لسلطنة عُمان




بسم الله الرحمن الرحيم



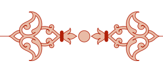
للإمام العلَّامة

نور الدين عبد الله بن حميد السَّالمي

(ت ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م)

- رحمه الله تعالى -





تتشـــرف الكلمـــة الطيبـــة بتقديم هـــذه الطبعة التفاعلية الخاصة بأجهزة الحاســـوب والأجهزة الذكية من هذا الكتاب القيّم، خدمةً لطلبة العلم وتســـهيلًا لهم، فما على الطالب سوى الضغط على بيت المنظومة ليصل تلقائـــيًا إلى شرحه، ثم يعود للأبيـــات مجددًا بالضغـــط على كلمة: **المحتويات** الموجودة أسفل كل صفحة.

وفق الله الجميع في سبيل العلم وصالح العمل.

تنبيه: يجب تحميل تطبيق Adobe acrobat reader للاستفادة من الميزة التفاعلية

المحتويات

تمهيدٌ

الْمُقَدِّمَةُ

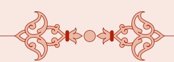
بسم الله الرحمن الرحيم

١. الحَمْـدُ للهِ مُنْـشِي الكَائِـنَاتِ عَلَى
مَا شَـاءَهَا وَبِلا مِـثْلٍ هُـنَاكَ خَلا

٢. ثُمَّ الصَّـلاةُ عَلَى الْمُخْـتَارِ سَـيِّدِنَا
وَمَـنْ إِلى قَابِ قَوْسَـيْنِ دَنَا فَـعَلا

٣. وَالآلِ وَالصَّحْبِ مَا كَانَ الْهُدَى عَلَمًا
يَهْـدِي بِهِ اللهُ لِلْخَـيْرَاتِ مَنْ عَقَلا

٤. وَبَـعْدُ فَالدِّينُ لا عُـذْرٌ لِجَاهِلِهِ
إِنْ كَانَ مِنْ بَـعْدِ تَكْـلِيفٍ بِهِ جَهِلا



ذِكْرُ الجُمَلِ الثَّلاثِ وَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْه

الجُمْلَةُ وَتَفْسِيرُهَا

٥. وَأَوَّلُ الفَـرْضِ مِنْ تَأْصِيـلِهِ جُـمَلٌ
ثَلاثَـــةٌ، فُزْتَ إِنْ تَسْـــتَحْضِرِ الجُمَلا

٦. وَإِنْ أَتَـيْتَ بِهَا نُطْـقًا حَـفِظْتَ بِهَا
لِلنَّفْـــسِ وَالْمَالِ، وَالسَّـــبْيُ بِهَا حُظِلا

نَفْيُ الأَنْدَادِ وَالأَشْبَاهِ عَنِ اللهِ تَعَالى

٧. نَـدِينُ أَنَّ إِلَـهَ العَـــرْشِ لَـيْسَ لَـهُ
شِبْـــهٌ وَلَـــيْسَ لَـــهُ نِـــدٌّ وَلا مَـثَلا

٨. وَأَنَّـهُ لَـــيْسَ جِسْمًا لا وَلا عَرَضًا
لَكِـــنَّهُ وَاحِـــدٌ فِـــي ذَاتِـــهِ كَـــمَلا

٩. وَوَاحِدٌ فِي الصِّـفَاتِ وَالعِبَادَةِ وَالـ
أَفْـــعَالِ طُـرًّا، فَلا تَـــبْغُوا بِـــهِ بَدَلا

أَسْمَاءُ اللهِ وَصِفَاتُهُ الذَّاتِيَّة

١٠. أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُ الذَّاتِ لَيْسَ بِغَيْـ
ــــرِ الذَّاتِ بَلْ عَيْنُهَا فَافْهَمْ وَلا تَحُلا

نَفْـيُ الرُّؤْيَـةِ

١١. وَلا يُحِـــيطُ بِهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ بَصَـرٌ
دُنْـــيَا وَأُخْرَى، فَدَعْ أَقْــوَالَ مَنْ نَصَلا

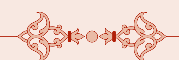
نَفْيُ التَّكْيِيفِ

١٢. وَلا يُكَـيِّـــفُهُ وَهْـــمٌ وَلا فِكَــرٌ
وَلا تُحِـــيطُ بِـــهِ الأَقْـــطَارُ مُدَّخَـلا

الاسْتِوَاءُ عَلَى العَرْشِ

١٣. وَهْوَ عَلى العَرْشِ وَالأَشْيَا اسْتَوَى وَإِذَا
عَدَلْـــتَ فَهْوَ اسْــــتِوَاءٌ غَيْرُ مَا عُـــقِلا

١٤. وَإِنَّمَـــا الاسْــــتِوَا مُلْكٌ وَمَقْــــدِرَةٌ
لَـهُ عَـــلَى كُلِّهَا اسْــــتَوْلى وَقَدْ عَدَلا



١٥. كَمَا يُقَالُ اسْـتَوَى سُلْطَـانُهُمْ فعَلا
عَلى البِـــلادِ فَحَازَ السَّــــهْلَ وَالْجَبَلا

الإِيمَانُ بمُحَمَّدٍ ﷺ

١٦. وَأَنَّ أَحْمَـدَ مِنْ رُسْلِ الإلَـهِ، وَقَدْ
يُخَصُّ مِنْ بَيْـــنِهِمْ فَضْلًا وَمُفْـــتَضَلا
١٧. وَأَنَّـــهُ صَادِقٌ فِيـــمَا أَتَانَا بِـــهِ
مُـــبَلِّغُ الثَّـقَلَـــيْنِ مَـــا بِـــهِ رُسِـــلا

الإِيمَانُ بالْمَوْتِ وَالبَعْثِ وَالحِسَاب

١٨. وَقَـــدْ أَتَتْ حُجَجُ البُرْهَانِ نَاطِقَةً
بِالْمَــوْتِ وَالبَعْثِ وَالْحُسْــبَانِ فَامْتَثِلا

الْمِيزَانُ

١٩. وَمَـــا هُـــنَالِكَ مِيزَانٌ يُقَـــامُ كَمَا
قَالُـــوا عَمُـــودٌ وَكِـــفَّاتٌ لِمَا عُـــمِلا
٢٠. وَإِنَّمَا الوَزْنُ حَقٌّ مِنْـــهُ ـ عَزَّ ـ أَلَمْ
تَسْمَعْ إِلى آيَـــةِ الأَعْـــرَافِ مُحْتَفِلا

الصِّرَاطُ وَالحِسَابُ

٢١. وَلا الصِّــرَاطُ بِجِسْرٍ مِثْلَ مَا زَعَمُوا
وَمَا الحِـــسَابُ بِعَـــدٍّ مِثْلَ مَنْ ذَهِـلا

الجَنَّـةُ وَالنَّـارُ

٢٢. وَأَنَّـــهُ مَنْ أَطَـــاعَ اللهَ يُدْخِـــلُهُ
جَنَّاتِـــهِ أَبَـــدًا لا يَبْـــتَغِي نُـــقُلا

٢٣. وَمَنْ عَصَاهُ فَفِي النِّـيرَانِ مَسْكَـنُهُ
وَلَمْ يَجِـــدْ مَفْــزَعًا عَنْــهَا فَيَنْـتَقِلا

الشَّفَاعَةُ

٢٤. وَمَا الشَّـــفَاعَةُ إِلا لِلــتَّقِيِّ كَـمَا
قَدْ قَالَ رَبُّ العُـــلا فِيهَا وَقَـــدْ فَصَلا

الوُرُودُ

٢٥. وَالْمُؤْمِنُونَ عَنِ النِّـيرَانِ قَدْ بَعُـدُوا
وَمَا الوُرُودُ لَهُـــمْ بَلْ لِلَّذِي انْخَـــذَلا

الإِيمَانُ بالْمَلائِكَةِ

٢٦. وَأَنَّ للهِ أَمْــــلاكًا وَقَـــدْ عُصِمُوا
وَأَنَّ جِنْسَــــهُمُ عَنْ جِنْسِــــنَا فُصِـــلا

٢٧. فَلا تَصِفْهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِكَ مُطْـ *
ـــلَقًا سِوَى أَنَّهُمْ خَـــلْقٌ قَدِ امْــــتَثَلا

الإِيمَانُ بالأَنْبيَاءِ وَالكُتُبِ

٢٨. وَالأَنْـــبِيَا بِهِمُ الإِيْـــمَانُ يَلْزَمُنَا
وَمَـــا عَلَى كُـــلِّهِمْ مِنْ كُـــتْبِهِ نَـــزَلا

الإِيمَانُ بالقُرْآنِ وَالقَوْلُ في خَلْقِهِ وَخَلْقِ غَيْرِهِ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّينَ

٢٩. وَبِالقُرَانِ خُصُوصًا بَعْدَ جُمْلَتِهَا
وَلَيْسَ مِنْـــهَا قَدِيمٌ يَحْـــتَوِي الأَزَلا

٣٠. بَلْ كُـــلُّهَا خَـــلَقَ البَارِي وَكَوَّنَهُ
فِيمَا يَشَاءُ، فَلا تُصْـــغُوا لِمَنْ عَـــذَلا

الإِيمَانُ بالقَضَاءِ وَالقَدَر

٣١. وَبِالقَــــضَا وَبِمَا الرَّحْمَـنُ قَـدَّرَهُ
وَأَنَّـــهُ خَـالِـــقٌ أَفْـعَالَـنَـــا حُـــلَلا

٣٢. لَكِـــنَّهُ لا بِجَـــبْرٍ كَانَ مِنْـهُ لَـنَا
وَعِلْمُـــهُ سَابِـــقٌ في كُلِّ مَا جَـــعَلا

٣٣. وَإِنَّمَا الفِعْـلُ مَخْلُوقٌ وَمُكْـتَسَبٌ
فَالخَـــلْقُ للهِ وَالكَـــسْبُ لِمَنْ فَـــعَلا

ذِكْرُ الإيمَانِ وَمَا يَشْتَمِلُ عَليْه

٣٤. إِيـمَانُنَا القَـوْلُ وَالتَّصْدِيقُ مَعْ عَمَلٍ
فَالقَـــوْلُ مَرَّ فَصَدِّقْـــهُ وَكُـــنْ عَمِلا

٣٥. بِمَا عَلَيْكَ مِنَ الإِيـمَانِ مُفْـتَرَضٌ
وَالنَّـــفْلَ إِنْ تَسْـــتَطِعْ فَافْعَلْهُ مُبْـتَهِلا

قَـوَاعِـدُ الـدِّيـنِ

٣٦. قَوَاعِـــدُ الدِّينِ عِلْـمٌ بَعْـدَهُ عَمَلٌ
وَنِـيَّـــةٌ وَرَعٌ عَـــنْ كُلِّ مَـــا حُـــظِلا

أَرْكَانُ الـدِّيـنِ

٣٧. اِرْضَ وَفَوِّضْ وَسَـلِّمْ وَاتَّـكِلْ فَبِذَا
تَحُــوزُ أَرْكَانَــهُ اللاتي بِهَا كَــمُلا

مَسَالِكُ الدِّيـنِ

٣٨. ثُمَّ الظُّهُورُ وَدَفْعٌ وَالشِّـرَاءُ مَعَ الْـ *
ـكِتْمَــانِ طُرْقٌ لَهُ، أَكْرِمْ بِهَـا سُـبُـلا

فَـرْزُ الدِّيـنِ

٣٩. وَفَـرْزُهُ فِي ثَلاثٍ: مُؤْمِـنٍ وَمُـنَا *
فِــقٍ وَصَاحِبِ شِــرْكٍ جَاحِـدٍ عُذِلا

حِـرْزُ الدِّيـنِ

٤٠. وَحِـرْزُهُ أَنْ تُوَالِي مَنْ أَطَاعَ وَتَبْـ *
ــرَا مِنْ مُصِرٍّ وَقِفْ عَنْ كُلِّ مَنْ جُهِلا

الوَلايَةُ وَالبَرَاءَةُ

٤١. وَوَالِ في جُمْلَةٍ مَنْ قَدْ أَطَاعَ وَعَـا *
دِ مَنْ عَــصَى جُمْــلَةً للهِ مُمْـتَــثِلا

٤٢. وَكُلُّ مَنْ عَصَمَ الْمَوْلَى وَلايَتُهُ
فَرْضٌ كَعُدْوَانِ مَنْ إِيَّاهُ قَدْ خَذَلا

٤٣. وَكُنْ مُوَالٍ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ
حَوَتْهُ طَاعَتُهُ إِلا الَّذِي انْخَزَلا

٤٤. وَعَادِ فِي الدِّينِ جَبَّارًا وَعَامِلَهُ
وَمَنْ لَهُ فِي سَبِيلِ الْمُكْفِرَاتِ تَلا

٤٥. لا كُلَّ مَنْ قَدْ حَوَى سُلْطَانُ عِزَّتِهِ
إِذْ قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ مُؤْمِنٌ دَخَلا

٤٦. ثُمَّ الوَلايَةُ تَوْحِيدًا تَكُونُ وَأُخْـ *
ـرَى طَاعَةً فُرِضَتْ إِنْ شَرْطُهَا حَصَلا

٤٧. كَذَا البَرَاءَةُ، وَالشَّرْطُ الَّذِي وَجَبَتْ
بِهِ الوَلايَةُ: أَنْ تُلْفِيهِ مُمْتَثِلا

٤٨. وَرَبُّنَا لَمْ يَزَلْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِيْـ *
ـيًا هَكَذَا وَعَدُوًّا لِلَّذِي نَصَلا

٤٩. وَهَكَذَا أَبَدًا لَيسَ الزَّمَانُ وَلا الْـ *
أَفْعَالُ تَقْدَحُ فِيهِ، خُذْهُ مُنْتَحِلا

٥٠. لَـكِنَّــنَا قَــدْ تُعُــبِّدْنا بِطَاعَتِـهِ
فَكُـلُّــنَا عَامِــلٌ بِمَــا لَــهُ جُــعِلا

٥١. مَعْــنَى مُوَالٍ مُـعَادٍ: عَــالِمٌ بِهِمُ
وَبِالَّــذِي فَعَــلُوهُ الجِــدَّ وَالْهَــزَلا

ذِكْرُ الكُفْرِ وَمَا يَشْتَمِلُ عَليْه

٥٢. وَالشِّرْكُ لا بُدَّ مِنْ أَنْ تَعْرِفَنْـهُ لِكَيْ
تَكُونَ في مَقْــعَدٍ عَنْ غَــيِّهِ اعْـتَزَلا

٥٣. وَهْوَ الْمُسَاوَاةُ بَيْنَ اللّٰهِ ـ جَلَّ ـ وَبَيْـ *
ـــنَ الخَلْقِ أَوْ جَحْدُهُ سُــبْحَانَهُ وَعَلا

٥٤. وَمَا سِـوَاهُ مِنَ الكُــفْرَانِ يَلْزَمُـنَا
أَيْ عِلْمُــهُ إِنْ عَلِمْــنَا حُكْمَهُ الفَصِلا

٥٥. مَا لَمْ نَكُنْ رَاكِـبِيهِ أَوْ نُصَوِّبُ مَنْ
يَأْتِيــهِ عَمْدًا وَجَهْلا، هَكَــذَا نُــقِلا

قَـوَاعِـدُ الكُفْــرِ

٥٦. جَهْلٌ، حَمِيَّةٌ، كِبْرٌ، بَعْدَهُ حَسَــدُ
قَوَاعِــدُ الكُفْرِ، فَاحْــذَرْ دَاءَهَا العُضَلا

أَرْكَانُ الكُفْرِ

٥٧. وَرَغْبَةٌ رَهْبَةٌ أَرْكَانُهُ، وَيَلِيـ *
ـهَا شَهْوَةٌ غَضَبٌ في كُلِّ مَا حُظِلا

ذِكْرُ الْمِلَلِ السِّتِّ وَأَحْكَامِهَا

٥٨. وَهَذِهِ مِلَلُ الأَدْيَانِ قَدْ نُصِبَتْ
لا بُدَّ لِلْمَرْءِ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ الْمِلَلا

٥٩. فَالْمُسْلِمُونَ؛ وَهُمْ مُوْفٍ وَمُجْتَرِحٌ
وَالْمُجْرِمُونَ بِنَهْكٍ مِنْهُمُ انْفَصَلا

٦٠. أَوْ مُسْتَحِلٌّ، وَأَحْكَامُ الأُلَى انْتَهَكُوا
أَنْ يَرْجِعُوا كُلَّ مَا صَابُوا وَإِنْ جَزُلا

٦١. وَقَدْ يَجُوزُ لِكُلٍّ مَا يَجُوزُ لَنَا
إِلا الوَلايَةَ خُصَّتْ بِالَّذِي عَدَلا

٦٢. ثُمَّ اليَهُودُ النَّصَارَى وَالْمَجُوسُ مَعًا
وَالصَّابِئُونَ لَهُمْ حُكْمٌ وَقَدْ عُقِلا

٦٣. يُسَالَمُونَ إِذَا انْقَادُوا عَلَى صِغَرٍ
بِجِزْيَةٍ، أَوْ أَبَوْا فَالكُلُّ قَدْ قُتِلا

٦٤. وَالْمُشْرِكُونَ ذَوُو الأَوْثَانِ لَيْسَ لَهُمْ
سَــلامَةٌ غَيْــرَ إِنْ دَانُــوا بِمَــا نَــزَلا

٦٥. وَالحُكْمُ إِنْ حَارَبُوا فِي الكُلِّ مُتَّحِدٌ
نَهْــبٌ وَسَــبْيٌ وَقَتْــلٌ فِيهِــمُ فُعِــلا

٦٦. حَاشَــا قُرَيْشًا فَإِنَّ السَّــبْيَ مُمْتَنِعٌ
فِيهِمْ عَلَى قَوْلِ أَهْــلِ الْمَغْرِبِ الفُضَلا

٦٧. وَالذِّبْحَ إِنْ سَــالَمُوا أَهْلُ الكِتَابِ مَعَ النْـ *
ـنِكَــاحِ مِنْهُــمْ أَجِــزْ إِلا الإِمَــاءَ فَلا

الإِمَـامَــةُ

٦٨. إِنَّ الإِمَامَـةَ فَرْضٌ حِينَمَا وَجَـبَتْ
شُــرُوطُهَا، لا تَكُنْ عَنْ شَــرْطِهَا غَفِلا

٦٩. وَبَاطِلٌ سِيرَةٌ فِيهَا الإِمَامَـةُ في اثْـ *
ـنَيْنِ لَـوْ بَلَــغَا في الْمَجْدِ مَـا كَـمَلا

٧٠. وَبَعْدَ مَا فُتِحَتْ أُمُّ القُرَى نُسِــخَا
مَا كَانَ مِــنْ هِجْــرَةٍ مَفْرُوضُهَا اتَّصَلا

٧١. إِنَّا نَدِينُ بِتَصْوِيـــبِ الأُلَى مَنَعُوا
حُكُومَـــةَ الحَكَمَيْـــنِ حِينَمَـــا جَهِــلا

٧٢. وَالرَّاسِـــبِيِّ أُوَالِي بَعْـــدَ جُمْلَتِهِمْ
وَمَنْ بِهِ نَسَـــبُ الإِسْـــلام قَـــدْ وُصِلا

٧٣. عَنَيْتُ نَجْلَ إِبَـــاضٍ فَهْوَ حُجَّتُنَا
أَمَـــا تَـــرَى فَخْـــرَهُ لِلْمُسْـــلِمِينَ حُـــلا

٧٤. وَمَنْ قَفَا إِثْرَهُمْ مِـــنْ كُلِّ مُجْتَهِدٍ
شَاكِي السِّلاحِ لِقَمْعِ الخَصْمِ حِينَ غَلا

خَـاتِـمَـةٌ

٧٥. وَالْحَمْـــدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيـــنَ عَلَى
إِتْمَـــام مَا رُمْـــتُ إِذْ مِنْ فَضْلِـــهِ كَمَلا

٧٦. ثُـــمَّ الصَّـــلاةُ وَتَسْـــلِيمٌ يُقَارِنُهَـــا
عَلَى الَّذِي خَتَـــمَ الْمَوْلَى بِهِ الرُّسُـــلا

٧٧. وَالآلِ وَالصَّحْبِ مَا لاحَتْ فَضَائِلُهُمْ
وَمَنْ لَهُمْ فِـــي سَـــبِيلِ الْمَكْرُمَاتِ تَلا

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الواحِدِ الأَحَد، الفَـرْدِ الصَّمَد، الذي لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ ولَمْ يكن لَهُ كُفُوًا أحَد، سُـــبْحَانه تَجَلَّى في كلِّ موجودٍ وُجُودُه، وَأَشْرَقَ في كلِّ مَشْهودٍ شُهُودُه، هو الأوَّلُ والآخِـرُ والظاهِرُ والباطـن، عَرَفَتْهُ الألبابُ بآياته الظاهرة، وَوَلَهت النفوسُ بِتَجلِّيَاتِهِ الباهرة.

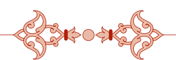
وأشـــهد أن لا إله إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شريك لَهُ، جَلَّ عــن الأنـــداد والأضـــداد، وتَقَـدَّسَ عــن الصاحبة والأولاد، وتعالَى عن الأشْبَاهِ والأمثال، وهو الكبير الْمُتَعَـــال، ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الأنعـام: ١٠٣]، أَنْزَلَ كُتُبَهُ تُتْلَى، وأَرْسَلَ رُسُلَهُ تَتْرَى، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ ويَحْيَا مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَة.

وأَشْهَدُ أنَّ سيدَنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه، اخْتَتَمَ بِهِ رسالاتِه، وقَرَنَ دعوتَه بأعظمِ آياتِه، وشرَّفه بِمَا اختصَّه بِهِ على جَمِيعِ مخلوقاتِه، أرسلَهُ رحمةً للعالَمِين، وسراجًا للمهتدين، وإمامًا للمُتَّقين، فَوَضَحَتْ برسالتِه السُّبُل، وتَجَلَّتْ بدعوتِه الحُجَّة، واستنارَتْ بسُنَّتِهِ الْمَحَجَّة، فهدَى اللهُ بِهِ قلوبًا غُلْفًا، وبَصَّرَ بِهِ عُيونًا عُمْيًا، وأَسْمَعَ بِهِ آذانًا صُمًّا، صَلواتُ الله وسلامُه عليه، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، وعلى جَمِيعِ أتباعِهِ في مِنْهاجِ الحق والحقيقة، الذين استقاموا على سَوَاءِ الطريقة، إِلَى يوم الدِّين.

أما بَعْدُ: فإنَّ دَرْءَ ضلال التصوُّرِ بِبَيَانِ عينِ الحقيقةِ وإبرازِ معالِمِهَا وأعلامِها وإيضاحِ حُجَجِها وبراهينِها أَصْلُ الهداية، وضمانٌ لِوُصُولِ السالكين وبلوغِ الراغبين، ومِنْ أَجْلِ هذا قامت دعوات المرسلين على تبيان أهمِّ حقيقةٍ قد تلتبسُ على الأفهام بِضَلال التصوُّر، وهي مَنْشَأُ الوجود وغايَتُهُ،

لِيَعْرِفَ الإنسانُ مِنْ أين جاءَ وإلى أين ينتهي، وليعرفَ ما يجب عليه في رحلته بين مُبْتَدَئِهِ وغايته، وبذلك عَرَفَ الإنسانُ أعْظَمَ حقٍّ يجب عليه وهو حقُّ مُبْدِئِهِ ومُعيدِه، وحقُّه أنْ يُفْرَدَ بالعبادة ولا يُشْرَكَ معه غيرُه، مع تَنْزِيهِهِ عن جَميع النقائص، لأنَّه لَهُ الكمال الْمُطْلَق، وبِهَذِهِ الدعوة حَصَلت الصلة بين الإنسان الْمَخْلوق الضعيف وخالقه القوي القاهر، كما حصل الرَّبْطُ بين الْمَسِير والْمَصِير، والعَمَلِ والجزاء، والحياةِ والموت، والفناءِ والخلود، وذلك هو مَنْشَأُ الاستقامة على الخير والوقاية من ضده.

ولَئِنْ كانت فنونُ العلم تَسْتَمِدُّ شَرَفَهَا من موضوعاتِها، فإنَّ أشرفَ العلوم قدرًا وأعظمَها شأنًا وأثقلَها وزنًا هو هذا العلمُ الذي يَدْرَأُ شبهاتِ الباطل عن أقْدَسِ حقيقة، ويُجَلِّي براهينَ الحق الدالَّة عليها، وناهِيكَ بِعِلْمٍ موضوعُه إثباتُ وجودِ واجبِ الوُجودِ لِذَاتِه، وصفاتُه وأفعالُه، وملائكتُه وكتبُهُ ورسلُه



واليومُ الآخِرُ وقضاؤُه وقَدَرُه، لذلك تَبارَتْ هِمَمُ الراسخين في العلم في هذا الْمِضْمار، فكان **منهم الْمُصَلِّيَ ومنهم الْمُجَلِّي**[1].

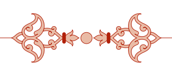
وقد كان مِنْ بين هؤلاء العلامةُ الْمُحَقِّقُ الإمامُ نورُ الدين **عَبْدُاللهِ بنُ حُمَيْدٍ السَّالِمِيُّ** ـ رحمه الله تعالى ورضي عنه ـ، فإنَّ مؤلفاتِهِ في علم الاعتقاد منثورَها ومنظومَها ينابيعُ للفوائد الْمُتَدَفِّقَة، ومَطَالِعُ لِشَمْسِ الحقائق السَّاطعة، بِمَا فيها من تبيانٍ للحق وإبرازٍ لأدلَّته، مع دَرْءِ شُبَهِ الباطل عنه، وإنَّ مِنْ بين ما جادَتْ به قريحَتُه في هذا الْمَجَال قصيدتَه العَصْماءَ التي سَمَّاها «**غَايَةَ الْمُرَادِ فِي نَظْمِ الاعْتِقَادِ**»، فإنَّها مع اختصارِها وسهولةِ حفظها جَمَّةُ الفوائد عظيمةُ العوائد بِمَا انطوتْ عليه من خزائن العلم، وهي مُيَسَّرَةٌ لطَلَبَة العلم المبتدئين.

---

(١) الْمُجَلِّي في خَيْلِ السباق هو الذي يسبق جميع خيل السباق ولا يتقدمه غيره والْمُصَلِّي هو الذي يأتي من بعده لأنّه يأتي ورأسه بين صَلَويْ الْمُجَلِّي، والصلوان: عظمان ناتئان عن يمين الذنب وشماله، أي أنه يأتي وراءه مباشرة.

وقبلَ سنين مَضَتْ أراد مِنِّي بعضُ طلاب العلم أنْ أُمْلِــيَ عليهم تعليقــاتٍ لطيفةً علــى أبياتِهَا، يَحْفظونَهَــا بآلَــةِ التســجيل ليتمكَّنوا مــع تَكْرارِ سَمَاعِها من تقييدِ شوارد الفوائد، وما كنتُ أحْسَبُ أنَّ ذلك سَــيَتَعَدَّى أولئــكَ الفِتْيَــةَ الطالِبينَ إلى غيرهــم، فخَصَصْــتُهُمْ بِمَــا أَمْلَيْــتُهُ من بعض العبارات، التي لا تَبْــرَأُ من الكثير مــن الْهِنَات، لأنَّها كانت مُرْتَجَلَةً سريعـــة، وإذا بذلك الشريـط يُتَدَاوَلُ ويقومُ بعضُ الطــلاب بتفريغِهِ في أوراق، ظَلَّــتْ تَتَدَاوَلُهَا الأيــدي، ويَرْجِعُ إليهــا كثيرٌ من الطلاب، لا سِــيَّمَا طُلابُ المراكز الصيفية، فإنَّها أصبحتْ مقرَّرَةً عليهم أو على أكثرهم على عِلّاتِهَا الكثيرة، كيفَ وهي فــي الأصل دروسٌ ارتجالية؛ والارتجالُ عُرْضَــةٌ للخطأ؟ ومع ذلك فإنَّ مَنْ قام بتفريغها لا بُدَّ مِــنْ أنْ يُضِيفَ إليها أخطاء أخرى، بســبب التباس بعض الكلمات عليه لِعَدَمِ وضوح الصوت.

لِهَذَا رَأَيْتُ لِزَامًا أنْ أَقُومَ بتصحيحِ هذه الأخطاء، وتعديلِ تِلْكُمُ العباراتِ الرَّكِيكة، لِيَتَلاءَمَ هذا التعليقُ مع الغَرَضِ الذي يَنْشُدُهُ الطلابُ الذين رَوَّجُوهُ فيما بينهم، وكثيرًا ما اسْتَثَرْتُ الهِمَّةَ الخَامِلَةَ والعزيمَةَ النَّائِمَةَ لأجْلِ ذلك، ولكن الخمول الذي جُبِلْتُ عليه مع كثرة الأعمالِ الْمُثَبِّطَةِ كانَ السببَ في تأخير هذا الإنْجَاز، حتى جاءتْ ساعةُ الفَتْحِ التي أرادها اللهُ تعالى لِتَحْقِيقِ هذه الأُمْنِيَّةِ وتيسير هذا المأمول، فَهَا أَنَا ذَا أَشْرَعُ بِعَوْنِ اللهِ وتوفيقِهِ في تَحْرِيرِ تِلْكُمُ العبارات وتَخْلِيصِها من الشوائب التي كَدَّرَتْ صفاءَ هذا التعليق، واللهَ أسألُه العَوْنَ والتوفيقَ والتَّسْديد، وأنْ يَجْعَلَ هذا العَمَلَ مع سائر أعمالي خالصًا لِوَجْهِهِ الكريم، إنه تعالى على كل شيءٍ قديرٌ.



قال الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

الْمُقَدِّمَةُ

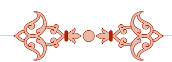
بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ أتَعَرَّضْ لِشَرْحِ **البَسْمَلَةِ** لِعَدَمِ الضرورةِ إليهِ في هذا الْمَقام، ولأنَّني بَسَطْتُ القولَ فيها حَسْبَ وُسْعي في التفسير، فاكتفيتُ بذلك عن إعادته أو إعادةِ شيءٍ منه.

١. الحَمْدُ للهِ مُنْشِي الكَائِنَاتِ عَلَى
مَا شَاءَهَا وَبِلا مِثْلٍ هُنَاكَ خَلا

أمَّا «**الحَمْدُ**» فهو **لُغَةً**: الثناءُ باللسانِ على الجَمِيلِ الاختياريِّ، سواء تَعَلَّقَ بالفضائل أو بالفَوَاضِلِ. هذا هو التعريفُ المشهورُ.

والفرقُ بينَ الفضائل والفواضل: أنَّ الفضائلَ هي جَمْعُ فَضِيلةٍ، وهي صفةٌ لِلْمَحْمُودِ تكون سببًا للحَمْدِ، والفواضلَ جَمْعُ فاضلةٍ، وهي فِعْلٌ يَنْتَقِلُ



أثَرُه إلى الحامدِ أو إلَى غيرِهِ، والفضائلُ هي مَنَاشِئُ للفواضِلِ، فالشـــجاعةُ مَنْشَـــأٌ للإقدامِ، والكرمُ منشأٌ للبَذْلِ، وهكذا.

ولكن التقييدَ بالاختياريِّ قد يُفْهَمُ منه مَنْعُ الحمد إلا علـــى ما لَمْ يكن صفةً ثابتةً للمحمُـــودِ[1]، ويترتَّبُ عليه عدمُ جوازِ حَمْدِ الله تعالى علـــى صفاتِهِ الذاتية، لأنَّها لا تُوصَفُ بأنَّهـــا اختياريَّة، لِئَلا يُوهِمَ ذلك جوازَ أضدادِها، وقد تَخَلَّصَ بعضُ أهلِ العِلْمِ من هذا الإلزامِ بأنَّها وإنْ كانت لا توصف أنَّها اختياريَّةٌ لِتَجَـــنُّبِ هذا اللازم؛ إلا أنَّها لا تُوصَـــفُ أيضًا بأنَّها اضطرارية؛ لأنَّ الله تعالى مُنَزَّهٌ عن الاضطِـــرَارِ إلى أمْرٍ، وقَيْدُ الاختيار إنَّمَا أُرِيدَ بِهِ إخْراجُ الاضطـرارِيِّ دُونَ سِوَاه.

ورَأَى بعضُهم أنَّ كَوْنَ تلك الصـــفات مَنَاشِـــئَ للاختياريَّات كافٍ فـــي إدخالِهَا ضِمْنَ ما يُحْمَدُ عليه تعالى، فإنَّ أفعالَهُ تعالى كُلَّها مَحَامِدُ، وهي ناشئةٌ عن هذه الصفات جميعًا، فَسَاغَ دُخولُها فيما يُحْمَدُ عليه.

(١) يعني الصفات الفعلية.

وأما الشُّكْرُ لُغَةً فهو: فِعْلٌ يُنْبِئُ عن تعظيمِ الشاكِرِ للمشكورِ بسببِ النِّعْمَةِ، سواءً كان قولًا يَنْطِقُ به أو عملًا يأتيه أو اعتقادًا يَتَصَوَّرُه، كما يُنْبِئُ به قولُ الشاعر:

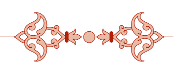
أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلاثَةً
يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

و«**الحَمْدُ**» **اصطلاحًا** هو نفسُ الشكر لُغَةً، وإنَّمَا يُبْدَلُ لفظُ الشاكر بالحَامِد، والشكرُ اصطلاحًا هو: تسخيرُ الشاكر كلَّ ما أَنْعَمَ به المشكورُ فيما خُلِقَ لأجْلِهِ من الطاعة، وهو يعني أنْ يستخدمَ العبدُ نِعَمَ الله تعالى جميعًا فيما خُلِقَتْ لَهُ من الطاعة، وهو معنى تفسيرِ بعضِ السَّلَفِ للشُّكْرِ بقولِهِ: «ألّا تَعْصِيَ اللّهَ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عليكَ»، ويدلُّ عليه أنَّه قُوبِلَ بالكفر في قولِهِ تعالَى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وقولِهِ حكايةً عن عبدِه سليمان: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

والحمدُ من العبد لِرَبِّهِ ينقسمُ إلى قسمين: مُطْلَقٍ ومُقَيَّدٍ.

فالْمُطْلَقُ: هو ما لَمْ يكنْ في مقابِلِ نِعْمَةٍ، والْمُقَيَّدُ: ما كان على نعـمةٍ من نِعَمِهِ، وهو أفضلُ من الْمُطْلَقِ لأنَّه واجبٌ والأولَ نَفْلٌ، ولا تَخْفَى مَنْزِلَةُ الواجبِ فوقَ النافلةِ، لأَجْلِ ذلك قَيَّدَ الْمُصنفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ حَمْدَه لربِّهِ عَزَّ وَجَلَّ هنا بكُبرى نِعَمِهِ تعالى وهي إنشاؤُهُ الكائناتِ على غير سَبْقِ مِثَالٍ، فإنَّ جَمِيعَ نِعَمِهِ تَرَتَّبَتْ على هذه النعمةِ العظيمةِ.

وفي الإتيان بذلك بَرَاعَةُ استهلالٍ، وهي أن يَأتِيَ الْمُتَكَلِّمُ في فاتِحَةِ كلامه مَا يُؤذِنُ بِمَقصوده، وقد ناسَبَ وصفُه سبحانه بإنشاءِ الكائناتِ مقصودَ الْمُصَنِّف، وهو إثباتُ وجوده عَزَّ وَجَلَّ ووَحْدانِيَّتِهِ واتصافِهِ بِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ، فإنَّ كلَّ ذرَّةٍ من ذرَّاتِ الكائناتِ شاهِدُ حَقٍّ على وُجُودِهِ تعالَى، لإعلانِهَا بِلِسَانِ حالِهَا أنَّها مُفْتَقِرَةٌ إِلَى واجبِ الوُجُودِ لِذَاتِهِ لإخراجِها من العَدَمِ إِلَى الوجود، ولأنَّ الكائناتِ بأسْرِها تُشَكِّلُ في مَجْمُوعِها وحْدَةً متكاملةً، وهي بذلك تدلُّ على وَحْدانيَّةِ مُكَوِّنِهَا، كما أنَّ عجيبَ تناسُقِها وبديعَ نظامِها مِنْ أكبرِ الدَّلالاتِ على



صـــفاتِهِ سبحانه من الحياة والقدرة والعلم والسَّمْعِ والبَصَر والغِنَى.

على أنَّ هذا الإنشـــاءَ ليس مســـبوقًا بِمَثيلٍ من إنشـــاءٍ كان مِنْ قِبَـــل غيرِه تعالى حتـــى يكون ثَمَّ اشتباهٌ بأنه ســـبحانه أنشأها على مثالِ ذلك الإنشاءِ الذي سَـــبَقَهُ بِهِ غَيْرُه، وذلك معنـــى قول الْمُصَنِّفُ «وَبِلا مِثْلٍ هُنَاكَ خَلا».

وما كان إنشـــاؤُها إلا على وَفْقَ الْمَشـــيئةِ الربَّانيَّةِ كما قال: «عَلَى مَا شَـــاءَهَا». على أنَّ غرائبَ طِبَاعِها الْمُختلفـــةِ مَعَ انتظامِها في سِـــلْكٍ وِئامِهـــا مِنْ أبْيَنِ الأدلَّةِ وأصْدَعِ البراهينِ علـــى أنَّها جَميعًا ما خَرَجَتْ في وُجودِها ولا في نظامِها عن إرادتِهِ ﷻ.

٢. ثُمَّ الصَّـــلاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَـيِّدِنَا
وَمَـــنْ إِلى قَابِ قَوْسَـــيْنِ دَنَا فَـــعَلا

«الصَّـــلاةُ» هي مِنَ اللهِ رَحْمَـتُهُ بعبادِه، ومِنْ ذلك قولُـــهُ: ﴿ يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ﴾ [الأحـــزاب: ٤٣]، أي يُنْزِلُ عليكم

رحماتِه، وهي مِنَ الْمَلائكةِ استغفارٌ، ومِنَ البَشَرِ دُعاءٌ، فنَحْنُ عندما نصلِّي على نبيِّنا ﷺ إنَّما ندعو اللهَ لَهُ بأنْ يَغْمُرَه برحماته العظيمة، وفيها معنى التعظيمِ، ولذلك صَارَتْ شِعَارًا للنبيِّين، ويَجُوزُ أنْ تكونَ لِغَيْرِهِمْ منَ الصَّالِحِينَ، كما في حديث: «اللهُمَّ صَلِّ على آلِ أبِي أَوْفَى»[1].

و«الْمُخْتَارُ» هنا اسمُ مفعولٍ مِن اختارَ يَخْتَارُ، وهو الذي اخْتِيرَ لِمَا أُرِيدَ اختصاصُهُ بِهِ، والْمُرَادُ بِهِ هنا رسولُ اللهِ ﷺ، فإنَّ اللهَ اختارَه لِحَمْلِ أعباءِ هذه الرسالةِ ولِتَبَوُّءِ مَنْصِبِ الفَضْلِ على جميعِ المخلوقاتِ، حتى كان رحمةً للعالَمِين.

و«السَّيِّدُ» مِنَ السِّيَادَةِ، وهي التَّفَوُّقُ على الغير بالسُّمُوِّ في مَدَارِجِ الفَضَائِلِ، ولا رَيْبَ أنه ﷺ سيدُنا جميعًا مَعَاشِرَ الْمَخْلُوقِينَ.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة / باب: صلاة الإمام ودعاؤه لصاحب الصدقة (١٤٩٧)، ومسلم في كتاب: الزكاة / باب: الدعاء لمن أتى بصدقة (١٠٧٨) من طريق عبد الله بن أبي أوفى.

وقولُهُ «ومَنْ إلَى قَابِ قَوْسَيْنِ دَنَا فَعَلا» عَطْفٌ لِنَعْتٍ على آخَرَ، وهو معهودٌ في الكلام العربي، ولَهُ شواهِدُ كثيرةٌ في القرآنِ، منها قولُهُ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٤].

و«القَابُ» القَدْرُ، و«القَوْسُ» معروفٌ وهو آلَةُ رَمْيِ السِّهَام، والْمُرادُ: أنَّ اللهَ تعالى أدْنَاهُ بِنَحْوِ قَدْرِ قَوْسَيْنِ، وذلك كنايةٌ عن تكريمِهِ، كما يُؤْذِنُ بِهِ قولُهُ «فَعَلا»، وفي ذلك إشارةٌ إلى قولِهِ تعالَى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩].

٣. وَالآلِ وَالصَّحْبِ مَا كَانَ الْهُدَى عَلَمًا
يَهْدِي بِهِ اللهُ لِلْخَيْرَاتِ مَنْ عَقَلا

التعريفُ في «الآلِ» لِلْعَهْدِ، والمراد بِهِمْ آلُ نبيِّنا ﷺ، وهم في مقامِ الدُّعاءِ جميعُ أتْبَاعِهِ ﷺ، سواءً كانوا من قرابَتِهِ أو مِنْ غيرِهم، كما قالَ صاحبُ شَمْسِ العُلُومِ[1]:

(١) نشوان بن سعيد الحميري.

آلُ النَّبِــيِّ هُــمُ أَتْبــاعُ مِلَّتِــهِ
مِنَ الأَعَاجِمِ وَالسُّــودَانِ وَالعَرَبِ
لَــوْ لَــمْ يَكُــنْ آلُــهُ إِلا قَرَابَتَــهُ
صَلَّى الْمُصَلِّي عَلى الغَاوِي أَبي لَهَبِ

ولا رَيْبَ في أنَّ دُخــولَ أتْباعِهِ مِنْ قرابَتِهِ في هذا دُخُولٌ أَوَّلِيٌّ.

و«**الصَّحْبُ**» اســمُ جَمْعٍ وَاحِدُهُ صَاحِبٌ، وهُمْ هُنا الذين تشــرفوا بِلِقَاءِ النبــي ﷺ وهم مؤمنونَ برسالته.

وقولُه «**مَا كَانَ الْهُدَى عَلَمًــا**» مُرَادُهُ بِهِ أنَّ الصلاةَ تَتَكَرَّرُ على نبيِّنا ﷺ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ مُدَّةَ انْتِصَابِ الهُدَى عَلَمًا؛ أيْ: عَلامَةً يُهْتَدَى بِهَا، ولذلك سُمِّيَ بِهِ الجَبَلُ الشــامخُ والرَّايَةُ، لأنَّ كُلًّا منهما علامةٌ بارزةٌ يَهْــتَدِي بِهَا الســائرونَ ويَلْــتَفُّ حولَهَا الْمُرِيدُونُ، والْمُــرَادُ بِـ«**الْهُدَى**» هُنَا الدِّيــنُ، ويُطْلَقُ على القرآنِ كثيرًا لأنه مَصْدَرُ عُلُومِهِ.

وقولُهُ «يَهْدِي بِهِ اللّهُ لِلْخَيْرَاتِ مَنْ عَقَلا» تَفْسِيرٌ لِكَوْنِ الهُدَى عَلَمًا، ومعناه أنَّ اللّهَ تعالى يَهْدِي بِهِ أُولِي الأَلْبَابِ مِنْ عِبَادِهِ لِخَيْرَيِ الدنيا والآخرةِ.

وفي هذا أيضًا بَرَاعَةُ استِهْلالٍ، لأنَّ المصنِّفَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْشَأَ قصيدتَه هذه لِيَكُونَ موضوعُهَا أُصُولَ الدِّينِ، وهي عِلْمُ الاعْتِقَادِ.

٤. وَبَعْدُ فَالدِّينُ لا عُذْرٌ لِجَاهِلِهِ
إِنْ كَانَ مِنْ بَعْدِ تَكْلِيفٍ بِهِ جَهِلا

أيْ: بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ حَمْدِ اللهِ والصلاةِ على رسولِهِ ﷺ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ جاءَ المصنِّفُ بِهَذا البَيَانِ.

وأَصْلُ «وَبَعْدُ» أمَّا بَعْدُ، فالواوُ هُنا نائبةٌ مَنَابَ أمَّا، و«أمَّا» هي هُنَا بِمَعْنى مَهْمَا، أيْ: مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فهو أنَّ الدِّينَ لا عُذْرٌ لِجَاهِلِهِ.

و«الدِّينُ» مِنْ دَانَ يَدِينُ بِمَعْنى خَضَعَ وانْقَادَ، ويُطْلَقُ عُرفًا على: كُلِّ ما يكونُ مِنْ قِبَلِ الإنسانِ في

حَقِّ مَعْـبُودِهِ تَقَرُّبًا بِهِ إِلَيْهِ مِن اعتقادٍ أو قولٍ أو عَمَلٍ.

وهو في العُرْفِ الشَّرْعِيِّ: ما شَرَعَهُ اللهُ لِعِبَادِهِ مِمَّا يُقَرِّبُهُم إلَيْـهِ مِمَّا أَنْزَلَهُ في كتابِهِ أو جَاءَ على لِسَانِ رَسُولِهِ مِن اعتقادٍ أو عبادةٍ أو شريعةٍ. وهو بِهَذا الْمَعنى لَيْسَ لَهُ مَصْدَرٌ إلا وَحْي الله تبارك وتعالى، فلا يَخْضَعُ للتَّجْرِبَةِ ولا لِغَيْرِهَا، ولذلك كان الدِّينُ عندَ اللهِ واحِدًا، وهو الإسلامُ الذي جاءَتْ بِهِ كُتُبُهُ وبَلَّغَتْهُ رُسُلُهُ، قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد أَفَادَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ هنا أَنَّ الدِّينَ لا يُعْذَرُ أحَدٌ بِجَهْلِهِ إنْ جَهِلَهُ بَعْدَ تكليفِهِ بِهِ.

و«**التَّكْلِيفُ**» لُغَةً: إِلْزَامُ ما فيهِ مَشَقَّةٌ. واصطِلاحًا: تَوْجِيهُ الأوامِرِ والنَّوَاهِي إِلَى الْمَخْلُوقِ مِنْ قِبَلِ خَالِقِهِ تعالَى، فَيَتَرَتَّبُ على امتثالِهِ نَيْلُ الثوابِ وعلى تَرْكِهِ استِحْقَاقُ العِقَاب. وهو مَشْرُوطٌ بثلاثةِ أُمُورٍ هي:

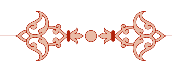
(أ) العَقْلُ

(ب) البُلُوغُ

(ج) قِيَامُ الحُجَّةِ على المُكَلَّفِ

والحُجَّةُ هي الدليلُ، وهو ما ثَبَتَ بِهِ المعنى في الذِّهْنِ سَوَاءً كان عقليًّا أو شرعيًّا، فالعقلُ حُجَّةٌ في معرفةِ اللهِ تعالى واتصافِهِ بالكَمَالاتِ واستحالَةِ النَّقَائِصِ عليه، والشَّرْعُ حُجَّةٌ في ذلك وفيما عَدَاه. وقيامُ الحُجَّةِ هو ظهورُها، لأنَّ لِلْقَائِمِ مِيزَةً على غَيْرِهِ في الظُّهُورِ.

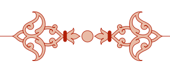
ويُضَمُّ إلى الشروطِ المذكورةِ: عَدَمُ الْمَانِعِ، أيْ: إِمْكَانُ الإتيانِ بِمَا كُلِّفَ بِهِ، فإنَّ مِنْ فَضْلِ اللهِ على عِبَادِهِ أنَّه لَمْ يُكَلِّفْهُمْ بِمَا لا يُطِيقُونَ، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]. وعليه فَيَسْقُطُ التكليفُ بِمَا لَمْ يَقْدِرِ الْمُكَلَّفُ على الإتيانِ بِهِ، وذلك لا يَعْني أنَّ عَجْزَهُ عن بَعْضِ ما كُلِّفَ بِهِ



يُسْقِطُ عنه سائرَ التكالِيفِ، وإنَّمَا يَسْقُطُ عنه ما عَجَزَ عنــه، ويَتَعَلَّــقُ بِذِمَّتِــهِ ما قَــدَرَ عليْــهِ، لذلك قال رســولُ الله ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَــيْءٍ فَأْتُــوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[1].



(١) أخرجه الإمام الربيع في كتاب: الحج، باب: في فرض الحج (٣٩٤) من طريق أنس بن مالك.



أسئلـة:

١. مَنْ هو ناظم القصيدة؟ اكتب تعريفًا موجزًا عنه، بذكر مولده ووفاته وبعض شيوخه وتلامذته ومؤلفاته.

٢. مَنْ هو شــارح القصيدة؟ اكتب تعريفًــا موجزًا عنه، بذكر مولده وبعض شيوخه ومؤلفاته.

٣. ما السبب الذي دعا الشارح إلى كتابة شرحه هذا؟

٤. ما اسم كتاب الشارح في التفسير؟

٥. عرّف الحمد والشكر في اللغة العربية؟

٦. عرّف الحمد والشكر اصطلاحا؟

٧. ما الفرق بين الفضائل والفواضل؟

٨. للحمد قسمان، فرّق بينهما واذكر أفضلهما؟

٩. ما معنى براعة الاستهلال؟ وهل كان الناظم بارعًا في استهلال قصيدته؟

١٠. اذكر معنى البيت الأول على سبيل الإجمال؟

١١. هــل يختلــف معنى الصــلاة فــي اللغــة باختلاف المُصلِّي؟

١٢. ما معنى صلاتنا على النبي ﷺ ؟

١٣. هل تجوز الصلاة على الصالحين؟ وما الدليل؟

١٤. ما معنى وصف النبي ﷺ بأنه (مختار) وأنه (سيد)؟

١٥. مَنِ المقصود في قول الناظم: (ومن إلى قاب قوسين دنا فعلا)؟ وما معنى هذا الوصف؟

١٦. مَنْ هم آل النبي ﷺ ؟

١٧. عرّف الصحابة تعريفا موجزًا؟

١٨. كلمتا: (الهدى) و (العلم) تُطلقان على أكثر من معنى، اذكرها؟

١٩. بيّن معنى البيت الثالث باختصار؟

٢٠. ما معنى الدِّين في عُرف اللغة والشرع؟

٢١. ما المقصود بقول الناظم: (الدين لا عذر لجاهله)؟

٢٢. بيّن معنى التكليف لُغة واصطلاحا؟

٢٣. للتكليف شروط أربعة، اذكرها مع الشرح؟

ذِكْرُ الجُمَلِ الثَّلاثِ
وَمَا تَشْتَمِلُ عَليْه

الجُمْلَةُ وَتَفْسِيرُهَا

٥. وَأَوَّلُ الفَرْضِ مِنْ تَأْصِيلِهِ جُمَلٌ
ثَلاثَةٌ، فُزْتَ إِنْ تَسْتَحْضِرِ الجُمَلا

يَعْني أنَّ أوَّلَ ما افْتَرَضَه اللهُ على عِبَاده ثَلاثُ جُمَل ، وقد يُعَبَّرُ عنها جَمِيعًا بِـ«الْجُمْلَةِ»، وَهِيَ غيرُ الجُمْلَةِ الْمُصْطَلَحِ عَلَيْهَا عِنْدَ النَّحْوِيِّين على هذا التعبير، وإنَّما هو اصْطِلاحٌ خَاصٌّ نَظَرًا إِلَى اشْتِمَالِهَا في إِجْمالِهَا علـى العَدِيدِ مِنَ الْمَعَانِـي الَّتي تتَّضحُ بِتَفْسِيرِها، وَهِيَ تَرْجِعُ كُلُّها إِلَى ما يَجِبُ الإِيْمَانُ بِهِ عِنْدَ قِيَامِ حُجَّتِهِ.

وتَقْسِيمُها إِلَى ثَلاثٍ لاشْتِمَالِهَا على ثَلاثةِ أرْكَانٍ؛ وجَعْلِ كُلِّ رُكْنٍ منها جُمْلَةً مُسْتَقِلَّةً مع مُرَاعَاةِ الاصْطِلاح النَّحْوِيِّ في الجُمْلَةِ. والأركانُ الثَّلاثةُ هي

الإِيْمَانُ بالله، وبِرَسُـــولِهِ مُحَمَّــدٍ ﷺ، وأنَّ ما أَنْزَلَ اللهُ عليه هو الحقُّ الْمُبِينُ، فالأوَّلُ تَتَضَمَّنُهُ جُمْلَةُ «**أشـــهد أنْ لا إِلَهَ إلا الله**»، والثانِي جُمْلَةُ «**وأشْـــهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رَسُـــولُ الله**»، والثَّالِثُ جُمْلَةُ «**وأشـــهدُ أنَّ ما جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ هو الْحَقُّ مِنْ عندِ الله**»، فاعْتِبارُها ثلاثَ جُمَلٍ لِمَا ذَكَرْناه من استقلالِ مَفْهُومِ كُلِّ واحِدَةٍ منها وَضْعًا، واعْتِبارُها جُمْلَةً واحدةً لأنَّهـــا جَمِيعًا تُؤَدِّي إِلَى غايةٍ واحدةٍ؛ وهي الخُروجُ مِـــنْ عُهْدَةِ الكُفْرِ والدُّخُولُ في عُهْدَةِ الإِســـلام، ولا يَكُـــونُ ذلك إلَّا لِمَـــنْ أتى بِهَا جَميعًا. وهـــذا الاصْطِلاحُ إنَّما هو خَـــاصٌّ بأصْحَابِنَا ـ رَحِمَهُمُ اللهُ ـ وَحْدَهُمْ، إذْ لا يَكَادُ يُوجَدُ عِنْدَ غَيْرِهِمْ.

والأَصْلُ في تَكَاليفِ الاعتقادِ أنْ يُطَالَبَ الإنسانُ بِهَذِهِ الجملةِ، فإنْ جاءَ بِهَـــا كان صحيحَ الاعتقادِ إنْ لَمْ يَنْقُضْهُ بِشَـــيءٍ مِمَّـــا يُنافِي مَفْهُومَهـــا، لأنَّ جَميعَ الْمُعتَقَداتِ الحقَّةِ تَنْدَرِجُ تَحْتَ مَدْلُولاتِهَا ضِمْـنًا.

❖ فالشَّهَادةُ بِأنْ لا إلَهَ إلا اللهُ تعني إفرادَه سبحانه وَحْدَه بالأُلُوهيَّة، وما ذلك إلا لأنَّه ﷻ تَخْتَلِفُ صفاتُه

عن صفات خَلْقِهِ، فهو لا يُشْبِهُهُمْ وهُمْ لا يُشْبِهُونه، لأنَّ صفاتِهِ تَلِيقُ بكَمَالات الأُلُوهِيَّةِ.

❖ والشَّهادةُ بأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ تَقْتَضِي التَّصْدِيقَ الْمُطْلَقَ بأنَّ كُلَّ ما بَلَّغَهُ عن اللهِ تعالَى هو حَقٌّ، وهو مَدْلُولُ الجُمْلَةِ الثالثةِ الَّتي جاءَتْ مُؤَكِّدَةً هذا الْمَعْنى.

❖ ويَنْدَرِجُ ضِمْنَ ذلك التصديقُ بِجَميعِ الحقائقِ الغَيْبِيَّةِ التي أخْبَرَ بِهَا عليه الصلاةُ والسلامُ، سَوَاءً ما كانَ مَنْصُوصًا عليه في الوَحْيِ الظاهِرِ الذي أُوحِيَ إليه وهو القرآنُ، أو كانَ مِمَّا تَضَمَّنَهُ الوَحْيُ الباطِنُ فَصَاغَهُ في حديثِهِ عليه أفضلُ الصلاةِ والسلامِ، ويَدْخُلُ في ذلك الإيْمانُ بصفاتِ اللهِ ﷻ وأفعالِهِ، والإيْمانُ بِجَميع الْمُرْسَلين وبِكُلِّ ما أُوحِيَ إليهِمْ من كُتُبٍ وغيرِها، وبالْمَلائِكَةِ وأحوالِهِمْ، وباليومِ الآخِرِ وجَميعِ أحوالِهِ، وبِقَضَاءِ اللهِ وقَدَرِهِ.

علَى أنَّ كثيرًا مِنْ عُلمائِنا اكتَفَوْا في هذا **بالشَّهادتَيْنِ**، لانْدِرَاجِ مفهومِ الجملةِ الثالثةِ في

الإيْمان برسالَةِ محمَّدٍ ﷺ، لأنَّ هذا الإيْمانَ يَعْني التصديقَ بأنَّ ما جاءَ بِهِ هو الحقُّ الْمُبِينُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ويُؤَيِّدُ ذلكَ حديثُ «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إلا اللهُ محمَّدٌ رسولُ اللهِ، فإذا قالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا»[1]. وفي حديثِ ابنِ عُمَرَ عِنْدَ الشَّيْخَيْنِ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ وأَنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، فإذا فَعَلُوا ذلك فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإسلامِ»[2].

ومِنْ تَيْسِيرِ اللهِ تَعالَى دينَهُ لِعِبَادِهِ أنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْهُمُ اسْتِحْضَارَ الْمعتَقَدَاتِ الحقَّةِ بأَسْرِهَا دُفْعَةً واحِدَةً، وإنَّمَا جَعَلَ تكليفَهم بِهَا تَدَرُّجًا، فأَوْجَبَ عليهم أوَّلًا هذه الجملةَ، وكانت كافِيَةً في عَدِّ مَنْ جاءَ بِهَا مُؤمنًا

(١) أخرجه الإمام الربيع في كتاب: الجهاد/ باب: جامع الغزو في سبيل الله (٤٦٤) من طريق ابن عباس.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان/ باب: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة» (٢٥)، ومسلم في كتاب: الإيمان/ باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (٢٢).

صحيحَ الإيــــمانِ، وإنَّما تَجِـــبُ الْمُعْتَقَـــدَاتُ الحَقَّةُ تَفْصِيلًا علـــى مَنْ قامتْ عليـــه حُجَّتُهـــا وَوَضَحَ لَهُ معناها، ولذلــك كانَ النبـــيُّ ﷺ يَقْتَصِرُ فـــي دَعْوَةِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الإســـلامِ بِعَرْضِ هذه الجملةِ عليهم مُتَمَثِّلَةً في الدَّعْوَةِ إِلَى الإتيانِ بالشهادَتَيْنِ.

هذا؛ ولِهَذِهِ الجملةِ عند أصحابِنا **تَفْسِيرَانِ**:

(أ) اعْتِقَـــادِيٌّ: وهو ما أَشَـــرْنَا إليهِ مِـــنَ الإيْمان تَفْصِيلًا بِصِفَـــاتِ اللهِ وأفعالِـــهِ والنَّبِيِّيـــنَ والْمَلائكةِ والكُتُبِ واليَـــوْمِ الآخِرِ وبقضائِهِ وقَـــدَرِهِ، ولا يَجِبُ شيءٌ مِنْ ذلك إلا على مَنْ قامت عليه حُجَّتُه ـ كَمَا ذَكَرْنَا ـ.

(ب) عَمَلِـــيٌّ: وهو الوَفَـــاءُ بالتكاليف الشـــرعيَّةِ التطبيقية فِعْلًا وتَرْكًا في حِينِ وجوبِهَا.

والدليلُ على كَوْنِ ذلك تَفْسِيرًا للجُملة: أنَّ الإتيانَ بِهَذِهِ الجملـــةِ إنَّما هو عَهْدٌ وميثاقٌ بيـــن العَبْدِ وربِّهِ بالالتزام التَّامِّ بِفِعْلِ أوامِرِهِ وتَـــرْكِ نواهيه، فإنَّ العبدَ إذا شَـــهِدَ أنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ كانت شـــهادتُه ميثاقًا بَيْنَهُ

وبَيْنَ ربِّهِ سبحانه لأَنْ يَلْتَزِمَ طاعَتَه، لأنَّ معنى ذلك أنَّه لا مَعْبودَ بِحَقٍّ إلا الله، والعبادةُ هي مُنْتَهَى الطاعةِ وغايةُ الخُضُوعِ والانقيادِ، فإنْ أَصَرَّ بَعْدَ ذلك على مَعْصِيَتِهِ وتَجَرَّأَ على انتهاك حُرُمَاتِهِ كان ذلك نَقْضًا لِهَذا الْمِيثاقِ.

والدليلُ على هذا التفسيرِ: ما جاءَ في حديثِ ابنِ عُمَرَ مِنْ قولِهِ ـ عليه أفضلُ الصلاة والسلام ـ: «فإذا فَعَلُوا ذلك فقد عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأموالَهُمْ إلا بِحَقِّ الإسلام»، وقولُهُ في الرِّواية الأخرى: «إلَّا بِحَقِّها»، حيثُ أشارَ إِلَى أنَّ لِهَذَا الإسلامِ الذي يُسْلِمُهُ العبدُ بِهَذِهِ الجُمْلَةِ حَقًّا لا بُدَّ لَهُ مِنَ الوَفَاءِ بِهِ.

٦. وَإِنْ أَتَيْتَ بِهَا نُطْقًا حَفِظْتَ بِهَا
لِلنَّفْسِ وَالْمَالِ، وَالسَّبْيُ بِهَا حُظِلا

النُّطْقُ بِهَذِهِ الجملةِ يَصُونُ النفسَ البشريَّةَ مِنَ الحُكْمِ عليها بأحكام المشرِكِينَ، ويَتَرَتَّبُ على ذلك صَوْنُ مَنْ نَطَقَ بِهَا عَنْ سَفْكِ دَمِهِ أو غُنْمِ مالِهِ أو

سَـــبْيِ ذُرِّيَّتِهِ، لأنَّه حُجَّةٌ فيما بَيْنَ مَنْ نَطَقَ بِهَا وبين المســـلمين، إِذِ الناسُ مُتَعَبَّدُونَ فيما بينهم بِمَا يَبْدُو مِنْ بَعْضِهِـــمْ لِبَعْضٍ مِنْ ظواهِرِ الأقوالِ والأفعـــالِ دُونَ ما يَخْفَـــى عنهم مِنْ طَوَايَا النِّيَّـــاتِ والأَحْوالِ، ولِذَلك صِينَـــتْ دِمَـــاءُ الْمُنَافِقِينَ الذين أَتَـــوْا بِهَذِهِ الجملةِ بألْسِـــنَتِهِمْ مع ما عَلِمَ اللهُ مِنْ دَخَائِلِهِمُ التي تُنَافِيها، وإنَّما اللهُ وَحْدَهُ يُحَاسِـــبُهُمْ ويُجَازِيهِمْ على هذه الدَّخَائِلِ.

وقد اخْـــتَلَفَ العُلَمَاءُ في الإِيْمـــان بِهَذِهِ الجملةِ؛ هَلْ يكفي فيه التصديقُ في السَّرِيرَةِ؟ أو أنَّه لا بُدَّ مِنْ إظهارِ ذلك نُطْقًا باللِّسَانِ؟

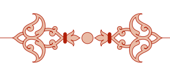
فالْجُمْهُورُ على أنَّه لا بُدَّ منهمـــا مَعًا، وهو الذي عَلَيْهِ **أكثرُ أصحابِنَا** ـ رَحِمَهُـــمُ اللهُ ـ، وذَهَبَ **قِلَّةٌ مِنْ أصْحَابِنَا** إِلَى أنَّ العِبْرَةَ في الإِيْمان إنَّما هو بالتَّصْدِيقِ وَحْـــدَه، ولا يَجِبُ التعبيرُ عنه باللِّســـانِ إلا في مَقَامِ دَفْـــعِ الرِّيبَةِ، ولذلـــك كانَ الْمُشْـــرِكُونَ مُطَالَبِينَ بِأَنْ يَنْطِقُوا بِهَـــا بِصَرِيحِ العِبَـــارَة، لأَنَّهم ناشِـــئُونَ على

الشِّرْكِ، ولا يُخَلِّصُهُمْ منه ـ في حُكْمِ الظاهِرِ ـ إلا ما يَهُدُّ أَرْكَانَه ويَجْتَثُّ صُرُوحَه وهو النُّطْقُ بِهَذِهِ الجملةِ، أمَّا مَنْ كان ناشِئًا على الإسلام مُؤَدِّيًا لِفُرُوضِهِ قائِمًا بِشَعَائِرِهِ فهو في عِدَادِ المؤمنين ولَوْ لَمْ يَنْطِقْ بِهَا.

وحُجَّةُ هؤلاءِ: إسْنَادُ الإيمَانِ إلى القُلُوبِ في كثيرٍ من النُّصُوصِ، كما في قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] وقولِهِ ﷻ: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

ولا خِلافَ في أنَّ التصريحَ بِهَا نُطْقًا أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ.

و«حُظِلَ» في البَيْتِ بِمَعْنى: مُنِعَ.



أسئلـة:

١. ما أول ما يُكلّف به الإنسان؟

٢. ما الفرق بيـــن الجملة فـــي الاصطلاحين العقدي والنحوي؟

٣. لماذا عبَّر الناظم عن الجملة بثلاث جُمل؟

٤. ما أركان الجملة؟ اذكرها مع الشرح.

٥. لماذا اكتفى بعض العلماء بركنَين من الجملة؟

٦. للجملة تفسيران، ما هما؟ وما الدليل عليهما؟

٧. متى يُحْفَظُ دمُ الإنسان وماله ويُمْنَعُ سَبْيُ ذريته؟

٨. هل يكفي التصديق القلبي بالجملة؟

نَفْيُ الأَنْدَادِ وَالأَشْبَاهِ عَنِ اللهِ تَعَالى

٧. نَـدِينُ أَنَّ إِلَـهَ العَـــرْشِ لَـيْسَ لَـهُ
شِبْـــهٌ وَلَـــيْسَ لَـــهُ نِـــدٌّ وَلا مَـثَلا

هَذَا شُـرُوعٌ مِنَ الْمُصَنِّفِ ـ رَحِمه الله تعالَى ـ في تَبْيِـــين تَفْسِـــيرِ الجُمْلَةِ الاعْتِقَادِيِّ، وقد بَـــدَأَ بِأَهَمِّ ما فيه؛ وهو مَا لَهُ صِلَةٌ بِمَعْرِفَةِ الله تعالَى، فإنَّ الإيْمانَ باللهِ هو أصْلُ الإيْمان بِكُلِّ ما يَجِبُ أنْ يُؤْمَنَ بِهِ.

ومَعْنَى «نَدِينُ»: نَعْتَقِدُ ذلكَ جَزْمًا.

و«إِلَـهُ العَرْشِ» هو اللهُ سبحانه، والأصلُ في الإِلَـهِ أنَّه بِمَعْنَى: مَأْلُوه؛ أيْ: مَعْـــبُود، فهو فِعَـــالٌ بِمَعْنَى مَفْعُـــول، كـ:كِتَاب بِمَعْنَـــى مَكْتُـــوب، وإنَّما خُصَّ بالْمَعْـــبُودِ بِحَقٍّ فـــي الاصطـــلاحِ الشَّـــرْعِيِّ لِعَدَمِ الاعْـــتِدَادِ بالعبادة البَاطِلَةِ التي تَكُونُ مِمَّن اتَّخَذَ مَعَ اللهِ إِلَـــهًا آخرَ.

و«العَرْشُ» هو أعْظَمُ مَخْلُوقاتِ اللهِ سبحانه.

وكونُهُ ﷻ **إلَـهًا لِلْعَرْشِ** يَلْزَمُ مِنْهُ أنْ يَكُون إلَهًا لِمَا دُونَهُ مِنْ سائِرِ المَخْلُوقات، فَلِذَلِكَ عَبَّر بذلك ولَمْ يَقُلْ: إلَـهُ الخَلْقِ مَثَلًا. والعَرْشُ وغيرُهُ مِنْ مَخْلُوقاته سبحانه يَشْرُفُ كلٌّ منها بعبادته ﷻ، فإنَّهَا جَمِيعًا تُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وتَخْضَعُ لِجَلالِ كِبْرِيَائِهِ، قال تعالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحج: ١٨].

ومَعْنَى البَيْتِ: أَنَّنَا نَعْتَقِدُ اعتِقَادًا جازِمًا أنَّ إلَـهَ العَرْشِ سبحانه وتَعالَى لَيْسَ لَهُ شِبْهٌ ولا نِدٌّ ولا مَثَلٌ.

والفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ الثلاثة:

- أنَّ **الشِبْه** ـ بِكَسْرٍ فَسُكُونٍ، ويُقَالُ: شَبَهٌ بِالتَّحْرِيكِ وَشَبِيهٌ كَعَظِيمٍ ـ: هُوَ الْمُسَاوِي في أَغْلَبِ الصِّفَاتِ.

- وأنَّ **النِّدَّ:** هُوَ الْمُسَاوِي الْمُضَادُّ.

❖ وَأنَّ **الْمَثَلَ** ـ بِالتَّحْرِيكِ، ويُقَـــالُ: مِثْلٌ بِكَسْرٍ فَسُكُونٍ وَمَثِيلٌ ـ: هُوَ الْمُسَاوِي في جَميعِ الصفات.

و**خُلاصَـةُ ذلك** أنَّ اللهَ ﷻ لا يُشْبِهُ شيئًا ولا يُشْبِهُهُ شـــيءٌ، فهو مُبَايِنٌ لِمَخْلوقاته فـــي كلِّ أوصافِه، فلا يُوصَفُ بِشَـــيْءٍ من صِفَـــاتِ خَلْقِهِ قَـــطُّ، لأنه خالقُ الخلقِ، ويَسْـــتَحِيلُ عَقْلًا وشَرْعًا أنْ تُشْبِهَ الصَّـــنْعَةُ صَانِعَهَا.

وكيف يكون مِثْلَها وهو الأَزَلِيُّ الأَبَدِيُّ الذي لَمْ يَسْـــبِقْ وُجُودَهُ عَدَمٌ ولا يُعْقِبُـــهُ فَنَاءٌ، ولَـــمْ يَتَوَقَّفْ وُجودُه على وُجودِ غيره، وإنَّمـــا وُجودُ كُلِّ ما عَدَاهُ ما كان إلا بوُجودِه، فهو الذي أخْرَجَ كلَّ شـــيءٍ من العَدَمِ إلَى الوُجُـــودِ، وَمَعْنى هذا أنَّ ما عَدَاهُ ناقِصٌ، ولَهُ وَحْـــدَهُ الكَمَالُ الْمُطْلَقُ، وما بِغَيْـــرِهِ من مَظَاهِرِ الكمالِ فهو مِنْ عندِه نِعْمَةً أَسْبَغَهَا عليه وحِلْيَةً زَيَّـــنَهُ بِهَا، وقد عرَّفَنا ســـبحانه بِنَفْسِـــهِ عندما قال: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشـــورى: ١١]، وقال:

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾

[الحديد: ٣].

هذا ولا يُنافِي ذلك ما نَجِدُهُ في بَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ مِن الاتِّصَافِ بِبَعْضِ الصِّفَاتِ الَّتي هِيَ مَظَاهِرُ لِكَمَالاتِهِ، كالحياةِ والسَّمْعِ والبَصَرِ والعِلْمِ والقُدْرَةِ؛ لِلتَّبايُنِ العظيمِ بين صِفَاتِ الحقِّ وصِفَاتِ الخلقِ في كُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ اتِّصَافَ الْمَخْلُوقِ بأيِّ شيءٍ مِنْ ذَلك لَمْ يَكُنْ إلا فَيْضًا رَبَّانِيًّا وفَضْلًا لَدُنِّيًّا اختَصَّ بِهِ تعالَى مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، بينما اتِّصَافُ الحقِّ بذلك ذَاتِيٌّ لَمْ يأتِ مِنْ قِبَلِ غَيرِه ﷻ.

ومَعَ هذا فإنَّ اتصافَ الْمَخلُوقِ لا يَعْدُو أنْ يَكُونَ نِسْبَةً مَحْدودةً تَكَادُ تَتَلاشَى في خِضَمِّ ما يتَّصِفُ بِهِ مِنْ أضْدَادِ هذه الكَمَالاتِ، فَهُوَ وَإِنْ أُوتِيَ مِنَ العلمِ والقدرةِ والسمعِ والبَصَرِ ما كان به آيةً بين الخلق؛ لَيْسَ لَهُ من حقائقِ هذه الصفاتِ إلا النَّزْرُ الذي لا يكاد يُذْكَرُ إذا ما قِيسَ بِمَا يَزْخَرُ به من أضدادِهَا، فإنَّ ما يَعْلَمُهُ لا يُساوي شيئًا بِجَانِبِ ما يَجْهَلُه،

وما يَقْدِرُ عليه لا يُعَدُّ شيئًا بِجَانِب ما يَعْجِزُ عنه، وما يَسْمَعُهُ مِنَ الأصوات لا يكاد يُذكَرُ بِجَانب ما لا يَسْمَعُهُ، وهكذا ما يُبْصِرُه ما هو إلا نقطةٌ في بَحْرِ ما لا يُبْصِرُهُ مِنَ الكائناتِ.

على أنه لا يُدْرِكُ إلا ظَوَاهِرَ الأشياءِ دُونَ خَفَايَاهَا، والله ﷻ مُحِيطٌ بكُلِّ شَيْءٍ إِدْرَاكًا وقُدْرَةً، فهو لا يُعجِزه شَيْءٌ، ولا تَخْفَى عليه خافيةٌ، وهكذا في جَمِيعِ الصفات.

٨. وَأَنَّهُ لَيْسَ جِسْمًا لا وَلا عَرَضًا
لَكِنَّهُ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ كَمَلا

٩. وَوَاحِدٌ فِي الصِّفَاتِ وَالعِبَادَةِ وَالـ
أَفْعَالِ طُرًّا، فَلا تَبْغُوا بِهِ بَدَلا

أيْ: ونَدِينُ كذلك بأنه تعالَى لَيْسَ جِسْمًا ولا عَرَضًا، لأنَّ الأجسامَ والأعراضَ لا تكونُ إلا حادثةً مخلوقةً، وكلٌّ منها مُفْتَقِرٌ إلى غيره، فالجسمُ لا يَخْلُو مِنَ الأعراضِ، لأنه لا بُدَّ لَهُ مِنْ حَرَكَةٍ أو

سُـــكُونٍ، وَهُمَا عَرَضَانِ، ولا بُدَّ لَه من لَوْنٍ يَظْهَرُ به، وهو أيضًا منَ الأعراضِ، والعَرَضُ لا بُدَّ لَه من جِسْمٍ فهو مفتقرٌ إليه.

والجســـمُ هو أيضًا بِحَاجـــةٍ إلى مـــكانٍ يَحِلُّ بِهِ وزمانٍ يَجْرِي عليه، والزمـــانُ والمكانُ حادِثانِ، وما افْتَقَرَ إلى الحادثِ فهو حادثٌ، على أنه لو قيلَ بِعَدَمِ حُدُوثِ المكانِ لَزِمَ منه تعدُّدُ القُدَماءِ، وهو مُسَـــوِّغٌ لِتَعَدُّدِ الآلِهَةِ، على أنه لو كان مفتقرًا إلى مكانٍ لَكانَ المكانُ أوْلَى منه بالألوهية لكونهِ مفتقرًا إليه.

ثُـــمَّ إنه لـــو كان جســـمًا لَتَرَتَّبَ عليـــه أن يكون مَحْدُودًا من جهاته السِّـــتِّ، والْمَحْدُودُ إمَّا أن يكونَ قادرًا على الامتـــدادِ أو غيرَ قادرٍ عليـــه، وكلٌّ منهما باطلٌ، فَإِنَّهُ لـــو كان يَمْتَدُّ ويزيدُ لَـــزِمَ من ذلك كونُه متغيِّرًا غيرَ ثابتٍ، والتغيُّرُ من سِـــمَاتِ الحوادثِ، ثُمَّ إنَّ الفضاءَ الذي يَزِيدُ فيـــه إمّا أن يكونَ عَيْنَه وإمَّا أن يكون غَيْرَه، ويســـتحيلُ أن يكونَ عينَه، لأنَّ الشـــيءَ لا يزيد في عينِه، وإنْ كان غيرُه لَزِمَ افتقارُه إليه.

وبِبُطْلانِ ذلك كلِّهِ يَتَعَيَّنُ بطلانُ كَوْنِه جسمًا، وإذا ظَهَرَ بُطلانُ كَوْنِهِ جسمًا فبُطلانُ كونِه عَرَضًا أظْهَرُ، لأنَّ العَرَضَ مفتقرٌ إلى الجسم، إذْ لا يقومُ بنفسِهِ، كَنُورِ الشمْسِ ولَوْنِ الوَرْدِ وحَرَكَةِ المتحرِّكِ وسُكونِ الساكِنِ.

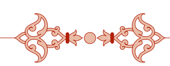
وإذا ثَبَتَ أنه لَيْسَ جِسْمًا ولا عَرَضًا فمعنى ذلك أنه واحدٌ في ذاته، يستحيل عليه التَّعَدُّدُ ويستحيل عليه مشابَهَةُ شيءٍ من الذَّوَاتِ الأخرى، كما أنه واحِدٌ في صفاته لاستِحَالة أنْ تكون صِفاتُه كصفاتِ الْخَلق، وواحدٌ في أفعالِه فلا تُشْبِهُ أفعالُه أفعالَ الْخَلْقِ، لأنَّ أفعالَهم لا تكون إلا بِمُحاوَلَةٍ ومُزَاوَلَةٍ، وأفعالُ الله بِخِلافِ ذلك، وإنَّما يَقُول للشيءِ كُنْ فيكونُ، ولا يستعين على أيِّ شيءٍ بأعوانٍ، فلا يُشارَكُ في شيءٍ من أفعالِهِ، إذْ لا أَثَرَ لغيرِه تعالَى في إيْجادِ الخلقِ ولا في إفنائِهم ولا في بَسْطِ رِزْقِه ولا في قَبْضِه، ولا في رَفْعِهِ ولا في خَفْضِه، ولا في إِثَابَتِهِ ولا في مُعاقَبَتِه، ولا في أيِّ شيءٍ مِمَّا يُحْدِثُ في خَلْقِهِ.

لأَجْلِ ذلك كان واحدًا في عبادته فلا يُشْرَكُ فيها غيـرُه، وذلك معنـى لا إلـه إلا الله، فـإنَّ معناها: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ، فكلُّ ما يُعبَد دونَه عبادتُهُ باطلةٌ، لأنه نفسَه مَخْلوقٌ مفتقرٌ إليه تعالَى.

لذلك لَمْ يكن لأَحَدٍ أن يَبْغِي به تعالى بَدَلًا يَعْبُدُهُ مِنْ دُونِه أو مَعَه أو يستعين بِه في أمورِه ويدعوه في كشفِ كَرْبِه، فإنَّ اللهَ وحدَه هو الذي يكشف الكُروبَ ويستجيب الدعاءَ، ولذلك وَجَبَ أن يُفْرَدَ بالدعاء والاستعانةِ كما يُفرد بالعبادة، وهو الذي دلَّ عليه قولُه تعالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. أيْ لا نعبُد إلا إياك ولا نستعين إلّا إياك.

وذلك لا يُنافي تعاونَ الناس فيما بينهم فيما كان التعاونُ فيه من سُنَنِ الحياة التي يقومُ عليها نظامُها، فإنَّ هذه الاستعانَةَ إنَّما هي بالله في حقيقتِها وإنْ كانت بِمَخْلوقِهِ في ظاهِرِها، إذِ الله تبارك وتعالى هو الذي أَقْدَرَ ذلك الْمَخلوقَ على الرِّعايةِ ومكَّنَهُ منها وساقَهُ إليها.

على أنَّ هذه الاســتعانةَ لا تَتَعَدَّى حُدودَ ما أقدَرَ اللهُ سبحانه عبادَه عليه إِلَى ما لَمْ يُقْدِرْهُمْ على فعلِه، كَهِبَةِ الأولادِ، ومَنْحِ الحظوظِ والسَّعادةِ والجاهِ، ورفعِ البَلاوَى من الأسقامِ والأوجاعِ، ورفعِ المصائب، فإنه مَهْمَا يَكُنْ للإنسانِ مِنْ فعلٍ في ذلك فهو لا يتجاوزُ حُدُودَ الطبيعة الْمُشْتَرَكَةِ بين الخلقِ، وما سواه فمَرَدُّهُ إِلَى خالقِ الخلق وباسِــطِ الرزقِ الذي يُؤتِي الْمُلْكَ مَنْ يشاءُ ويَنْزِعُهُ مِمَّن يشاء ويُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشـــاء، كما يُولِجُ الليلَ في النهـــارِ ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ، ويُخْرِجُ الحَيَّ مِـــنَ الْمَيِّتِ ويُخْرِجُ الْميِّتَ من الحيّ ويَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.



أسئلـة:

١. بيّن معنى كلمة (الإله) في اللغة والاصطلاح؟

٢. لماذا عبَّر الناظم عن الله تعالى بأنه (إله العرش)؟

٣. ما الفرق بين الشـبه والندّ والمثـل؟ وما معنى نفيها عن الله تعالى؟

٤. هل هناك فرق بين اتصاف الله تعالى بالحياة والسمع والبصر والقدرة واتصاف خلقه بها؟

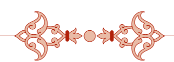
٥. ما الدليل على أنَّ الله ليس جسمًا ولا عرضًا؟

٦. ما معنى أنّ الله واحد في ذاته؟

٧. مـا معنـى أنَّ الله واحـد فـي صفاته، مـع اتصاف المخلوقات ببعضها؟

٨. ما معنى أنَّ الله واحد في العبادة؟

٩. هل دعوة الناس إلى التعـاون تُنافي إفراد الله بالدعاء والاستعانة؟



أَسْمَاءُ اللهِ وَصِفَاتُهُ الذَّاتِيَّة

١٠. أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُ الذَّاتِ لَيْسَ بِغَيْـ
ـرِ الذَّاتِ بَلْ عَيْنُهَا فَافْهَمْ وَلا تَحُلا[1]

يَعْني أنَّ أسْمَاءَهُ تعالَى هي عَيْنُ ذاتِهِ لا غَيْرُهَا.

ومُرَادُهُ بذلك مَدْلُولُ الأسْـمَاءِ لا أَلْفَاظُها، كما بَيَّـنَهُ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ في مَشَـارِقِ الأَنْوارِ، وحَرَّرَهُ قُطْـبُ الأَئِمَّةِ رَحِمَهُ اللهُ فـي هِمْيَانِ الزَّادِ، فـإنَّ الألفاظَ يَسْتَحِيلُ أنْ تكونَ هي الذاتَ العَلِيَّةَ، فإنَّها حُروفٌ مُرَكَّبَةٌ، ويستحيلُ كَوْنُ الذَّاتِ تلكَ الحُرُوفَ، وإنَّما لِتِلْـكَ الحـروفِ مَدْلُولٌ تَـدُلُّ عليه، وبِمَـا أنَّها بِتَرَاكِيبِهَا كانت منها أسْـمَاءٌ للهِ تَعَالَى فإنَّها عندما تُرَكَّبُ تِلْكُمُ التَّرَاكيبَ الخاصَّةَ الدَّالَّةَ على الأسْمَاءِ يكـونُ مدلولُهَـا الْحَقِيقيُّ هـو عينَ ذاتِـهِ تبارك وتعالَى، لأنَّها وُضِعَـتْ إِزَاءَ الـذَّاتِ لِتَدُلَّ عليها، وكذلك صِفَاتُهُ الذاتيَّةُ ما هي إلا عَيْنُ ذاتِهِ سبحانه،

---

(١) ولا تَحُلا: أي لا تتغير من الاستواء إلى الاعوجاج.

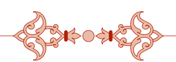
وإنْ كانتْ دالَّــةً على مَعَانٍ اعتبارِيَّةٍ يُــرَادُ بِهَا نَفْيُ أَضْدَادِهَا عن الذَّاتِ العَلِيَّةِ.

ولا بُدَّ أوَّلًا مِنْ بيان **الصِّفات الذاتية** والفَرْقِ بينها وبين **الصِّفات الفِعْلِيَّةِ.**

فالصِّفاتُ الذاتية: هِيَ صِفَاتٌ واجبةٌ لِذَاتِهِ تعالى أَزَلًا وأَبَدًا لأنَّها كَمَالاتٌ، ولَو انْتَفَتْ لَكَانَ سبحانه مَوْصُوفًا بأضْدَادِها، وهي مستحيلةٌ؛ لأنَّها دالَّةٌ على نَقْصٍ يســتحيلُ أنْ يَتَّصِفَ بِهِ مُبْــدِئُ الوجودِ. مِنْ أَجْلِ هَــذَا عَبَّرُوا عن الصفات الذاتيــة بأنَّها صِفَاتٌ واجبةٌ في حقِّــهِ ﷻ، وعن أَضْدادِهَــا بأنَّها صفاتٌ مستحيلةٌ عليه.

وقد **فَرَّقُوا** بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية بـ:

- أنَّ **الصِّفات الذَّاتية** هي ما اتَّصَفَ به تعالَى في الأَزَلِ وفيما لا يَزَالُ، كالحياةِ والعِلْمِ والقُدْرَةِ والسَّمْعِ والبَصَرِ وجميعِ الكَمَالات الذاتيــة، فإنَّه لو لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِهَا لَزِمَ اتِّصافُهُ بأضدادِها من الْمَوْتِ والعَـجْزِ



والْجهْلِ والصَّمَمِ والعَمَى وغيرِها من صفات النَّقْصِ، وهو مستحيلٌ عليه تعالى.

❖ أمَّا **صِفَاتُ أفْعَالِهِ** فَقَد اتَّصَفَ بِهَا فيما لا يَزَالُ لا في الأَزَلِ، كَخَلْقِ الخَلْقِ وإحيائِهِمْ وإماتَتِهِمْ وبَعْثِهِمْ وحِسَابِهِمْ، وَجَزَاءِ الْمُحْسِنِ منهم بالحُسْنَى والْمُسِيءِ منهم بِمَا عَمِلَ، وبَعْثِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ، وتَصْرِيفِ الأمْرِ في جميع الكائناتِ مِنَ البَسْطِ والقَبْضِ والرَّفْعِ والخَفْضِ والعَطَاءِ والْمَنْعِ والإِيْجادِ والإِفْنَاءِ، فإنَّ جَميعَ تلك الصفاتِ إنَّما يُوصَفُ بِهَا تعالَى فيما لا يَزَالُ لا في الأَزَلِ، إذْ لَمْ يَكُنْ في الأزلِ خَلْقٌ ولا إِحْياءٌ ولا إِمَاتةٌ ولا عَطَاءٌ ولا مَنْعٌ ولا رَفْعٌ ولا خَفْضٌ ولا بَسْطٌ ولا قَبْضٌ ولا شَيْءٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، إذْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ وُجُودٌ إلا وُجُود الحقِّ تبارك وتعالَى.

ومِنْهُمْ مَنْ **فَرَّقَ** بين صِفَاتِ الذَّاتِ وَصِفَاتِ الأَفْعَالِ بـ:

❖ أنَّ **صِفَاتِ الأفعال** تُجَامِعُ أضْدَادَهَا في الوُجُودِ عِنْدَ اختلافِ الْمَحَلِّ، كالإحياءِ والإماتةِ والإظهارِ

والإخفاءِ والعطاءِ والمنعِ والإِعْزَازِ والإِذْلالِ والنَّصْرِ والخِـذْلانِ، فيُقَالُ: أَحْيَـى اللهُ فُلانًا وأَمَـاتَ فُلانًا، وأَعْطَى فُلانًا ومَنَعَ فُلانًا، وَرَفَعَ فُلانًا وخَفَضَ فُلانًا، وأَعَزَّ فُلانًـا وأَذَلَّ فُلانًا، وَنَصَرَ فُلانًـا وَخَذَلَ فُلانًا، وبَسَطَ كَذَا وَمَنَعَ كَذَا، وَأَوْجَدَ كَذَا وَأَفْنَى كَذَا، مع أنَّ كُلًّا منها مُقَابَلٌ بِضِدِّهِ.

❖ وأمَّا **صِفَـاتُ الذَّات** فلا تُجَامِـعُ أَضْدَادَها في الوُجودِ وَلَوْ مَعَ اختلافِ الْمَحَلِّ، فلا يَجُوزُ أنْ يُقَالَ: عَلِمَ اللهُ كذا وجَهِلَ كذا، أو قَدَرَ على كذا وعَجَزَ عن كذا، أو أَبْصَرَ كذا وعَمِيَ عن كذا، أو سَمِعَ كذا وصَمَّ عن كذا.

وبِهَذا يَتَبَـيَّنُ أنَّ صفاتِ الأفعـال هي **الصفاتُ الجائزة** في حقِّـهِ تعالَى، لأنَّها لا تُـؤَدِّي إلى نَقْصٍ بسـببِ اتصافِهِ بِهَا ولا بأَضْدَادِهَـا، كما أنَّ الصفاتِ الذاتيةَ هي **الصفاتُ الواجبـةُ** في حَقِّهِ، وأنَّ أضدادَها هي الصفاتُ الْمُسْتَحِيلةُ عليه.

وكَوْنُ **صِفَاتِ الذَّاتِ هِـــيَ عَيْنَ الذَّاتِ** هُوَ ما عَلَيْهِ **أَصْحَابُنَا وَالْمُعْتَزِلَةُ** ومَنْ نَحــا نَحْوَهُمْ، وَذَلِكَ إِمْعَانٌ في تَوْحِيدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وتَنْزِيهِه عَنْ مُشَــابَهَةِ غَيْرِه والافْتِقَارِ إِلَى مَا سِـــوَاهُ، فَهُمْ يَقُولُـــونَ بِأَنَّ اللهَ تبارَكَ وتعالَى مَوْصُوفٌ بِجَمِيعِ تِلْكَ الكَـمَالاتِ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إلى ما سِوَاه.

- فَهُوَ تَعَالَى حَيٌّ حَيَــاةً حَقِيقِيَّةً، وَلَكِنْ بِذَاتِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْتَــاجَ إِلَى صِفَةٍ زَائِدَةٍ عَلَى ذَاتِــهِ قَائِمَةٍ بِهَا تُسَمَّى حَيَاةً.

- وهو عَلِيمٌ بِكُلِّ شيءٍ عِلْمًا حَقِيقيًا، مِنْ غيرِ أنْ يفتقرَ إلى صِفَةٍ زائدةٍ على ذاتِهِ تَتَجَلَّى بِهَا المَعْلُوماتُ لِذَاتِهِ تُســمَّى عِلْمًا، وإنَّما عِلْمُه بذاتِه مِنْ غيرِ وُجودِ واسطةٍ بينَها وبينَ معلوماتِهِ.

- وهو قَدِيرٌ بِذَاتِهِ قُدْرَةً حَقِيقِيَّةً، بِحَيْثُ تَــنْفَعِلُ لِذَاتِه جَمِيــعُ الأَشْــيَاءِ انْفِعَالًا تَامًّا حَسْــبَ الإِرادةِ الربَّانِيَّةِ، مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إلى وَاسِطَةٍ زَائِدَةٍ عَن الذَّاتِ تَكُونُ سَبَبًا في هَذَا الانْفِعَالِ وَتُسَمَّى قُدْرَةً.

▪ وَتَنْكَشِفُ لِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ جَمِيعُ الكَائِنَاتِ انْكِشَافًا تَامًّا بِأَحْجَامِهَا وَصُوَرِهَا وَأَلْوَانِهَا وَجَمِيع أَحْوَالِهَا، مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إلى وَاسِطَةٍ بَيْنَ الذَّاتِ وَبَيْنَهَا تُسَمَّى بَصَرًا.

▪ وَتَتَجَلَّى لَهُ جَمِيعُ الأَصْوَاتِ تَجَلِّيًا تَامًّا كَمَا هِيَ، مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى وَاسِطَةٍ بَيْنَ ذَاتِهِ وَبَيْنَهَا تُسَمَّى سَمْعًا، فَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِهِ وَقَدِيرٌ بِذَاتِهِ وَسَمِيعٌ بِذَاتِهِ وَبَصِيرٌ بِذَاتِهِ، وَهَكَذَا في سَائِرِ الصِّفَاتِ.

وَ**حُجَّتُهُمْ** في هَذَا أنَّه لَوْ قِيلَ بِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ مَعَانٍ حَقِيقِيَّةٌ زَائِدَةٌ على الذَّاتِ العَلِيَّةِ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ افْتِقَارُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَيْهَا، ثُمَ لا تَخْلُو:

ـ إمَّا أَنْ تَكُونَ **سَابِقَةً** في الوُجُودِ عَلَى ذَاتِهِ، فَتَكُونُ أَوْلَى بِالأُلُوهِيَّةِ مِنْهُ، لأَنَّ السَّابِقَ أَوْلَى مِنَ الْمَسْبُوقِ.

ـ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ **مُقَارِنَةً** لَهَا، فَتَكُونُ مُشَارِكَةً لَهُ في القِدَم، وَتَجِبُ عَلَى هَذَا مُشَارَكَتُهَا لَهُ في الأُلُوهِيَّةِ أَيْضًا، لأَنَّ كُلًّا مِنَ الصِّفَةِ وَالْمَوْصُوفِ قَدِيمٌ.

ـ وَإِمَّا أنْ تكُونَ **حَادِثَةً**، وهو عَيْنُ الْمُسْتَحِيلِ، لأنَّ كُلَّ حَادِثٍ يَفْتَقِرُ إِلَى مُحْدِثٍ أَحْدَثَهُ، فَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ العِلْمَ وَالقُدْرَةَ والحَيَاةَ وَالسَّمْعَ وَالبَصَرَ فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ غَيْرَ مُتَّصِفٍ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ هَذَا الخَلْقِ، وَيَسْتَحِيلُ عَلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا ولا قَادِرًا وَلا حَيًّا ولا سَمِيعًا ولا بَصِيرًا أنْ يَخْلُقَ شَيْئًا قَطُّ، فَضْلًا عَنْ خَلْقِهِ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ، فَإِنَّ مُطْلَقَ الخَلْقِ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا، وَأَنَّى لِمَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا أنْ يَخْلُقَ العِلْمَ؟! وَلِمَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا أنْ يَخْلُقَ القُدْرَةَ؟! وَلِمَنْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا أنْ يَخْلُقَ الحَيَاةَ؟! وَلِمَنْ لَمْ يَكُنْ سَمِيعًا أنْ يَخْلُقَ السَّمْعَ؟! وَلِمَنْ لَمْ يَكُنْ بَصِيرًا أنْ يَخْلُقَ البَصَرَ؟!

عَلَى أنَّ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى بُطْلانِ القَوْلِ بِزِيَادَتِهَا: أنَّها لَوْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى ذَاتِهِ وَكانَ بِهَا خَلْقُهُ لِمَخْلُوقَاتِهِ وَإِعْدَامُهَا، وَكُلُّ مَا يَكُونُ مِنْ أَفْعَالِهِ مِنْ بَسْطٍ وَقَبْضٍ وَعَطَاءٍ وَمَنْعٍ وَرَفْعٍ وَخَفْضٍ؛ لَمَا كَانَ وَجْهٌ لاسْتِحْقَاقِهِ العِبَادَةَ دُونَهَا، وَلَوْ قِيلَ بِإِشْرَاكِهَا مَعَهُ في العِبَادَةِ كَانَ

ذَلِكَ عَيْــنَ تَعَدُّدِ الآلِهَة، مَع أنَّ الإلَــهَ الْمَعْبُودَ وَاحِدٌ تَعَالَى أنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ في مُلْكِهِ.

وَذَهَبَ **الأَشْــعَرِيَّةُ** وَمَنْ نَحَا نَحْوَهَــم إلَى أنَّ هَذِهِ الصِّفَــاتِ **مَعَــانٍ حَقِيقِيَّةٌ زَائِــدَةٌ عَلَى الــذَّاتِ**، فَهُوَ ـ عِنْدَهُمْ ـ عَلِيمٌ بِعِلْمٍ زَائِدٍ علــى ذَاتِهِ، وَقَدِيرٌ بِقُدْرَةٍ زَائِدَةٍ عَلَى ذَاتِهِ، وَحَيٌّ بِحَيَاةٍ زائدَةٍ على ذَاتِهِ، وَهَكَذا في سَائِرِ الصِّفَاتِ.

و**اسْتَدَلُّوا** لِذَلِكَ بِقِــيَاسِ الغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ ذَهَبُوا إلَــى أنَّ مَدْلُولَ الوَصْفِ في الشَّــاهِدِ وَالغَائِبِ سَوَاءٌ، وَبِمَا أنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ في الشَّاهِدِ لا بُدَّ مِنْ أنْ تَكُونَ مَعَانِيَ حَقِيقِيَّةً تَقُومُ بِالذَّوَاتِ الْمُتَّصِفَةِ بِهَا ـ فَلا يُسَــمَّى عَالِمًا إلَّا مَنْ قَامَتْ بِهِ صِفَةُ العِلْمِ، وَلا قَــادِرًا إلَّا مَنْ قَامَتْ بِهِ صِفَةُ القُدْرَةِ، وَلا سَــمِيعًا إلَّا مَنْ قَامَــتْ بِهِ صِفَةُ السَّمْعِ، وَلا بَصِيرًا إلَّا مَنْ قَامَتْ بِهِ صِفَةُ البَصَرِ ـ فَهِيَ في الغَائِبِ كَذَلِكَ لا بُدَّ مِــنْ أنْ تَكُونَ زَائِدَةً عَلَى ذَاتِهِ.

كَمَا **اسْتَدَلُّوا** بِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَوْ كَانَتْ عَيْنَ ذَاتِهِ تَعَالَى لَكَانَتْ وَاحِدَةً، وَمَعْنى ذَلِكَ أنَّ العِلْمَ هُوَ عَيْنُ القُدْرَةِ والقُدْرَةَ هِيَ عَيْنُ السَّمْعِ والسَّمْعَ هو عَيْنُ البَصَرِ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ لأَنَّ لِكُلِّ صِفَةٍ مِنْهَا مَدْلُولًا غَيْرَ مَدْلُولِ الصِّفَةِ الأُخْرَى.

وَالجَوَابُ عن الاسْتِدْلالِ الأوَّلِ

بِأَنَّ قِيَاسَ الغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ غَيْرُ مُسَلَّمٍ؛ لِمَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنْ تَشْبِيهِ الخَالِقِ بِالخَلْقِ، وَهُوَ مَا قَطَعَ دَابِرَهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

عَلَى أنَّ فَتْحَ بَابَ هَذَا القِيَاسِ يُفْضِي إِلَى مَا لَمْ يَقُلْهُ هؤُلاءِ القَائِسُونَ وَلا غَيْرُهُمْ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، فَإِنَّنَا نَجِدُ أنَّ الشَّاهِدَ يَكُونُ مَوْجُودًا بِلا عِلْمٍ قَطُّ وَلا قُدْرَةٍ قَطُّ، كَمَا نَصَّ عَلَى الأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، وَتَدُلُّ الْمُشَاهَدَةُ عَلَى الثَّانِي، ثُمَّ تَحْدُثُ لَهُ مَلَكَةُ العِلْمِ وَيَأْخُذُ فِي التَّدَرُّجِ فِي اكْتِسَابِ الْمَعْلُومَاتِ شَيْئًا

فَشَيْئًا، وَعِنْدَمَا يَدُبُّ إِلَيْهِ الضَّعْفُ تَضْعُفُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ فِيمَا يَضْعُفُ، وَقَدْ يَجْهَلُ كَثِيرًا مِمَّا كَانَ يَعْلَمُ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا يَصِلُ إِلَى الْمَرْحَلَةِ الَّتِي عَبَّر عَنْهَا الْقُرْآنُ بِأَرْذَلِ العُمُرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا﴾ [النحل: ٧٠].

وَمِثْلُ ذَلِكَ في سَائِرِ الصِّفَاتِ، فَإِنَّ جَمِيعَ حَوَاسِّهِ وَطَاقَاتِهِ تَبْدَأُ ضَعِيفَةً، وَتَأْخُذُ في النُّمُوِّ إِلَى أَنْ تَتَوَافَى إِلَى حَدٍّ مُعَيَّنٍ، ثُمَّ تَأْخُذُ في الانْتِكَاسِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ [يس: ٦٨].

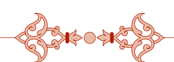
وَلَوْ قِيسَتْ صِفَاتُ الحَقِّ عَلَى صِفَاتِ الخَلْقِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ شَأْنُهُ فِي صِفَاتِهِ كَشَأْنِ خَلْقِهِ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالتَّعَلُّمِ، وَأَنْ يَكُونَ قَادِرًا بِالتَّدَرُّجِ في مَرَاحِلِ القُدْرَةِ، وَأَنْ تَكُونَ قُدْرَتُهُ تَنْمُو بِمُمَارَسَةِ مُتَعَلِّقَاتِهَا، وَهَكَذَا في سَائِرِ الصِّفَاتِ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ مَا بَيْنَ صِفَاتِ الحَقِّ وَصِفَاتِ الخَلْقِ مِنَ التَّضَادِّ، فَإِنَّ كُلَّ مَا يَتَّصِفُ بِهِ الْمَخْلُوقُ مِنْ مَظَاهِرِ صِفَاتِ الكَمَالاتِ لا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ نِسْبِيًّا مَحْدُودًا

لا يُوَازِي شَــيْئًا بِجَانِبِ مَا يَتَّصِفُ بِهِ مِــنَ النَّقَائِصِ الْمُضَادَّةِ لَهَا، وَلَوْ فَتَحْنَا بَــابَ القِيَاسِ لأَفْضَى ذَلِكَ إِلى سَــلْبِ جَمِيــعِ الكَمَالاتِ عَــنِ الــذَّاتِ العَلِيَّةِ، وَوَصْفِهَــا بِــكُلِّ صِفَاتِ النَّقْــصِ الَّتي يَتَّصِــفُ بِهَا الْمَخْلُوقُونَ، وَهَذَا عَيْنُ الْمُحَالِ وَرَأْسُ الضَّلالِ.

وَالجَوَابُ عَنِ الثَّانِي

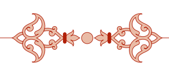
أَنَّ تَعَدُّدَ تِلْكَ الصِّفَاتِ في التَّعْبِيرِ عَنْهَا وَاخْتِلافَ مَفَاهِيمِهَا رَاجِعٌ إِلَى تَعَدُّدِ أَنْوَاعِ التَّجَلِّيَاتِ وَاخْتِلافِهَا، فَتَجَلِّي الكَائِنَاتِ بِحَسَــبِ اخْتِــلافِ أَحْوَالِهَا وَتَبَايُنِ أَوْصَافِهَا الْحِسِّــيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ يُسَــمَّى عِلْمًا، وَتَجَلِّي صُوَرِهَــا وَأَلْوَانِهَا وَهَيْئَاتِهَا يُسَــمَّى بَصَــرًا، وَتَجَلِّي أَصْوَاتِهَا يُسَــمَّى سَــمْعًا، وَالْمُتَجَلَّى لَــهُ وَاحِدٌ وَهُوَ الذَّاتُ العَلِيَّةُ، وَهَكَذَا انْفِعَالُ الأَشْيَاءِ حَسْبَ مُرَادِ ذَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ تَشْنِيعَ الْمُشَنِّعِينَ عَلَى القَائِلِينَ بِأَنَّ صِفَاتِ الذَّاتِ هِيَ عَيْنُ الذَّاتِ بِأَنَّهُمْ مُنْكِرُونَ لِصِفَاتِهِ سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَنَّهُمْ نَافُونَ عَنِ الــذَّاتِ كَمَالاتِهَا



لَيْسَ بِشَــيْءٍ، وَإِنَّمَا هُمْ مُنَزِّهُونَ لِلــذَّاتِ العَلِيَّةِ عَن الافْتِقَارِ إِلَى الغَيْرِ وَأَنْ يَكُــونَ كَمَالُهَا مَنُوطًا بِالزِّيَادَةِ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ أَنَّ ذَاتَ الْمَخْلُوقِ لِنُقْصَانِهَا هِيَ بِحَاجَةٍ إِلَى مَا يَجْبُرُ نَقْصَهَا مِنْ صِفَــاتٍ زَائِدَةٍ عَلَيْهَا تُضَافُ إِلَيْهَا، وَذَاتُ الخَالِقِ لِكَمَالِهَا مَوْصُوفَةٌ بِكُلِّ الكَمَالاتِ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى زِيَادَةٍ مِمَّا عَدَاهَا.





أسئلـة:

١. عندما نقول: (إنَّ أسماء الله هي عين ذاته)، فهل يُراد بذلك ألفاظ الأســماء أم مدلولهــا؟ وضّح ذلك مع الدليل.

٢. بيّن الفروق بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية لله تعالى؟

٣. لماذا كانت صفــات الذات واجبــة وصفات الأفعال جائزة في حق الله تعالى؟

٤. أيُّ المذاهب الإســلامية قالت بأنَّ صفات الذات هي عين الذات؟ وما دافعهم لهذا القول؟

٥. وضِّح معنى المقولة الســابقة بأمثلــة من صفات الله الذاتية؟

٦. ما حُجّة القائلين بأنَّ صفات الذات هي عين الذات؟

٧. أيّ المذاهب الإســلامية ذهبت إلى أنّ صفات الذات زائدة على الذات، وما معنى كلامهم هذا؟

٨. بماذا اســتدلّ القائلون بأن صفات الذات زائدة على ذاته سبحانه؟ وبماذا نُجيب على أدلتهم؟

نَفْيُ الرُّؤْيَةِ

١١. وَلا يُحِيطُ بِهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ بَصَرٌ
دُنْيَا وَأُخْرَى، فَدَعْ أَقْوَالَ مَنْ نَصَلا[١]

مُرَادُهُ أنَّ اللهَ سبحانَه مُنَزَّهٌ عَنْ رُؤْيَةِ الأَبْصَارِ لَهُ، لأَنَّهُ لا يُشْبِهُ شيئًا ولا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ، فَوُجُودُهُ لَيْسَ كَوُجُودِ مَا سِوَاهُ، فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنِ التَّحَيُّزِ في مَكَانٍ، وَعَنْ وَصْفِهِ بِالأَلْوَانِ، والرُّؤْيَةُ لا تَقَعُ إلَّا عَلَى مُتَحَيِّزٍ ذِي جِرْمٍ كَثِيفٍ، مُتَّصِفٍ بِأَحَدِ الأَلْوَانِ، مُشِعٍّ بِنَفْسِهِ أَوْ وَاقِعٍ عَلَيْهِ شُعَاعُ غَيْرِهِ، غَيْرِ دَقِيقٍ جِدًّا، وَلا مُتَّصِلٍ بِالبَاصِرَةِ وَلا بَعِيدٍ جِدًّا.

فَإِنْ قِيلَ بِأَنَّ هَذِهِ الشُّرُوطَ إِنَّمَا هِيَ فِي تَحَقُّقِ رُؤْيَةِ الشَّاهِدِ دُونَ الغَائِبِ، وَقَدْ قُلْتُمْ بِمَنْعِ قِيَاسِ الغَائِبِ عَلى الشَّاهِدِ في بَابِ الصِّفَاتِ.

(١) نصل ـ من باب قتل ـ أي خرج عن الحق، يقال: نصل الشيء من موضعه، أي خرج منه.

فَالْجَوَابُ:

أنَّ هَذِهِ الشُّرُوطَ هِيَ الَّتِي يَتَحَقَّقُ بِهَا مَدْلُولُ الرُّؤْيَةِ اللُّغَوِيُّ، وَخِطَابُ الشَّارِعِ إِنَّمَا هُوَ بِحَسَبِ وَضْعِ اللُّغَاتِ، وَمَنْعُ قِيَاسِ الغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ لِتَنْزِيهِهِ سُبْحَانَهُ عَنْ مُشَابَهَةِ خَلْقِهِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وَذَلِكَ نَفْسُهُ دَلِيلٌ بَيِّنٌ عَلَى اسْتِحَالَةِ رُؤْيَتِهِ؛ لِئَلَّا يَتَسَاوَى مَعَ مَخْلُوقَاتِهِ فِي تَسَلُّطِ إِحْدَى الحَوَاسِّ عَلَى ذَاتِهِ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يُدْرَكَ بِحَاسَّةِ البَصَرِ لَجَازَ ذَلِكَ لِجَمِيعِ الحَوَاسِّ كَاللَّمْسِ وَالشَّمِّ وَالذَّوْقِ.

أمَّا مِنْ حَيْثُ الأَدِلَّةُ النَّقْلِيَّةُ

❖ فَإِنَّ أَصْرَحَهَا وَأَقْوَاهَا وَأَدَلَّهَا عَلَى اسْتِحَالَةِ رُؤْيَتِهِ تَعَالَى: قَوْلُهُ ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فَإِنَّهُ سِيقَ مَسَاقَ التَّمَدُّحِ، وَمَا كَانَ كَذَلِكَ فَلا يُمْكِنُ تَبَدُّلُهُ دُنْيَا وَلا أُخْرَى، لأَنَّ مَدَائِحَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا تَزُولُ، فَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَوْلِهِ

تَعَالَـــى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجـن: ٣]، وَقَوْلِـهِ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهـف: ٤٩]. فَلا يَجُــوزُ انْقِلابُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلى ضِدِّهِ، فَلا وَجْهَ لِحَصْرِ هَذَا النَّفْيِ في الدُّنْيَا دُونَ الآخِرَةِ، وَلا في جَعْلِـهِ خَاصًّا بِبَعْضِ الأَبْصَارِ دُونَ بَعْضٍ.

وَمَا قِيلَ مِـنْ أَنَّ الإِدْرَاكَ غَيْرُ الرُّؤْيَـةِ مَرْدُودٌ بِأَنَّ إِدْرَاكَ كُلِّ شَـيْءٍ بِحَسَـبِهِ، فَإِدْرَاكُ الأُذُنِ سَـمَاعُهَا، وَإِدْرَاكُ اليَدِ قَبْضُهَا، وَإِدْرَاكُ السَّـهْمِ إِصَابَتُهُ، وَإِدْرَاكُ العَيْنِ رُؤْيَتُهَا، وَهُـوَ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَعَاجِمُ اللُّغَوِيَّةُ الْمُعْتَمَدَةُ في تَفْسِيرِهَا الإِدْرَاكَ بِاللَّحَاقِ.

❖ وَمِـنَ الأَدِلَّـةِ عَلَـى ذَلِـكَ: قَوْلُـهُ تَعَـالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعـراف: ١٤٣]. فَإِنَّ «لَنْ» مِنْ أَقْوَى عَوَامِلِ النَّفْيِ، فَلِذَلِكَ تُفِيـدُ تَأْكِيدَهُ أَوْ تَأْبِيدَهُ، وَلَئِن انْتَفَتْ رُؤْيَتُهُ تَعَالَى عَنْ مُوسَـى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَانْتِفَاؤُهَا عَنْ غَيْرِهِ أَحْرَى.

❖ وَمِنْ أَدِلَّتِهِ مَا جَاءَ مِنَ التَّشْدِيدِ في القُرْآنِ عَلَى مَنْ سَـأَلَهَا، كَمَا في قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن

تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ١٠٨]، وقولِهِ: ﴿ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٥٣].

ومِنْ دَلائِلِ ذَلِكَ في السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

❖ حَدِيثُ أَبِي الدَّرْدَاءِ عِنْدَ الشَّيْخَيْنِ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهَا وَمَا فِيهَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهَا وَمَا فِيهَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ رَبِّنَا فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[١]. فَإِنَّ مَعْنَاهُ: أَنَّ اللهَ أَعْلَى مَنَازِلَهُمْ وَقَرَّبَهُمْ مِنْهُ، فَلَمْ يَحُلْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رُؤْيَتِهِمْ إِيَّاهُ إِلَّا اتِّصَافُهُ تَعَالَى بِالكِبْرِيَاءِ، وَرُؤْيَتُهُ تُنَافِي كِبْرِيَاءَهُ ﷻ، وَصِفَةُ الكِبْرِيَاءِ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ للهِ لا تَتَبَدَّلُ، فَمَا انْتَفَى بِسَبَبِهَا فَإِنَّ انْتِفَاءَهُ أَبَدِيٌّ يَسْتَحِيلُ ضِدُّهُ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ومن دونهما جنتان (٤٨٧٨)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم (١٨٠).

❖ وَحَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عِنْدَ مُسْلِمٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ رُؤْيَةِ رَبِّهِ لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ فَقَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ!»[1]. فَإِنَّ قَوْلَهُ: «أَنَّى أَرَاهُ» اسْتِبْعَادٌ لَأَنْ تَجُوزَ رُؤْيَتُهُ.

أَمَّا اسْتِدْلالُ القَائِلِينَ بِالرُّؤْيَةِ على وُقُوعِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فَهُوَ مَرْدُودٌ بِأَنَّ النَّظَرَ هُنَا لا يُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ على الرُّؤْيَةِ لأُمُورٍ:

▪ **أَوَّلُها:** أَنَّ النَّظَرَ لَيْسَ هو عَيْنَ الرُّؤْيَةِ، بِدَلِيلِ أَنَّ القَائِلَ يَقُولُ: نَظَرْتُ الهِلالَ فَلَمْ أَرَهُ، وَلَوْ قَالَ: رَأَيْتُ الهِلالَ فَلَمْ أَرَهُ؛ لَكَانَ قَوْلًا سَخِيفًا مُتَهَالِكًا.

▪ **ثَانِيهَا:** أَنَّهُ أُسْنِدَ إلى الوُجُوهِ، وَالوُجُوهُ لَيْسَتْ هِيَ آلَةَ الرُّؤْيَةِ وَإِنَّمَا آلَتُهَا الأَبْصَارُ.

▪ **ثَالِثُهَا:** أَنَّ السِّيَاقَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ بِالنَّظَرِ هُنَا إِلَّا الانْتِظَار، فَإِنَّ الآيَةَ أُتْبِعَتْ بِقَوْلِهِ تَعَالى:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله عليه السلام نور أنى أراه (١٧٨).

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥]
وَتَفْسِيرُهُ بِالرُّؤْيَةِ لا يَنْسَجِمُ مَع هَذَا السِّيَاقِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ ـ وَهُوَ بِمَعْنى النَّضَارَةِ وَالحُسْنِ ـ مُقَابَلٌ بِقَوْلِهِ ﴿بَاسِرَةٌ﴾، وقَوْلَهُ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مُقابَلٌ بِقوْلِهِ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾، فَوُجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ نَاضِرَةٌ في ذَلِكَ الْمَوْقِفِ لانْتِظَارِهَا رَحْمَةَ اللهِ، أيْ أنْ يُؤْذَنَ لَهَا بِدُخُولِ جَنَّتِهِ وَالفَوْزِ بِنَعِيمِهِ، وَوُجوهِ أَعْدَائِهِمْ بَاسِرَةٌ، أيْ كَالِحَةٌ تَتَوَقَّعُ أَمْرًا شَدِيدًا يَقْطَعُ فَقَارَ ظُهُورِهَا، وَهُوَ دُخُولُ النَّارِ ـ وَالعِيَاذُ بِاللهِ ـ.

ولو فُسِّرَ النظرُ هنا بِمَعْنى الرُّؤية لَشَذَّ عمَّا يقتضيه السياق من التقابل والتَّضادِّ بين أوصافِ المؤمنين في ذلك اليوم وأوصافِ الكافرين والفاسقين، إذْ لا تَقَابُلَ بين كَوْنِ وُجوهِ المؤمنين رَائيةً لِرَبِّها وَوُجوهِ أعدائِهِمْ تَتَوَقَّعُ أمْرًا يَقْطَعُ فَقَارَ ظُهُورِها.

▪ **رَابِعُهَا:** أنَّ الآياتِ إنَّما هي تُخْبِرُ عن أحوالِ الْمَوْقِفِ يومَ الحِسَاب، والقائِلُونَ بالرؤية اختلفوا في

وُقوعِها في الْمَوْقِفِ، بل نَجِدُهُــم يقولون بأنَّها مِنَ الزيادةِ التي تَكُون بعدَ الفوزِ بالثواب في الجنة.

فإِنْ قالوا بأنَّه لا يُسَــلَّمْ أنَّ الحديثَ عَن الْمَوْقِفِ لأنَّها دَعْوَى لَمْ يَقُمْ عليها بُرْهَانٌ.

قُلْنَــا: بُرْهَانُهــا وَاضِـــحٌ في نفسِ الآيــات، وهو قَوْلُـــهُ ﷻ: ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾، فَلَوْ كان ما فيها مِنْ ذِكْرِ النَّضَارَةِ والنَّظَــرِ مَعْنِيًّا به ما ينالونــه في الْجَنَّةِ لَكَانَ ما ذُكِرَ في حَقِّ الفريقِ الآخَرِ مُرَادًا بِهِ ما يَجِدُونَهُ في النار، مــع أنَّهم بَعْــدَ أَنْ يَصْلَوُا النَّــارَ لا مَعْنَى لِظَـــنِّهِمْ أنْ يُفْعَلَ بِهِمْ فاقِرَةٌ، لأنَّ الفَاقِرَةَ حَلَّتْ بِهِمْ، وظَنُّ ذَلِكَ ـ أيْ تَوَقُّعُهُ ـ إنَّما هو قَبْلَ دُخُولِهَا.

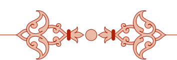
أمّا مَا زَعَمُوهُ بِأَنَّ النَّظَرَ إِذَا عُدِّيَ بِـ«إِلَى» لا يَكُونُ إِلَّا بِمَعْنَى الرُّؤْيَةِ؛

فَهُوَ مَرْدُودٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمــران: ٧٧]، فَقَدْ عُدِّيَ النَّظَرُ هُنَــا بِإِلَى وَهُوَ بِمَعْنَـــى غَيْرِ الرُّؤْيَةِ

قَطْعًا، لأَنَّهُ لَوْ فُسِّرَ بِهَا لَزِمَ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ اللهُ سُبْحَانَهُ لا يَرَى هَؤُلاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ.

فَإِنْ قَالُوا: إِنَّ إِسْنَادَ النَّظَرِ إِلَى الوُجُوهِ هُوَ الَّذِي يُؤَكِّدُ أَنَّهُ بِمَعْنَى الرُّؤْيَةِ.

قُلْنَا: إِنَّ الوُجُوهَ هُنَا مَجَازٌ عَنْ أَصْحَابِهَا، وَلَئِنْ جَازَ أَنْ يُسْنَدَ إِلَيْهَا كُلُّ ما يُسْنَدُ إِلَى أَصْحَابِهَا مِنَ النَّعْمَةِ والرِّضَا في حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ، والخُشُوعِ والعَمَلِ والنَّصَبِ وصِلِيِّ النَّارِ والسَّقْيِ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ في حَقِّ الْمُجْرِمِينَ، كَمَا في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۞ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۞ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۞ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۞ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ١-٥]، ثُمَّ في مُقَابِلِها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۞ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨، ٩]؛ فَمَا الْمَانِعُ مِنْ أَنْ يُسْنَدَ النَّظَرُ بِمَعْنَى الانْتِظَارِ إِلَيْها كَمَا في هَذِهِ الآيَةِ؟ عَلَى أَنَّهُ أُسْنِدَ إِلَى وُجُوهٍ ـ في آيَةٍ تَالِيَةٍ ـ ظَنُّهَا أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ، فَدَعْوَى أَنَّ النَّظَرَ لا يَكُونُ إِلَّا بِمَعْنَى الرُّؤْيَةِ إِذَا أُسْنِدَ إِلَى الوُجُوهِ دَعْوى عَارِيَةٌ مِنَ الدَّلِيلِ.



والكَلامُ في الرُّؤْيَةِ لا تَسَـــعُ لَهُ هَذِهِ العُجَالَةُ، وَقَدْ بَسَـــطْتُ القَوْلَ فِيهِ فِي «الْحَـــقِّ الدَّامِغِ»، فَمَنْ شَـــاءَ فَلْيَرْجِعْ إِلَيْهِ.

أسئلـة:

١. ما هو الدليـــل العقلي على تنزيه الله تعالى عن الرؤية البصرية؟

٢. اذكر ثلاثة أدلة من القرآن الكريم على استحالة رؤيته تعالى؟

٣. اذكر دليلَين من السنة على عدم جواز رؤيته سبحانه؟

٤. كيف نردّ على القائلين بالرؤية في اســـتدلالهم بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؟

٥. هل يلزم أن يكون النظر بمعنـــى الرؤية عندما يُعدّى بـ (إلى) أو يُسند إلى الوجوه؟

٦. بسط الشارح مسألة الرؤية في كتاب آخر، اذكره مُعرّفًا به؟

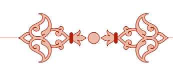
نَفْيُ التَّكْيِيفِ

١٢. وَلا يُكَـيِّـــفُهُ وَهْــــمٌ وَلا فِكَــــرٌ
وَلا تُحِـــيطُ بِـــهِ الأَقْطَـــارُ مُدَّخَـلا

الوَاوُ عَاطِفَةٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ.

ومَعْنى ذَلِــكَ: أَنَّنَا نَدِينُ ـ فِيمَــا نَدِينُ بِهِ ـ أنَّ اللهَ تَعَالَــى لا تُكَيِّفُهُ الأَوْهَــامُ وَالأَفْــكَارُ، وَلا تُحِيطُ بِهِ الأَقْطَارُ، لأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَمَا تَصَوَّرَهُ الوَهْمُ أَوْ كَيَّفَهُ الفِكْــرُ لا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثَالٌ يَرْتَسِــمُ في الذِّهْنِ، فَلِذَلِكَ وَجَبَ تَنْزِيهُهُ ﷻ عَنْ كُلِّ مَا يَرِدُ إِلى الأَذْهَانِ مِنَ الخَيَالاتِ والصُّوَرِ.

وَهو تَعَالَــى مُنَزَّهٌ أَيْضًا عَنْ إِحَاطَــةِ **الأَقْطَارِ** ـ أي الجِهَاتِ ـ بِهِ، وَقَدْ سَــبَقَ بَيَانُ ذَلِكَ في الحَدِيثِ عَنْ نَفْيِ كَوْنِهِ جِسْمًا أَوْ عَرَضًا، وَكَفَى.



أسئلـة:

١. هل يمكن للعقل تصوُّر ذات الله تعالى؟

٢. ما السبب في أنَّ الله لا تُكَيِّفُه الأوهام ولا تَحُدُّه الأفكار؟



الاسْتِوَاءُ عَلَى العَرْشِ

١٣. وَهْوَ عَلى العَرْشِ وَالأَشْيَا اسْتَوَى وَإِذَا
عَدَلْتَ[1] فَهْوَ اسْتِوَاءٌ غَيْرُ مَا عُقِلا

١٤. وَإِنَّمَا الاسْتِوَا مُلْكٌ وَمَقْدِرَةٌ
لَهُ عَلَى كُلِّهَا اسْتَوْلى وَقَدْ عَدَلا

١٥. كَمَا يُقَالُ اسْتَوَى سُلْطَانُهُمْ فَعَلا
عَلى البِلادِ فَحَازَ السَّهْلَ وَالْجَبَلا

قد أَخْبَرَ اللهُ في كتابِهِ في العَدِيدِ مِنَ الآياتِ أنَّه اسْتَوَى على العَرْشِ، ويَجِبُ أنْ نُدْرِكَ أنَّ هذا الاسْتِوَاءَ لا يَعْنِي القُعُودَ والاسْتِقْرَارَ، لأنَّه تَعالَى مُنَزَّهٌ عن الافْتِقَارِ إِلَى الغَيْرِ، ولَوْ كانَ بِمَعْنى القعود والاستقرار لَكَانَ هو بِحَاجَةٍ إلى العرش، ولأنَّه سبحانه سَابِقٌ على كلِّ شيءٍ في الوُجودِ، لا أَوَّلَ لأَوَّلِيَّتِهِ، وكلُّ ما سِوَاهُ حادِثٌ عن العَدَمِ، وهو الذي أَخْرَجَهُ مِنَ العَدَمِ إلى الوُجُودِ.

---

(١) عدلتَ: أي حكمتَ بالعدل في الاستواء.

فَوَضَحَ لِكُلِّ ذِي عَيْنَيْنِ أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عليه أنْ يَكُونَ اسْتِوَاؤُهُ على العَرْشِ بِالْمَعْنى الْمَادِّيِّ؛ وهو القُعُودُ والاستقرار كَمَا أَخَذَتْ بِهِ الْمُشَبِّهَةُ، وتَعَيَّنَ أنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الكِنَايَاتِ، وذلك مَعْهُودٌ في الخِطَابِ العَرَبي وغيرِه، كَمَا يُقَالُ: فُلانٌ طَوِيلُ النِّجَادِ؛ كِنَايَةً عن طُولِ قَامَتِهِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ نِجَادٌ، وكَمَا يُقَالُ في الكَرِيمِ بأنَّهُ: كَثِيرُ الرَّمَادِ، مَهْزُولُ الفَصِيلِ، جَبَانُ الكَلْبِ، ولَوْ لَمْ تُوجَدْ حقيقةٌ لِشَيْءٍ مِمَّا وُصِفَ بِهِ.

وعَلَيْهِ فإنَّ **استواءَهُ على العرش** إنَّما هو بِمَعْنى هَيْمَنَتِهِ على خَلْقِهِ وتَدْبِيرِهِ لأُمُورِهِمْ وتَصْرِيفِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ في الكائنات. على أنَّ العَرَبَ تُطْلِقُ الاستواءَ بِمَعْنى الاسْتِيلاءِ، كَمَا يقولُ الشاعِرُ:

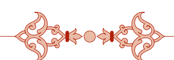
قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى العِرَاقِ
مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

وهَذَا المَعْنى أَوْلَى أنْ تُحْمَلَ عليه الآياتُ، لِمَا ثَبَتَ مِنْ دَلِيلِ العَقْلِ والنَّقْلِ مِنَ اسْتَحَالَةِ المعنى المادِّيِّ الظَّاهِرِ، فإنَّ العَرْشَ الجِسْمَانِيَّ مكانٌ كَغَيْرِهِ

مـن الأمْكِنَةِ، كانَ بَعْـدَ أنْ لَمْ يَكُنْ، ولَـمْ يَكُنْ إلا بِخَلْقِ اللهِ، فهو الْمُفْتَقِرُ إلى اللهِ سبحانه، واللهُ غَنِيٌّ عنه وعن غيرِه.

وَلَوْ كانَ تَعَالى حَالًّا بالعرش ـ كما تَقُولُ الْمُشَبِّهَةُ ـ لَتَرَتَّبَ على ذلك: إمَّا أنْ يكونَ العرش سابِقًا عليه؛ وهو يَقْتَضِـي حُدُوثَهُ تَعَالى. وإمَّا أنْ يكونَ قَدِيـمًا مَعَه؛ وهُـوَ يَقْتَضِي تَعَـدُّدَ القُدَمَاءِ، وَتَعَـدُّدُ القُدَمَاءِ يقتضي تعدُّدَ الآلِهَةِ. وإمَّـا أنْ يكونَ حادِثًا كَغَيْرِهِ من المخلوقـات؛ وذلك يُؤَدِّي إلى التَّسَـاؤُلِ عن مكانه تعالى قبل حُدُوثِ عَرْشِه.

والتَّـنْزِيهُ اللائِقُ بِجَلالِ الله يَقْضِي باستحالَةِ ذلك كُلِّهِ، فـإنَّ الله تعالى كانَ ولا زَمَـانَ ولا مَكَانَ، وهو الآنَ علـى ما عَلَيْهِ كانَ، لَـمْ يُحْدِثْ خَلْـقُ الزمان والمكان تغييرًا في ذاته ولا في صفاته، فإنَّ التَّحَوُّلَ مِنْ حالٍ إلى حالٍ مِنْ سِمَاتِ مَخْلُوقاته، وهو الغَنِيُّ عن كل شيءٍ، القادِرُ على كل شـيءٍ، فالعَرْشُ وما دُونَهُ مَحْمُولانِ بِلُطْفِ قُدْرَتِهِ تعالى.



وإنَّمَا مِنْ تَيْسِيرِ الله تعالى الْهِدَايَةَ لِعِبَادِهِ أنْ خَاطَبَهُمْ بالعبارات التي يَفْهَمُونَهَا مِنَ الحقيقةِ والْمَجَازِ والصَّرِيحِ والكِنَايَةِ، وقد عُهِدَ في تَخَاطُبِ الناسِ قَوْلُهُمْ مَثَلًا: اعْتَلَى فُلانٌ العَرْشَ، بِمَعْنى: تَوَطَّدَ مُلْكُهُ واسْتَوْلَى على أَزِمَّةِ أُمُورِ الرَّعِيَّةِ.





أسئلة:

١. ورد في القرآن أنَّ الله استوى على العرش، فما معنى ذلك؟

٢. ما معنى أنَّ آيات الاستواء يتعيّن حملها على الكناية لا الحقيقة؟

٣. هل تُطلق العرب الاستواء على غير المعنى المادي؟

٤. كيف تردّ على المشبِّهة في زعمهم أنَّ الاستواء معناه القعود والاستقرار على العرش؟

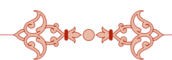
الإِيمَانُ بمُحَمَّدٍ ﷺ

١٦. وَأَنَّ أَحْمَدَ مِنْ رُسْلِ الإلَـهِ، وَقَدْ
يُخَصُّ مِنْ بَيْنِهِمْ فَضْلًا وَمُفْتَضَلا

١٧. وَأَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا أَتَانَا بِهِ
مُبَلِّغُ الثَّقَلَيْنِ مَا بِهِ رُسِلا

يَعْنِي أنَّه مِمَّا يَجِبُ الإيْمانُ بِهِ أنَّ **أَحْمَدَ** ـ أيْ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ ـ هو واحِدٌ مِنْ رُسُلِ اللهِ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ، والإيْمانُ بِهِ أَنَّهُ واحِدٌ مِنَ الرُّسُلِ يَقْتضي الإيْمانَ بِجَمِيعِ هؤلاءِ الرسلِ وبِرِسَالاتِهِمْ جميعًا، ولكنَّ الواجِبَ مِنْ إيْمانِنَا بِهِمْ هو **الإيْمانُ بِجُمْلَتِهِمْ**، إلا مَنْ قامَتْ علينا حُجَّتُهُ فَعَرَفْنَاهُ مِنْ بَيْنِهِمْ مَعْرِفَةً خاصَّةً فَعَلَيْنَا أَنْ نَخُصَّهُ بالإيْمان.

ويَتَمَيَّزُ إيْمَانُنا بِنَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ـ عليهِ أفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ ـ أنَّهُ **إيْمَانٌ بِعَيْنِهِ**، فَلا يَكْفِي أنْ نُؤْمِنَ بِهِ إيْمانًا مُجْمَلًا مع سائِرِ الْمُرْسَلِينَ، لأنَّه النَّبِيُّ الخَاتَم، ورِسَالَتُهُ هِيَ الرِّسَالَةُ الخَاتِمَةُ، وقد تُعُبِّدْنا بِهَا وفُرِضَ



عَلَيْنا اتِّباعُهُ، وذَلِـكَ مُسْـتَحِيلٌ إِلَّا إذا مَا خَصَصْنَاهُ بالإِيْمَان.

والْمُرْسَلُونَ جَمِيعًا مُيِّزُوا على غَيْرِهِمْ بِفَضَائِلِهِمُ الْجَمَّةِ الَّتـي اخْتَصَّهُـمُ اللهُ بِهَا، ونَاهِيـكَ أنَّ اللهَ وَصَفَهُـمْ بِالْمُصْطَفَيْـنَ الأَخْيَارِ، فَهُـوَ دَلِيلٌ على اصطفائِهِمْ مِنْ بَيْنِ سـائِرِ الخَلْقِ وأَفْضَلِيَّتِهِمْ على مَنْ عَدَاهُمْ.

وقد مُـيِّزَ مِنْ بَيْنِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ بِمَا رَفَعَ دَرَجَتَهُ فَوْقَ دَرَجَاتِهِمْ، وَشَـمَخَ بِقَدْرِهِ مِنْ بَيْـنِ أَقْدَارِهِمْ، وَحَسْبُكُمْ مَا وَصَفَهُ اللهُ بِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وهـو وَصْفٌ تَتَقَاصَرُ دُوْنَهُ الأَوْصَافُ، وَقَدْرٌ تَتَوَاضَعُ دُونَهُ الأَقْدَارُ، إِذْ لَمْ يَجْعَلْهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْوُجودِ الإِنْسَـانِيِّ وَحْدَهُ، وإِنَّما جَعَلَهُ رَحْمَةً لِمُطْلَـقِ الوُجُودِ، وقَدْ **تَمَيَّزَ مِنْ بَيْنِهِم**:

- بِأَنَّ رِسَالَتَهُ هِيَ الرِّسَالَةُ الخَاتِمَةُ الْمُهَيْمِنَةُ على رِسَالاتِهِمْ.

❖ وأنَّ الكِتَابَ الْمُنْزَلَ عَلَيْهِ هو الكتابُ الآخِرُ مِنْ بَيْنِ الكُتُبِ، فهو مُهَيْمِنٌ عَلَيْهَا.

❖ وأنَّ مُعْجزَتَهُ هـــي الْمُعْجِزَةُ الخَالِـــدَةُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمُعْجِزَاتِ.

❖ وأنَّ شَرِيعَتَهُ هي أَجْمَعُ الشَّرَائِعِ وأَدَقُّهَا، وأَوْفَاهَا بِكُلِّ ما تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الإِنْسَانِيَّةُ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ الأرضَ وَمَنْ عَلَيْها.

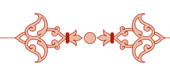
❖ وأنَّ رِسَـــالَتَهُ لَمْ تَكُنْ خَاصَّةً بِقَـــوْمٍ دُونَ قَوْمٍ، وإِنَّما هِيَ رسالَةٌ إِلَى الثَّقَلَيْنِ جَمِيعًا.

❖ وأنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ رَفَعَ بِهَـــا ما كان على الأُمَمِ مِنَ الآصَارِ الشَّاقَّةِ والتكاليفِ العَسِيرَةِ، فَجَعَلَ الدِّينَ فيها يُسْرًا.

❖ وأنَّ أُمَّتَهُ هِـــيَ خَيْرُ الأُمَمِ، وأَنَّهـــا تَضْطَلِعُ مِنْ بَعْدِهِ بأَمَانَةِ رِسَالَتِهِ قِيَامًا بِوَاجِبَاتِهَا وتبليغًا لِمَضْمُونِهَا إلى جميع العالَمِين.

❖ وقد زادَهُ تعالى شَرفًا بأنْ وَعَدَهُ أنْ يَبْعَثَهُ مَقَامًا مَحْمُودًا يومَ القيامة، وأنْ تَكُونَ لَهُ الشَّفَاعَةُ العُظْمَى، وأنَّ الناسَ جَمِيعًا في ذلك اليومِ تَحْتَ لِوَائِهِ.

ومِمَّا يَجِبُ الإيْمَانُ بِهِ أيْضًا: ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ ـ صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ عليه ـ وَهُوَ **القرآنُ الكريمُ**؛ الذي هو الْمُعْجِزَةُ الخالِدَةُ والصراطُ المستقيمُ والْمَنْهَجُ الشَّامِلُ لِكُلِّ ما تَحْتاج إليه الإنسانيَّةُ، وقد مَيَّزه اللهُ سبحانه مِنْ بَيْنِ الكُتُبِ بِبَقَاءِ نَصِّهِ مَحْفُوظًا مِنْ أيدي العابِثِينَ، وَمَصُونًا مِنْ تَحْرِيفِ الْمُبَدِّلِينَ، يَتَحَدَّى الثَّقَلَيْنِ بِشَكْلِهِ وَمَضْمُونِهِ، يَتَجَدَّدُ في كُلِّ حِينٍ إِعْجَازُهُ، وَتَتَجَلَّى في كُلِّ عَصْرٍ آياتُه، بِمَا يَبْهَرُ الأَلْبَابَ وَيَسْتَأْصِلُ شُبْهَةَ كُلِّ مُشَاقِقٍ، وَيَأْتِي على تَلْبِيسِ كُلِّ دَجَّالٍ، فِيهِ النُّورُ والشِّفَاءُ والهُدَى والرَّحْمَةُ والنَّجَاةُ والعِصْمَةُ.



أسئلـة:

١. هل يجب الإيمان بالرسل إجمالا أم تفصيلا؟

٢. هل يكفي الإيمان بسيدنا محمد ﷺ إيمانا مُجملا مع سائر المرسلين؟

٣. بماذا تميَّز المرسلون على غيرهم؟

٤. اذكر ثماني خصائص خَصّ الله بها سـيدنا محمدًا ﷺ عن بقية الرسل؟

٥. هل يجب الإيمان بالكتاب المنزّل على سيدنا محمد ﷺ ؟

٦. اذكر بعض ما تميَّز به القرآن الكريم؟

الإِيمَانُ بالْمَوْتِ وَالبَعْثِ وَالحِسَاب

١٨. وَقَـــدْ أَتَتْ حُجَجُ البُرْهَـانِ نَاطِقَةً
بِالْمَـوْتِ وَالبَعْـثِ وَالْحُسْـبَانِ فَامْتَثِـلا

هَذَا مِمَّا يَجِبُ الإِيْمَانُ بِهِ؛ وَهُوَ: الْمَوْتُ فَمَا بَعْدَهُ.

فَالْمَوْتُ هُوَ سبيلُ الانتقالِ مِنَ الدنيا إلى الآخِرَةِ، وَمِنَ الفَنَاءِ إلــى الخُلُودِ، وَمِنَ العَمَــلِ إلَى الجَزَاءِ، ولا يُجَادِلُ فيه مُجَــادِلٌ، لأَنَّه حَقِيقَةٌ واقِعَةٌ لا يَتَمَارَى فيها اثنان، فَهَــذِهِ الأُمَمُ عَبْرَ القُــرُونِ يَطْوِيها الْمَوْتُ طَـيًّا، وَلَيْسَ فيها مَنْ كان قادِرًا على التَّخَلُّصِ منه أو تأخِيرِ ســاعَتِهِ عندما يَحِينُ حَيْنُه، بَل الناسُ وغيرُهُمْ مِنَ الأَحياءِ في سِبَاقٍ مُسْتَمِرٍّ إِلَيْهِ لِوَرْدِ مَنْهَلِهِ والعَبِّ مِنْ كَأسِــهِ، لا فَرْقَ في ذلــك بَيْنَ قَــوِيٍّ وضَعيفٍ، ولا بَيْنَ قَاهِرٍ وَمَقْهُورٍ، ولا بَيْنَ غَنِيٍّ وفَقِيرٍ، ولا بَيْنَ عَزِيزٍ وذَلِيلٍ، فَلِذَلِكَ سَــلَّمَ الكُلُّ لَــهُ ولَمْ يُوجَدْ مَنْ يُمَارِي في حقيقتِه أو يُشَــكِّكُ في ثُبُوتِهِ، فالْمُؤْمِنُونَ والكُفَّارُ والبَرَرَةُ والفَجَرَةُ سَوَاءٌ في الإِقْرَارِ بِهِ.

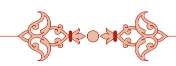
وإِنَّمَا يُجَادِلُ الْمُجَادِلُ ويُشَكِّكُ مَنْ شَكَّكَ فيما يَتْبَعُهُ مِنَ **البَعْثِ والحِسَابِ** وما يَنْتَهِي إِلَيْهِ التَّرْحَالُ مِنَ الثَّوَابِ والعِقَابِ، فَفِي ذَلِكَ يَقَعُ الافتراقُ بين طائِفَتَيِ الإِيْمَانِ والكُفْرِ، فالْمُؤْمِنُونَ كَمَا آمَنُوا بِثُبُوتِ الْمَوْتِ الْمُشَاهَدِ يُؤْمِنُونَ بِثُبُوتِ البَعْثِ الْمُغَيَّبِ وما يَتْبَعُهُ، لِتَسْلِيمِهِمْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وتَصْدِيقِهِمْ بِكُلِّ ما أَخْبَرَ بِهِ.

وقَدْ أقامَ اللهُ على العِبَادِ الحُجَّةَ على **ما أَنْكَرُوهُ مِنَ البَعْثِ** مِنْ دَلائِلِ خَلْقِهِ لَهُمْ مِنَ العَدَمِ، وَتَصْوِيرِهِ إِيَّاهُمْ على غَيْرِ سَابِقِ مِثَالٍ، وما آتاهُمْ مِنْ مَوَاهِبِ الحَيَاةِ وأفَاضَهُ عليهم مِنْ نِعَمِ الْمَدَارِكِ والأَحَاسِيسِ، فَقَدْ قال تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى

ﱣﭐﻷَﺭۡﺽَ ﻫَﺎﻣِﺪَﺓٗ ﻓَﺈِﺫَﺍٓ ﺃَﻧﺰَﻟۡﻨَﺎ ﻋَﻠَﻴۡﻬَﺎ ﭐﻟۡﻤَﺎٓﺀَ ﭐﻫۡﺘَﺰَّﺕۡ ﻭَﺭَﺑَﺖۡ ﻭَﺃَﻧۢﺒَﺘَﺖۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ - ٧].

وقال تعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۞ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۞ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ۞ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۞ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۞ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧ - ٨٣].

وَقَدْ دَلَّت النُّصُوصُ القَاطِعَةُ أَنَّ الإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ **مُحَاسَبٌ عَلَى مَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ**، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].



أسئلـة:

١. هل هناك خلاف بين الناس في وقوع الموت؟

٢. ما هي الأدلة على وقوع البعث؟

٣. هل سيُحاسَـب الإنسـان على بعض أعماله أم على جميعها؟ أوضح جوابك بالأدلة.



الْمِيزَانُ

١٩. وَمَا هُنَالِكَ مِيزَانٌ يُقَامُ كَمَا
قَالُوا عَمُودٌ وَكِفَّاتٌ لِمَا عُمِلا

٢٠. وَإِنَّمَا الوَزْنُ حَقٌّ مِنْهُ ـ عَزَّ ـ أَلَمْ
تَسْمَعْ إِلى آيَةِ الأَعْرَافِ مُحْتَفِلا

جاءَت الآياتُ القُرْآنيةُ ناصَّةً على أنَّ الناسَ يومَ القيامَةِ متفاوِتُونَ فـي الْمَآلِ بِحَسَبِ التَّفاوُتِ في الأعمال، فمِنْهُمْ ثَقِيلُ الْمِيزَانِ ومنهم خَفِيفُهُ، قال تعالَى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦ – ١١].

وقد اخْتَلَفَ المسلمون في تأويلِ ذلك؛

❖ فمنهم مَــنْ ذَهَبَ إلى أنَّ الأعمالَ **تُــوزَنُ وَزْنًا حقيقيًّا** بِمِيزَانٍ حقيقيٍّ، فَأَهْلُ البِرِّ تَــثْقُلُ موازينُهُمْ، وَأَهْلُ الفُجُــورِ تَخِفُّ موازينُهُمْ، وهو قول **الأَشَاعِرَةِ** ومَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ.

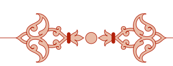
❖ وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أنَّ الْميــزانَ **كِنَايَةٌ عَنْ فَرْزِ الأَعْمَالِ**، وَتَمْييــزِ خَيْرِهَا وشَــرِّهَا، وبَيَــانِ مَقْبُولِهَا وَمَرْدُودِهَا، فإنَّ اللهَ تعالى هو العليمُ بكل شيْءٍ، ولَمْ يَكُنْ في حاجَةٍ إلى ميزانٍ حقيقــيٍّ لِبَيَانِ الصَّالِحَاتِ والسَّــيِّئَاتِ، وإنَّما يَعْرِضُ على عبادِهِ يــومَ القيامة ما قَدَّمُوا وما أَخَّرُوا، ومــا أَخْلَصُوا فيه للهِ وما أرادوا به غَيْرَ وَجْهِهِ، فتَقُومُ الحُجَّةُ على الْمُسِــيءِ بِإِسَاءَتِهِ، ويَنْعَمُ الْمُحْسِــنُ بنعمــة القَبُولِ مــن الله، وهو قَوْلُ **أصحابِنَا والْمُعْتَزِلَةِ**.

وحُجَّــةُ هؤلاءِ: أنَّ اللهَ سبحانه أَخْبَرَ عن الوَزْنِ بأنَّه الحَقُّ، وبَيَّن أنَّه القِسْطُ في قولِهِ: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعــراف: ٨]، وقَوْلِــهِ: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ

نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. فقولُهُ: ﴿ ٱلۡحَقُّ ﴾ خَبَرٌ عن الوَزْنِ، وقولُهُ: ﴿ ٱلۡقِسۡطَ ﴾ بَدَلٌ من الْمَوَازِينِ.

وهو دَليلٌ على صِحَّةِ ما ذَهَبُوا إليه، وصَوَابِ ما عَوَّلُوا عليه؛ مِنْ أنَّ الوَزْنَ ليس هو بِمِيزَانٍ ماديٍّ، وإنَّما هو مِيزَانٌ مَعْنَوِيٌّ وهو **الحَقُّ والقِسْطُ**، فإنَّ الخَبَرَ هو نَفْسُ الْمُخْبَرِ عنه، والبَدَلَ هو عَيْنُ الْمُبْدَلِ منه، ولذلك نَفَى الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أنْ يكونَ الْمُرَادُ بالْمِيزَانِ مِيزَانًا مَادِّيًا لَهُ عَمُودٌ وكِفَّتَانِ.

ومِمَّا يُقَوِّي ذلك: أنَّ الأعمالَ أعراضٌ ولَيْسَتْ أجْسَامًا، والأَعْرَاضُ لا تُوزَنُ بِمَعَايِيرَ مَادِّيَّةٍ، ولِهَذَا اخْتَلَفَ القائلون بالمِيزانِ الماديّ؛ فمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إلى أنَّ الأعمالَ تَتَجَسَّدُ فتكونُ أجْسَامًا، فيكونُ وَزْنُهَا كما تُوزَنُ الأجسامُ. ومنهم مَنْ قال بأنَّ الوَزْنَ إنَّما هو لِذَوِي الأعمالِ، فَيَثْقُلُونَ ويَخِفُّونَ بِقَدَرِ مَا قَدَّمُوا من خَيْرٍ أو شَرٍّ. ولا دَلِيلَ على شيءٍ من ذلك، واللهُ أَعْلَمُ.



أسئلـة:

١. اذكر بعض الآيات القرآنية الواردة في الميزان؟

٢. اختلفت الفِرَق الإسلامية في مسألة الميزان إلى رأيين، اذكرهما؟ وبيّن الفِرَق القائلة بهما؟

٣. ما الدليل على أنَّ الميزان كناية عن فرز الأعمال، وليس ميزانًا محسوسًا؟

٤. هل هناك خلاف بين القائلين بالميزان المادي؟



الصِّرَاطُ وَالحِسَابُ

٢١. وَلا الصِّـرَاطُ بِجِسْرٍ مِثْلَ مَا زَعَمُوا
وَمَا الحِـــسَابُ بِعَـــدٍّ مِثْلَ مَنْ ذَهِلا

يَعْنِي أنَّ الصِّرَاطَ لَيْسَ هو جِسْرًا على مَتْنِ جَهَنَّمَ يَعْـــبُرُهُ السَّالِكُونَ ـ كَمَا هُوَ رَأيُ كثيرٍ منَ العُلماء ـ وَإنَّمَا الصراطُ هو دِينُ اللهِ الحَـقُّ الذي تَتَوَقَّفُ نَجَاةُ كُلِّ أَحَدٍ على سُلُوكِهِ بِحِذْقٍ وَحَذَرٍ.

والدليلُ على ذلك أنَّ اللهَ سَمَّاهُ صِراطًا مستقيمًا في قَوْلِهِ تَعْليمًـــا لِعِبَادِهِ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، وفـــي قَوْلِـــهِ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعـام: ١٥٣]، وَقَوْلِـــهِ: ﴿ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

أمَّا مَا جَاءَ فـــي الرِّواياتِ مِنْ أنَّ الصِّرَاطَ جِسْـــرٌ على مَتْنِ جَهَنَّمَ يَعْبُرُهُ النَّاسُ، وأنَّه أَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ، وأنَّ النـــاسَ يَتَفَاوَتُونَ في عُبُـــورِهِ؛ مِنْهُمْ مَـــنْ يَعْبُرُهُ

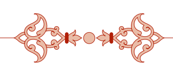
كالبَــرْقِ وَمِنْهُــمْ كالرِّيحِ ومِنْهُــمْ كَالفَــارِسِ وَمِنْهُمْ كَالْمَاشِي، وَمِنْهُمْ مَنْ يَهْوِي بِهِمْ في النَّار؛ فَمَا هُوَ إِلَّا تَمْثِيلٌ لِتَفَاوُتِ النَّاسِ في اتِّبَاعِ الدِّينِ، فَمِنْهُم الحَاذِقُ الْمَاهِرُ الذي لا يُفَرِّطُ في شــيءٍ منه، وَمِنْهُم مَنْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تُرْدِيهِ شَهَوَاتُهُ في جَهَنَّمَ.

ويَدُلُّ علــى أنَّ القَصْــدَ بِذَلِكَ التَّمْثِيــلُ: حَدِيث النَّوَّاسِ بنِ سَــمْعَانَ ﵁ عِنْــدَ أَحْمَــدَ والتِّرْمِذِيِّ ـ وَحَسَّنَهُ ـ وَالحَاكِمِ ـ وَصَحَّحَهُ ـ وَالنَّسَائِيِّ وابنِ جَرِيرٍ وابنِ الْمُنْذِرِ وأَبِي الشَّــيْخِ وابنِ مَرْدَوَيْه والبَيْهَقِيِّ في «شُــعَبِ الإِيْمَانِ» أنَّ رَسُــولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِراطًا مســتقيمًا، وعَلى جَنْبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ فيهما أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وعَلَى الأَبْوَابِ سُــتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّــرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يا أَيُّها النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّــرَاطَ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُــوا. وَدَاعٍ يَدْعُــو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الإِنْسَــانُ أَنْ يَفْتَحَ شَــيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْ، فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلِجْهُ. فَالصِّرَاطُ: الإسلامُ، والسُّــورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالأَبْوَابُ

الْمُفَتَّحَــةُ: مَحَــارِمُ اللهِ، وَذَلِــكَ الدَّاعِــي عَلَى رَأْسِ الصِّــرَاطِ: كِتَــابُ اللهِ، والدَّاعِي مِنْ فَــوْق: وَاعِظُ اللهِ تَعَالَى في قَلْبِ كُلِّ مُسْــلِمٍ»[1]. وَقَدْ ذَكَرَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ بَعْضَ أَسَــانِيدِ الحَدِيثِ فَقَالَ: وَهُوَ إِسْنَادٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وقَوْلُ الْمُصَنِّفِ: «وَمَا الْحِسَابُ بِعَدٍّ مِثْلَ مَنْ ذَهَلا» يَعْنِي: أنَّ الحِسَــابَ هُوَ عَرْضُ أعْمَالِ الإِنْسَــانِ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَبَيَانُ الْمُنْجِي مِنَ الْمُهْلِكِ مِنْهَا، وَلَيْسَ هُوَ بِعَدٍّ كَعَدِّ الْمَخْلُوقِ الذَّاهِلِ.

(١) أخرجه أحمد ١٨٣/٤، والترمذي في كتاب: الأمثال، باب: ما جاء في مثل الله لعباده (٢٨٦٨)، وابن جرير في التفســير ٧٥/١، والحاكم في كتاب الإيمان، باب: مثل الإســلام وحدود الله (٢٥٣)، وأبو الشــيخ في الأمثال (٢٨٠).



أسئلـة:

١. هل المقصود بالصراط جسر على متن جهنم؟

٢. ما الدليل من القرآن الكريم على أنَّ الصراط هو دين الله الحق؟

٣. كيف وصفت الروايات الصراط بالمعنى المادي؟

٤. ما التأويل الصحيح لتلك الروايات؟ وما الدليل على ذلك؟

٥. ما المراد بقول الناظم: (وما الحســاب بعدٍ مثل مَنْ ذهلا)؟

الجَنَّـةُ وَالنَّـارُ

٢٢. وَأَنَّـــهُ مَنْ أَطَـــاعَ اللهَ يُدْخِـــلُهُ
جَنَّاتِـــهِ أَبَـــدًا لا يَبْـــتَغِي نُـــقُلا

٢٣. وَمَنْ عَصَاهُ فَفِي النِّـيرَانِ مَسْكَـنُهُ
وَلَمْ يَجِـــدْ مَفْـــزَعًا عَنْـــهَا فَيَنْـتَقِلا

يَعْنِـــي: أنَّ النَّاسَ مُتَبَايِـــنٌ مَصِيرُهُمْ يَـــوْمَ القِيَامَةِ بِتَبَايُنِ مَسِيرِهِمْ في الحَيَاةِ الدُّنْيا.

فَمَنْ وَافَاهُ الْمَوْتُ وَهُوَ عَلَى صَلاحٍ وَاسْتِقَامَةٍ تَائِبًا مِنْ سَيِّئَاتِهِ حَرِيصًا عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ فَهُوَ رَضِيٌّ عِنْدَ اللهِ، يَفُوزُ مِنْهُ بِحُسْنِ الجَزَاءِ، وَهُوَ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، يَنْعَـــمُ فِيهَا وَلا يَبْـــؤُسُ، وَيَخْلُدُ فِيهَا وَلا يَمُوتُ، وَيَبْقَى فِيهَا وَلا يَخْرُجُ.

وَمَنْ وَافَاهُ أَجَلُهُ وَهُوَ مُنْهَمِكٌ في هَوَاهُ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَةِ رَبِّهِ فَإِنَّ مُنْقَلَبَهُ ـ وَالعِيَاذُ بِاللهِ ـ إِلى نَارٍ حَامِيَةٍ، شَـــدِيدٍ عَذابُهَا حَمِيمٍ شَـــرَابُهَا، لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ نَكَالُهَا،

مَنْ دَخَلَهَا خُلِّدَ فِيها وَلَمْ يَمُتْ، وَشَقِيَ بِهَا وَلَمْ يَسْعَدْ، وَأَقَامَ بِهَا وَلَمْ يَخْرُجْ.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦، ٢٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۞ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ۞ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۞ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۞ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۞ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ۞ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٩ - ٧٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣].

وَقَوْلُــــهُ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٦].

إِلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَــاتِ الكَثِيرَةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الجَنَّةَ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِيــنَ، وأنَّ النَّارَ أُعِدَّتْ لِلْمُجْرِمِينَ، وأنَّ كُلًّا مِنْهُمَا دَارُ خُلُودٍ وَبَقَاءٍ.

وَالْمُرَادُ بِـ«الْمَفْزَعِ»: الْمَلْجَأُ.





أسئلـة:

١. ما السبب في تباين مصير الناس يوم القيامة؟

٢. ما مصير مَنْ مات على طاعــة الله؟ وما الدليل على ذلك من القرآن الكريم؟

٣. ما مصير مَنْ مات على معصية الله تعالى؟

٤. هل يُخلّد في نار جهنم مَــنْ مات على المعصية ولم يتب منها؟ اذكر بعض الأدلة على ما تقول.

الشَّفَاعَةُ

٢٤. وَمَا الشَّـــفَاعَةُ إلا لِلــــتَّقِيِّ كَـمَا
قَدْ قَالَ رَبُّ العُـــلا فِيهَا وَقَـــدْ فَصَلا

الشَّفَاعَةُ لُغَةً: سَعْيُ ذِي جَاهٍ إلى مَنْ يَرْعَاهُ ويُقَدِّرُهُ مِنْ أَجْلِ دَفْعِ ضَرَرٍ عن أَحَـدٍ أو تَحْقِيقِ مَصْلَحَةٍ لَهُ. مأخُوذَةٌ مِنْ: شَــفَعَ الفَــرْدَ؛ إذا جَعَلَ لَــهُ ثَانِيًا، لأنَّ الشَّــافِعَ بِتَأْيِيدِهِ لِلْمَشْــفُوعِ لَهُ كَأَنَّهُ يَضُمُّ نَفْسَــهُ إليه فيكونُ ثانيًا لَهُ.

و**اصْطِلاحًا**: دَرَجَةٌ يَمْنَحُهَا اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ من عِبَادِهِ يومَ القيامة، فيَأْذَنُ لَهُ أنْ يَطْلُبَ لِغَيْرِهِ غُفْرَانَ ذَنْبٍ أو رَفْعَ دَرَجَةٍ أو تَعْجِيلَ دُخُولِ الجَنَّةِ.

وهي لِلنَّبِيِّينَ، وقد تَكُونُ لِغَيْرِهِمْ كالشُّهَدَاءِ، ولكنَّ الشَّفَاعَةَ العامَّةَ هي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَحْدَهُ، فإنَّه يَشْفَعُ إلى اللهِ في المَوْقِفِ العَظيــمِ بأنْ يُعَجِّلَ لِعِبَادِهِ الفَرَجَ فَيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ الجَنَّةَ.

وليسَتِ الشَّفَاعَةُ لِمَنْ أَصَرَّ على فُجُورِهِ ومَاتَ على ضَلالِهِ، وإنَّما هي للتَّائِبِ منَ ذَنْبِه ، وهو المُرَادُ **بِالتَّقِيِّ** في كلام المُصَنِّفِ، و**الدليلُ** على ذلك ما جاءَ في القرآن مِنْ نَفْيِ الشفاعة في ذلك اليوم أو نَفْيِ نَفْعِهَا، كَقَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقولِهِ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقولِهِ في وَصْفِ مَلائكته: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ومِنَ المعلومِ أنَّ اللهَ لا يَرْتَضِي الفاسِقَ الْمُصِرَّ على فُسُوقِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: إنَّ الآيتَيْنِ الأُولَيَيْنِ من هذه الآيات إنَّما هُمَا في بَنِي إسْرَائيلَ، لأنَّ الخِطَابَ فيهِمَا لَهُمْ، ولا يَنْفِي ذلك الشفاعَةَ عن غيرهم؛ **قُلْنَا:** إنَّ الخِطَابَ وإنْ كان لِبَنِي إسرائيلَ فإنَّ الوَصْفَ إنَّما هو

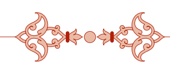
لِذَلِكَ اليـــوم الذي حُذِّرُوهُ، وهو وَصْفٌ يَسْتَوِي فيه بَنُو إسـرائيلَ وغَيْرُهُمْ من الناس، ويُؤَيِّـدُهُ أنَّ الآية الثالثةَ خُوطِبَ بِهَا المؤمنونَ تَحْذِيرًا لَهُمْ مِنَ التَّشَبُّثِ بالأَمَانِيِّ والاتِّكَالِ على نَيْلِ الشفاعة.

فَإِنْ قِـيلَ: إنَّ اللهَ وَعَدَ بِقَبُولِ تَوْبَـةِ التائبينَ مِنْ عِبَادِهِ، فَهُمْ لَيْسُوا بِحَاجَةٍ إلى شَفَاعَةِ أَحَدٍ؛ **قُـلْنَا**: إنَّ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلَفُ، ولكنْ لا يَعْلَمُ أَحَدٌ أنَّ تَوْبَتَهُ بِعَيْنِهِ مَقْبُولَةٌ أوْ لا، لأنَّ الإنســانَ عُرْضَةٌ لِلْخَطَأ والتَّقْصِيرِ، وإنَّ مِـنْ فَضْلِ اللهِ على عِبَادِهِ أَنْ رَفَـعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، وإنَّما يَأْذَنُ سُـبْحَانَهُ لِمَنْ يَشَـاءُ في ذلك اليوم بالشَّفَاعَةِ لِلتَّائبين فَيَتَقَبَّلُ اللهُ تَوْبَتَهُمْ، وفي ذلك إظهارٌ لِمزِيَّةِ هؤلاءِ الشـافِعِينَ وَرِفْعَةِ دَرَجَاتِهِمْ، كما أنَّ في ذلـك بَيَانًا لِفَضْلِ اللهِ علـى التائبينَ بِأَنْ يَتَقَبَّل توبتَهم.

وقد حَكَى اللهُ دُعَاءَ حَمَـلَةِ العَـرْشِ ومَنْ حَوْلَهُ حيثُ قال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ

شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۞ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۞ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٧ - ٩]. فهؤلاءِ مع كَوْنِهِمْ تائبينَ مُتَّبِعِينَ لِسَبِيلِ اللهِ هُمْ بِحَاجَةٍ إلى هذا الدُّعَاءِ مِنْ مَلائِكَةِ اللهِ، وهذا مِنْ جِنْسِ الشَّفَاعَةِ.

فَإِنْ قِيلَ: إنَّ الدعاءَ ليس مُنْحَصِرًا في التائبين لِقَوْلِ الله تعالَى: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ [الشورى: ٥]؛ **قُلْنَا:** هذا مُجْمَلٌ بَيَّنَتْهُ تِلْكَ الآياتُ السابقةُ، ومِنَ الْمَعْلُوم أنَّ الْمُجْمَلَ يُرَدُّ إلى الْمُبَيَّنِ، ولو أُخِذَ بِمَا يَقْتَضِيهِ ذلك الإجمالُ ـ حَسْبَ ظَاهِرِهِ بِعُمُوم لَفْظِهِ ـ لَزِمَ أنْ يَكُونَ دُعاؤُهُمْ بالْمَغْفِرَةِ شامِلًا لِلْمُشْرِكِينَ والْمَلاحِدَةِ، لأنَّهُمْ مِمَّنْ في الأَرْضِ، وهو مُعَارِضٌ لقولِهِ تعالَى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].



أسئلـة:

١. عرِّف الشفاعة لُغةً واصطلاحًا؟

٢. مَنْ هم الذين يشفعون يوم القيامة؟ وأيُّ هؤلاء يشفع الشفاعة العامة؟

٣. هل تكون الشفاعة لأهل الكبائر؟ بيّن إجابتك بالأدلة.

٤. ما فائـــدة الشـــفاعة للتائبين مع وعـــد الله لهم بقبول توبتهم؟

٥. ذكر القرآن الكريم استغفار الملائكة لِمَن في الأرض، فهل يعني ذلك أنَّ الاستغفار للجميع؟

الوُرُودُ

٢٥. وَالْمُؤْمِنُونَ عَنِ النِّيرَانِ قَدْ بَعُدُوا
وَمَا الوُرُودُ لَهُمْ بَلْ لِلَّذِي انْخَذَلا

قَضَى اللهُ نَجَاةَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ وَبُعْدَهُمْ عَنْهَا، والْمُرَادُ بِـ«الْمُؤْمِنِينَ»: الأَتْقِيَاءُ الأَوْفِيَاءُ، فَإِنَّهُمْ مَصُونُونَ مِنْ لَفْحِهَا وَمُزَحْزَحُونَ عَنْهَا، إذْ هُمُ الذينَ سَبَقَتْ لَهُمُ الحُسْنَى، وَقَدْ قَالَ تعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ۝ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣].

أمَّا الوُرُودُ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٧١]؛ فَهُوَ لأَهْلِهَا لا لِلَّذِينَ زُحْزِحُوا عَنْهَا، لأنَّ هَذَا الخِطَابَ إنَّمَا هُوَ لِلَّذِينَ وُصِفُوا مِنْ قَبْلُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ۝ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ

مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ۞ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ۞ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ۞ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٦-٧٠]، وَقَدْ وُجِّهَ إِلَيْهِمُ الخِطَابُ بَعْدَ هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾، وَذَلِكَ على سَبِيلِ الالْتِفَاتِ، وَهُوَ مَعْهُودٌ عِنْدَ العَرَبِ، وَقَدْ جَاءَ في القُرْآنِ كَثيرًا.

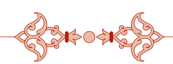
فَإِنْ قِيلَ: إنَّ قَوْلَهُ تَعالَى بَعْدَ ذلك: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴾ [مريم: ٧٢]، دَلِيلٌ عَلَى أنَّ الوُرُودَ لِلْكُلِّ، وَإِنَّما يُنَجَّى الْمُتَّقُونَ مِنْهَا بَعْدَ وُرُودِهَا، بِدَلِيلِ عَطْفِ هَذِهِ الجُمْلَةِ بِـ«ثُمَّ» الَّتي تَقْتَضِي الْمَهْلَةَ والتَّرْتِيبَ.

قُلْنَا: مَنْ وَقَعَ في الشَّيْءِ فَهُوَ غَيْرُ مُنَجًّى مِنْهُ، وَإِنَّما التَّنْجِيَةُ قبل الوُقُوعِ، وَ«ثُمَّ» وَإِنْ كانت تَدُلُّ على الْمَهْلَةِ إِلَّا أنَّ الْمَهلَةَ هُنَا لَيْسَتْ زَمَنِيَّةً، وَإِنَّما هِيَ رُتْبِيَّةٌ كَمَا هُوَ شَأْنُهَا عِنْدَمَا تُعطَفُ جُمْلَةٌ على جُمْلَةٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي

﴿يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: ١٣ - ١٧]، فَإِنَّ الْمَهْلَةَ هُنَا لا يُمْكِنُ أنْ تَكُونَ زَمَنِيَّةً؛ لِضَرُورَةِ كَوْنِ مَنِ اتَّصَفَ بِمَا ذُكِرَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قَبْلَ فَكِّ الرَّقَبَةِ والإِطْعَامِ.

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، مَعَ أنَّ قَوْلَهُ لِلْمَلائِكَةِ ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ سَابِقٌ عَلَى خَلْقِهِمْ وَتَصْوِيرِهِمْ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ في سُورَتَي الحِجْرِ وصٓ: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩، صٓ: ٧٢].

وَمِمَّا يُؤَكِّدُهُ: ما فِي سِيَاقِ هَذِهِ الآياتِ نَفْسِهَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا﴾، مَعْ أنَّ عِلْمَهُ بِذَلِكَ أَزَلِيٌّ سَابِقٌ عَلَى كُلِّ مَا ذُكِرَ.



أسئلـة:

١. هل الخطاب في قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ لجميع الناس؟

٢. كيف تردّ على مَن زعم أنَّ المتقين ينجون من النار بعد ورودها؟

٣. يَرِدُ حرف العطف (ثُمّ) لاستعمالات مختلفة، بيّن ذلك بأمثلة من القرآن الكريم؟



الإِيمَانُ بِالْمَلائِكَةِ

٢٦. وَأَنَّ للهِ أَمْــلاكًا وَقَــدْ عُصِمُوا
وَأَنَّ جِنْسَــهُمُ عَـنْ جِنْسِـنَا فُصِــلا

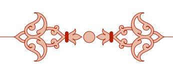
٢٧. فَلا تَصِفْهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِكَ مُطْ *
ـــلَقًا سِوَى أَنَّهُمْ خَــلْقٌ قَدِ امْــتَثَلا

مِمَّا يَجِبُ الإِيْمَانُ بِـهِ: مَلائِكَةُ اللهِ، وَهُمْ مِنْ عَالَمِ الغَيْبِ، نُؤْمِنُ بِوُجُودِهِمْ وَإِنْ لَمْ نُشَاهِدْهُمْ، وَهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ سَخَّرَهُمُ اللهُ لِطَاعَتِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، فَهُمْ كَمَا وَصَفَهُمْ تَعَالَـى بِقَوْلِهِ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. وَهُمْ مُمَيَّزُونَ عَنْ سَائِرِ الخَلْقِ بِطَبَائِعَ خَاصَّةٍ لا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ، فَهُمْ لا يَأْكُلُونَ وَلا يَشْرَبُونَ وَلا يَتْعَبُونَ وَلا يَنَامُونَ، وَلا يُفْرِزُونَ الفَضَلاتِ الطَّبِيعِيَّةَ الَّتِي تُفْرِزُهَا الأَجْسَامُ الأُخْرَى.

وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ نُورٍ[1]، فَأَجْسَامُهُمْ أَجْسَامٌ لَطِيفَةٌ نُورَانِيَّةٌ، وَلَكِنَّهُمْ يَتَكَيَّفُونَ فَيَتَمَثَّلُونَ فِي صُوَرٍ كَصُوَرِ الآدَمِيِّينَ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى في جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا أَتَى مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، وَقَوْلُ النبيِّ ﷺ في حَدِيثِ الوَحْيِ: «وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُني فَأَعِي مَا يَقُولُ»[2]، وَقَوْلُهُ في جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَمْ أَرَهُ في صُورَتِهِ الَّتي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا إِلَّا مَرَّتَيْنِ؛ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»[3].

وَالإِيْمَانُ بِهِمْ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الإِيْمَانِ السِّتَّةِ، لأَنَّ اللهَ تَعَالَى ذَكَرَهُمْ فِيمَا يَجِبُ الإِيْمَانُ بِهِ إِذْ قَالَ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

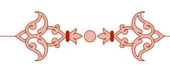
(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن، باب: في أحاديث متفرقة (٢٩٩٦).
(٢) أخرجه الإمام الربيع باب: في ابتداء الوحي (٢).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: سورة والنجم (٤٨٨٥)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: معنى قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٧٧).



﴿وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وَوَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقــرة: ٢٨٥]. وَنَصَّ حَدِيثُ جِبْرِيلَ في الإِيْمَانِ عَلَى وُجُوبِ الإِيْمَانِ بِهِمْ[(١)].

وَبِمَا تَقَـدَّمَ يَتَّضِحُ: أنَّ الإِيْمَانَ بِهِمْ يَقْتَضِي اعْتِقَادَ أَنَّهُمْ مُبَايِنُونَ لِسَـــائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتي نُشَـــاهِدُهَا في عَالَمِ الشَّهَادَةِ، لِذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْنَا أنْ لا نَصِفَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِنَا إِلَّا أَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ كَمَا خُلِقْنَا، وَمُتَعَبَّدُونَ بِطَاعَــةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ كَمَــا تُعُبِّدْنَا، وَهَــذَا يَعْنِي أَنَّهُمْ لا يُوصَفُونَ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الأُلُوهِيَّةِ والرُّبُوبِيَّةِ، إِذْ هُمَا مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: سـؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان (٥٠)، ومسـلم في كتاب: الإيمان، بـاب: بيان الإيمان والإسلام (٩) من طريق أبي هريرة.



أسئلـة:

١. ما حكم الإيمان بالملائكة؟ اذكــر الدليل على ذلك من القرآن والسنة؟

٢. هل يُعــدّ الملائكة مِــنْ عالــم الغيب أم مِــنْ عالم الشهادة؟

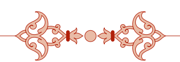
٣. اذكر ما تعرفه مِــنْ أعمال الملائكــة، موضّحًا ذلك بالأدلة؟

٤. بماذا تميّز الملائكة في طبائع خلقتهم؟

٥. مِنْ أيّ شيء خلق الله الملائكة؟

٦. هل يتمثّل الملائكة على صورة بشــر؟ بيِّن إجابتك بالأدلة من القرآن الكريم والسنة المطهّرة.

٧. ما هي الصفات التي لا يصحّ أن يُوصف بها الملائكة؟



الإِيمَانُ بالأَنْبيَاءِ وَالكُتُبِ

٢٨. وَالأَنْــبِيَا بِهِمُ الإِيْـــمَانُ يَلْزَمُـنَا
وَمَــا عَلَى كُـــلِّهِمْ مِنْ كُـــتْبِهِ نَـــزَلا

مِنَ الإِيْمَانِ الوَاجِبِ: **الإِيْمَانُ بِجَمِيعِ النَّبِـيِّينَ** مِنْ غَيْرِ تَفْرِقَـةٍ بَيْنَهُمْ في أَصْـلِ الإِيْمَانِ، قَـال تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقـرة: ٢٨٥]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۞ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢].

وَمَعْنى ذَلِـكَ: أَنَّ التَّفْرِقَةَ بينَ رَسُـولٍ وآخَرَ في أصلِ الإِيْمَانِ تَهْدِمُ الإِيـمَانَ مِنْ أَسَاسِهِ، وَتَجْعَلُ مَنِ اتَّصَفَ بِذَلِكَ في عِدَادِ الكافرين حَقًّا الذين تَوَعَّدَهُمُ

اللهُ بِالعَذَابِ الْمُهِينِ، وأنَّ الإِيـمَانَ بِجَمِيعِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَفْرِقَةٍ بَيْنَهُـــمْ يَنْتَظِمُ بِهِ الْمُؤْمِنُ في سِـــلْكِ الْمُؤْمِنِينَ الذين وَعَدَهُمُ اللهُ أَنْ يُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ.

وَهَذَا لا يُنَافِي وُجُـــوبَ **تَعْيِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ** ﷺ مِنْ بَيْنِهِمْ فِي الإِيْمَانِ، مَعَ الاكْتِفَـــاءِ بِالإِيْمَانِ الإِجْمَالِيِّ بِسَـــائِرِهِمْ إِلَّا مَنْ قَامَتِ الحُجَّةُ بِمَعْرِفَتِهِ بِعَيْنِهِ؛ مِمَّنْ نَصَّ عَلَيْهِمُ الكِتَابُ أو عُرِفَتْ نُبُوَّتُهُ وَرِسَالَتُهُ بِالتَّوَاتُرِ القَطْعِيِّ عنِ الْمَعْصُومِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ.

وَكَذَلِكَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُتُبٍ يَجِبُ الإِيْمَانُ بِهِ بِطَرِيقِ الإِجْمَالِ، مَا عَـــدَا **القُرْآنَ الكَرِيمَ** الْمُنْزَلَ عَلَى نَبِيِّنَا عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالتَّسْلِيمِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ تَعْيِينُهُ في الإِيْمَانِ كالإِيْمَانِ بِمَـــنْ نُزِّلَ عَلَيْهِ، وَكَذَا إِنْ قَامَتْ حُجَّةٌ عَلَى أَحَدٍ بِمَعْرِفَـــةِ كِتَابٍ آخَرَ مِنْ كُتُبِ اللهِ فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ في هَذِهِ الحَالَةِ أَنْ يُعَيِّـــنَهُ في إِيْمَانِهِ، كَمَا سَلَفَ في الإِيْمَانِ بالأَنْبِيَاءِ.

هَذَا وَقَد اخْتَلَفُوا في **التَّفْرِقَةِ بَيْنَ النَّبِيِّ والرَّسُولِ**، فَقِيلَ لا تَفْرِقَةَ بَيْنَهُمَا؛ فَكُلُّ نَبِيٍّ رَسُـــولٌ وَكُلُّ رَسُولٍ

نَبِيٌّ. وَقِيلَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، وَعَلَيْهِ فَالْمَشْهُورُ: أنَّ النَّبِيَّ أَعَمُّ مِنَ الرَّسُولِ وَالرَّسُولَ أَخَصُّ مِنْهُ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ لا العَكْسُ، ذَلِكَ لأَنَّ **النَّبِيَّ** ـ عِنْدَ هَؤُلاءِ ـ: مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ سَوَاءً أُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ أَوْ لَمْ يُؤْمَرْ، و**الرَّسُولَ**: مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ.



أسئلة:

١. هل يجب الإيمان بالأنبياء إجمالا؟

٢. أوضح الأدلة على وجوب الإيمان بجميع الأنبياء من غير تفرقة؟

٣. ما حكم مَنْ فرّق بين رسول وآخر في الإيمان به؟

٤. مَنِ الأنبياء الذين يجب أن نخصّهم بالإيمان؟

٥. هل يجب الإيمان بالكتب إجمالا؟

٦. ما هي الكتب التي يجب أن نخصّها بالإيمان؟

٧. هل هناك فرق بين النبي والرسول؟

الإِيمَانُ بالقُرْآنِ وَالقَوْلُ في خَلْقِهِ وَخَلْقِ غَيْرِهِ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّينَ

٢٩. وَبِالقُرَانِ خُصُوصًا بَعْدَ جُمْلَتِهَا
وَلَيْسَ مِنْهَا قَدِيمٌ يَحْتَوِي الأَزَلا

٣٠. بَلْ كُلُّهَا خَلَقَ البَارِي وَكَوَّنَهُ
فِيمَا يَشَاءُ، فَلا تُصْغُوا لِمَنْ عَذَلا(١)

تَقَدَّمَ وُجوبُ تَمْيِيزِ القُرْآنِ بِتَعْيِينِهِ في الإيْمان مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الكُتُبِ، ذلك لأَنَّنَا مُتَعَبَّدُونَ باتِّباعِ ما احْتَوَاهُ أَمْرًا ونَهْيًا، إذْ هو النَّاسِخُ لِمَا تَقَدَّمَهُ، فكان هذا التعيينُ أمْرًا ضَرُورِيًّا لانتِظَامِ حَيَاتِنَا الإِيمانِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ حَسْبَمَا تُعُبِّدْنَا، فلا يَسَعُ أَحَدًا جَهْلُ **القُرْآن،** وهو: الكتابُ الْمُنْزَلُ على نَبِيِّنا ﷺ لِلتَّحَدِّي والإِعْجَازِ الْمَنْقُولُ عنه بِالتَّوَاتُرِ القَطْعِيِّ.

---

(١) العذل هو الملامة، أي لا تصغوا لمن لامكم على القول بحدوث الكتب المنزلة، فإنه لام على حق.

وقولُ المصنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَلَيْسَ مِنْهَا قَدِيمٌ يَحْتَوِي الأَزَلا**» فيه تِبْيَانٌ لِمَقُولَةِ الحقِّ في القرآن وما أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ كُتُبِهِ على أنبيائه ورسله، فإنَّه مِمَّا يَتَجَلَّى لِلأَذْهانِ بَدَاهَةً أنَّ هذه الكُتُبَ كلَّها كائنةٌ بَعْدَ أنْ لَمْ تَكُنْ، فهي حادِثَةٌ، وحُدُوثُها يُؤْذِنُ بِمَخْلُوقِيَّتِهَا، إذْ كُلُّ حَادِثٍ لا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ أَحْدَثَهُ، وإلَّا لَجازَ حُدُوثُ الحَوَادِثِ بِنَفْسِهَا، وذلك عَيْنُ الْمُحَالِ، لأنَّه يَقْضِي بِبُطْلانِ الأُلُوهِيَّةِ.

ومِمَّا لا يُمَارِي فيه ذُو لُبّ: أنَّ هذه الكُتُبَ جَميعًا هي مُبَايِنَةٌ لِذَاتِ اللهِ العَلِيَّةِ، فَلَيْسَ مِنَ الْمُسْتَسَاغِ عَقْلًا أنَّها هي عَيْنُ ذاتِهِ عَزَّ وَجَلَّ، ولا أنَّها جُزْءٌ مِنْ ذَاتِهِ، وكَمَا يَسْتَحِيلُ كَوْنُهَا جميعًا كذلك يَسْتَحِيلُ اتِّصافُ بعضِها بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَلَئِنْ ثَبَتَ أنَّها غيرُ ذاتِهِ تعالى تَعَيَّنَ كَوْنُهَا مَخْلُوقَةً لَهُ عَزَّ وَجَلَّ، إذْ كُلُّ ما سِوَاهُ فَقَدْ خَلَقَه، بِمَعْنى أَخْرَجَهُ مِنَ العَدَمِ إلى الوُجُودِ، قال تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢]. ولا رَيْبَ أنَّ تِلْكُمُ الكُتُبَ مِنْ جُمْلَةِ الأشياءِ، وإلَّا لَمَا كان مَعْنىً لِلإِيمَانِ بِهَا.

فَإِنْ قِيلَ: إنَّها وإنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذاتِهِ فإنَّها مِنْ صِفَاتِه، وصفاتُ الله أَزَلِيَّةٌ، لأنَّه لَوْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا في الأَزَلِ لاتَّصَفَ بأضْدَادِهَا؛ **قُلْنا:** لَيْسَتْ هي مِنْ صِفَاتِهِ، وإنَّما هي مِنْ آثارِ صفاتِهِ، إذْ يَسْتَحِيلُ أنْ تَنْفَصِلَ الصِّفَةُ عَمَّنْ هوَ مُتَّصِف بِهِا، وأنْ تَكُونَ حَالَّةً في غيرِهِ، وقد وَصَفَ اللهُ تعالى القرآنَ الكريمَ الذي هو أَهَمُّ هذه الكُتُبِ بأنَّه قائِمٌ بِغَيْرِهِ تَعَالَى مِنْ مَخْلُوقَاتِه، فقد قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وقال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وإنَّما قُلْنَا بأنَّها مِنْ آثارِ صِفَاتِهِ، لأنَّها لَمْ تَحْدُث إلَّا بِقُدْرَتِهِ تعالى وعِلْمِه، كما أنَّ المخلوقاتِ بأَسْرِهَا إنَّما هي آثارٌ لِهَذِهِ الصفات، فإنَّ اللهَ خَلَقَهَا وأبْدَعَ خَلْقَهَا بِعِلْمِهِ وقدرتِهِ ومَشيئَتِهِ، ولا يَجُوزُ أنْ يُوصَفَ شيءٌ منها بالأَزَلِيَّةِ والقِدَمِ، أو يُنْفَى عنه كَوْنُهُ مَخْلوقًا للهِ تعالَى.

فإنْ قِيلَ: قد وَصَفَ اللهُ القرآنَ بأنه مِنْ كلامِه حيثُ قال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]،

والكلامُ صِفَـــةٌ أَزَلِيَّةٌ للهِ يُرَادُ بِهَا نَفْـــيُ الخَرَسِ، كما يُنْفَى بالعلـــمِ الجهلُ، وبالقُـــدْرَةِ العَجْـــزُ، وبالحياةِ الموتُ؛ **قُـلْنا:** لِلْكَلامِ مَعْنَيَانِ:

- **أَحَدُهما:** القُدْرَةُ على القول، كما أنَّ ضِدَّهُ الذي هو الخَرَسُ عَجْزٌ عنه.

- **ثانيهما:** أَثَــرُ هذه الصفة، وهـــو ما يَحْدُثُ مِمَّا يُعَدُّ قَـــوْلًا، والتخليطُ بينهما كالتخليـــطِ بين القُدْرَةِ والمَقْدُورِ عليه، والعِلْمِ والمَعْلُومِ، والبَصَرِ والمُبْصَرِ، والسَّمْعِ والمَسْمُوعِ، والفَرْقُ بينهما ضَرُورِيٌّ.

هذا؛ وقـــد دَلَّت النُّصـــوصُ الكثيرةُ علـــى **خَلْقِ القُرْآنِ:**

- فإنَّ اللهَ تعالى وَصَفَهُ بأنـــه **مُحْدَثٌ** في قولِه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبيـــاء: ٢] وقولِهِ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشـــعراء: ٥]. و**الذِّكْـــرُ** هنـــا بِمَعْنى القرآنِ لِدَلالَةِ كثيرٍ من النُّصوصِ عليه، كقوله

تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقولِهِ: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقولِهِ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، وقولِهِ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]. ولا رَيْبَ أنَّ الْمُحْدَثَ يستحيل قِدَمُهُ، لأنَّ الحُدُوثَ والقِدَمَ صِفتَانِ مُتَضَادَّتَانِ، فالْمُحْدَثُ: ما كانَ بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُنْ، ولا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ أَحْدَثَهُ.

▪ ومِنْ تلكَ النُّصوصِ قولُهُ تعالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣] وقولُهُ: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]. فإنَّ **الْجَعْلَ** هُنَا بِمَعْنى التَّصْيِيرِ، وتَصْيِيرُهُ قرآنًا عَرَبِيًّا ونُورًا يُهْتَدَى بِهِ إمَّا أنْ يكونَ: بِخَلْقِهِ مِنْ أَوَّلِ الأمْرِ مُتَّصِفًا بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ، أو بِنَقْلِهِ إليهِما من ضدهما، بِحَيْثُ إنَّه لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ عربيًّا فَحوَّلَهُ اللهُ إلى عَرَبِيٍّ، ولَمْ يكن مِنْ قَبْلُ نُورًا فَحوَّلَهُ اللهُ إلى نُورٍ، وكِلا الأَمْرَيْنِ دَالٌّ على خَلْقِهِ، فإنَّ مَا حُوِّلَ مِنْ وَصْفٍ إلى آخرَ يَتَعَذَّرُ أنْ يَكُونَ قَديمًا، على أنَّ الأوَّلَ هو الْمُتَعَيِّنُ، إذْ

لا دليلَ على أنَّهُ كان غيرَ عربيٍّ فَصَيَّرَهُ اللهُ عربيًّا، أو لَمْ يكن مِنْ قَبْلُ نُورًا ثُمَّ صَيَّرَهُ اللهُ كذلك.

▪ ومنها قولُه تعالَى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]، وقولُه: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٢]. فإنَّ **الإِحْكَامَ والتفصيلَ** كُلٌّ منهما فِعْلٌ للهِ تعالى وَقَعَ به، وذلك يقتضي أنْ يكونَ أبْدَعَه اللهُ تعالى مِنْ أوَّلِ الأمْرِ مُحْكَمًا مُفَصَّلًا، أو أنَّه حَوَّلَهُ إلى الإحكامِ والتفصيلِ بَعْدَ أنْ كانَ مُتَّصِفًا بخِلافِهِمَا، وكِلا الأمْرَيْنِ دَالٌّ على حُدُوثِهِ كما سَبَقَ، والأوَّلُ هو المُتَعَيِّنُ منهما دُونَ الثاني.

▪ ومنها قولُه تعالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ﴾ [آل عمران: ٧]. ومَوْضِعُ الدَّليلِ فيه: انقِسَامُهُ إلى مُحْكَمٍ ومُتَشَابِهٍ، والانقسامُ لا يكون إلا في الحادِثِ.

فإنْ قيل: اسْتَدَلَّ **بعضُ القائلين بِعَدَمِ خَلْقِهِ** بأنَّ اللهَ تعالى امْتَنَّ علينا في مواضِعَ شَتَّى بأنَّه مُنَزَلٌ

منه، كما في قولِهِ تعالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣]، وقولِهِ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١]، وقولِهِ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ [النحل: ٤٤]، وقولِهِ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [صٓ: ٢٩]، وقولِهِ: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، حَتَّى أَنَّ بَعْضَ هؤلاءِ قالَ بِقَطْعِيَّةِ كُفْرِ مَنْ قَالَ بِخَلْقِهِ لأَجْلِ هذِهِ النُّصُوصِ.

قُلْنا: إنَّ وَصْفَهُ بالإِنْزَالِ لا يَتَنَافَى مع خَلْقِهِ، بلْ هو دليلٌ على خلقه، لأنَّ الإنزالَ نَقْلٌ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، وهي حالَةٌ لا تكونُ إلّا في المَخْلُوقِ. على أنَّ الذينَ استدَلُّوا بإنزالِهِ على عَدَمِ خلقه ـ حتى قالوا بِكُفْرِ مَنْ قال بخلقه لذلك ـ يَلْزَمُهُمْ القولُ بِعَدَمِ خَلْقِ الماء والحديد وبَهِيمَةِ الأنعام، فإنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ كُلًّا مِنْ ذلك بأنه مُنْزَلٌ، حيث قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨]، وقال: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ [الأنفال: ١١]، وقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد: ٢٥]،

وقــال: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ [الزمر: ٦]، فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَقُولُوا في ذلك ؟!

وبِالْجُمْـلَةِ فإنَّ أَدِلَّةَ خَلْقِ القُرْآنِ كثيرةٌ، ومَنْ شاءَ الْمَزِيدَ فَلْيَرْجِعْ إلى كِتَابِ «الْحَقِّ الدَّامِغِ»، والحَمْدُ للهِ.

أسئلـة:

١. لماذا يجب علينا أن نخصّ القرآن بالإيمان؟
٢. عرّف القرآن الكريم؟
٣. هل الكتب السماوية حادثة أم قديمة؟ بيّن قولك بالدليل.
٤. كيف تردّ على من زعم أنَّ الكتب من صفات الله؟
٥. كم معنى للكلام في صفات الله تعالى؟
٦. اذكر أربعة أدلة من القرآن الكريم على أنّه مخلوق؟
٧. هل وصف القرآن بأنَّه منزل يتنافى مع خلقه؟
٨. أين بسط الشارح مسألة خلق القرآن؟

الإِيمَانُ بالقَضَاءِ وَالقَدَر

٣١. وَبِالقَـــضَا وَبِمَا الرَّحْمَـنُ قَـدَّرَهُ
وَأَنَّـــهُ خَـالِـــقٌ أَفْـعَالَـنَـــا حُـــلَلا

٣٢. لَكِـــنَّهُ لا بِجَـــبْرٍ كَانَ مِنْهُ لَـنَا
وَعِلْمُـــهُ سَابِـــقٌ في كُلِّ مَا جَـــعَلا

٣٣. وَإِنَّمَا الفِعْـلُ مَخْلُوقٌ وَمُكْـتَسَبٌ
فَالخَـــلْقُ للهِ وَالكَـــسْبُ لِمَنْ فَـــعَلا

مِمَّا يَجِـــبُ الإِيْمَانُ بِهِ: قَضَاءُ اللهِ وَقَـــدَرُهُ، وَالفَرْقُ بَيْنَهُمَـــا أَنَّ: **القَضَـــاءَ** هُوَ إِثْبَاتُ الأَشْـــيَاءِ فِـــي اللَّوْحِ إِجْمَالًا، وَ**القَدَرَ** هُو إِيْجَادُهَا في الْمَوَادِّ تَفْصِيلًا، ذَلِكَ لأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ مَا يَحْدُثُ في هَذَا الكَوْنِ، وَقَدْ أَثْبَتَ ذَلِكَ في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَلا بُدَّ مِنْ وُقُوعِ مَا أَثْبَتَهُ، إِذْ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَقَعَ شَـــيْءٌ بِخِلافِ مَا عَلِمَهُ تَعَالَى، كَمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الخَالِقُ لِكُلِّ مَا يَجْرِي في هَذَا الكَوْنِ، إِذْ لا خَالِقَ سِوَاهُ.

وَفَرَّقَ **قُطْبُ الأَئِمَّـــةِ** رَحِمَهُ اللَّهُ في **الذَّهَبِ الخَالِصِ** بَيْنَ

القَضَاءِ وَالقَدَرِ، حَيْثُ عَرَّفَ القَدَرَ بِأَنَّهُ: خَلْقُ اللهِ الأَجْسَامَ وَالأَعْرَاضَ، وَالقَضَاءَ بِأَنَّهُ: إِثْبَاتُ ذَلِكَ في اللَّوْحِ، وَهُوَ يَتَّفِقُ في مُؤَدَّاهُ مَعَ التَّعْرِيفِ السَّابِقِ.

والإِيْمَانُ بِالقَدَرِ نَصَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إِذْ هُوَ سَادِسُ أَرْكَانِ الإِيْمَانِ فِيهِ، وَنَصَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ الَّذِي قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ وَلَنْ تُؤْمِنَ وَتَبْلُغَ حَقِيقَةَ الإِيْمَانِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَنَّهُ مِنَ اللهِ»[1]. قَالَ: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ؛ كَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ خَيْرَ القَدَرِ وَشَرَّهُ؟ قَالَ: «تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، ومَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، فَإِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ».

وَذَلِكَ كُلُّهُ مَدْلُولٌ عَلَيْهِ بِدَلائِلِ القُرْآنِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، وَيَقُولُ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ

(١) أخرجه الإمام الربيع؛ باب: في القدر والحذر والتطير (٧٢).

عِبَادِهِۦ ﴾ [يونس: ١٠٧]، وَيَقُولُ: ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴾ [الكهف: ١٧]، وَيَقُولُ: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وَيَقُولُ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وَهَذَا هُوَ الَّذِي تَقْتَضِيهِ أَدِلَّةُ العَقْلِ، فَإِنَّهُ لَوْ نَفَذَ في هَذَا الكَوْنِ غَيْرُ مُرَادِ اللهِ لَكَانَتْ إِرَادَةُ غَيْرِهِ تَعَالَى غَالِبَةً عَلَى إِرَادَتِهِ، وَهُوَ عَيْنُ الْمُحَالِ، وَهَذَا لا يَعْنِي أَنَّهُ لا أَثَرَ لإِرَادَةِ الإِنْسَانِ في فِعْلِهِ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ لَهُ جَانِبُ الكَسْبِ مِنْهُ، وَإِنَّمَا الخَلْقُ للهِ ﷻ، وَلَيْسَ اكْتِسَابُهُ لِمَا يَكْتَسِبُ أَمْرًا اضْطِرَارِيًّا، فَإِنَّمَا يَكْتَسِبُ مَا تَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ إِرَادَتُهُ، وَكُلُّ أَحَدٍ يُدْرِكُ الفَرْقَ بَيْنَ مَا يَقَعُ عَلَى الإِنْسَانِ اضْطِرَارِيًّا وَمَا يَحْدُثُ لَهُ اخْتِيَارًا، فَحَرَكَتُهُ الاضْطِرَارِيَّةُ كَالرَّعْشَةِ وَالنَّبْضِ وَغَيْرِهِمَا هِيَ غَيْرُ الحَرَكَةِ الَّتِي تَكُونُ بِتَحْرِيكٍ مَقْصُودٍ مِنَ الإِنْسَانِ،

كَحَرَكَةِ الْمَشْيِ الاخْتِيَارِيِّ وَتَنَاوُلِهِ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، وَدَفْعِهِ مَا يُرِيدُ دَفْعَهُ وَأَخْذِهِ مَا يُرِيدُ أَخْذَهُ.

هَذَا؛ وَقَدْ وَقَفَ النَّاسُ مَوَاقِفَ مُتَبَايِنَةً في أَمْرِ القَدَرِ:

❖ فَمِنْهُمْ مَنْ **أَفْرَطَ** في إِثْبَاتِهِ؛ وَهُمُ **الْجَهْمِيَّةُ** الَّذِينَ قالوا لا فِعْلَ لِلإنْسَانِ وَلا إِرَادَةَ، وَجَعَلُوا كُلَّ مَا يَصْدُرُ مِنْهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ كَالأُمُورِ الْجِبِلِّيَّةِ الاضْطِرَارِيَّةِ، وَمَثَّلُوا الإِنْسَانَ بِالخَيْطِ الَّذِي تُقَلِّبُهُ الرِّيَاحُ.

❖ وَمِنْهُمْ مَنْ **فَرَّطَ** في ذلك؛ وَهُمُ **الْمُعْتَزِلَةُ** الذينَ نَفَوْا أَثَرَ الإِرَادَةِ الرَّبَّانِيَّةِ في فِعْلِ العَبْدِ، وَزَعَمُوا أَنَّ الإِنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ بِإِيْجَادِ فِعْلِهِ اسْتِقْلالًا تَامًّا.

❖ وَمِنْهُمْ مَنْ **وَقَفَ بين المَوْقِفَيْنِ**، وَقَالَ بِأَنَّ لِلإنْسَانِ مِنْ فِعْلِهِ خَيْرًا كان أو شَرًّا جَانِبَ الكَسْبِ دُونَ الخَلْقِ، وَأَنَّهُ على كَسْبِهِ يَتَرَتَّبُ ثَوَابُهُ أو عِقَابُهُ، أَمَّا الخَلْقُ فَاللهُ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَنْدَرِجُ في ذلك أفعالُ العِبَادِ، فَإِنَّها مِنْ بَيْنِ الأشيَاءِ الدَّاخِلَةِ في عُمُومِ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وذلك لا يُنَافِي أنَّ ما يأتِي بِهِ الإنسانُ مُتَبَايِنٌ حُكْمُهُ عِنْدَ اللهِ ﷻ؛ مِنْهُ ما يُحِبُّهُ اللهُ وَمِنْهُ مَا يَكْرَهُهُ، فَالْخَيْرُ مَحْبُوبٌ لَهُ تَعَالَى والشَّرُّ بَغِيضٌ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ﷻ أنْ يَهْدِيَ مَنْ شَاءَ لِفِعْلِ الخَيْرِ وَأَنْ يَخْذُلَ مَنْ شاءَ فَيَقَعُ في مَهَاوِي الشَّرِّ.

وَمَنْ أَتَى خيرًا أو شَرًّا فَهُوَ مُخْتَارٌ في فِعْلِهِ، غَيْرُ مُكْرَهٍ على ارْتِكَابِ أيٍّ مِنْهُمَا، وإِنَّما سَبَقَ عِلْمُ اللهِ تعالى ـ وَهُوَ سَابِقٌ على كُلِّ شَيْءٍ ـ بِمَا يَخْتَارُ مِنْهُمَا، فَجَرَى بِذَلِكَ قَلَمُ قَضَائِهِ في الأَزَلِ، ولا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِهِ ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، فَلِذَلِكَ يُمَكِّنُهُ اللهُ مِنْ فِعْلِ ما يَخْتَارُهُ عندما تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ إِرَادَتُهُ، وَيَخْلُقُهُ لَهُ لِيَكْتَسِبَهُ إِنْ أَرَادَ تَعَالَى وُقُوعَ ذَلِكَ مِنْهُ، وَقَدْ لا يُرِيدُ وُقُوعَهُ فَيَجْعَلُ لَهُ مِنَ الْمَوَانِعِ مَا يَصْرِفُهُ عنه، وَهُوَ مُشَاهَدٌ فيما يَقَعُ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ.

وَهَذَا القَوْلُ هُوَ **الْمَهْيَعُ الْحَقُّ**، وَبِهِ يَجْتَمِعُ شَمْلُ الأَدِلَّةِ الكَثِيرَةِ الَّتِي قَدْ تَبْدُو دَلالاتُهَا ـ بَادِيَ الرَّأْيِ ـ

مُتَبَايِنَةً، وَقَدْ تَعَلَّقَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُتَبَايِنَتَيْنِ بِطَرفٍ مِنْهَا مَع إِهْمَالِهِ لِلطَّرَفِ الآخَرِ.

▪ فالَّذِينَ عَزَوْا أفعالَ العَبْدِ إلى اللهِ وَلَمْ يَجْعَلُوا لِلْعَبْدِ فيها كَسْبًا تَشَبَّثُوا بِنَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] وَقَوْلِهِ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٣، ٤٤]، وَذَلِكَ أنَّ الضَّحِكَ والبُكَاءَ يَصْدُرَانِ مِنَ العَبْدِ فَهُمَا مِنْ فِعْلِهِ، وَلَكِنَّ اللهَ أَسْنَدَهُمَا إِلَيْهِ عِنْدَمَا بَيَّنَ أَنَّهُ هُوَ يُضْحِكُهُ وَيُبْكِيهِ، كَمَا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُمِيتُهُ وَيُحْيِيهِ، وَلا أَثَرَ لِفِعْلِ العَبْدِ فِي الْمَوْتِ وَالحَيَاةِ، فَكَذَلِكَ لا أَثَرَ لَهُ في الضَّحِكِ والبُكَاءِ. وَبِقَوْلِهِ: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] وَبِقَوْلِهِ: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] وَقَوْلِهِ في الْحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

▪ والذينَ نَفَوا القَدَرَ وَجَعَلُوا العَبْدَ مُسْتَقِلًّا في إيْجَادِ فِعْلِهِ تَشَبَّثُوا بالآياتِ الَّتي تَعْزُو الأفعالَ إلى العِبَادِ، وتَنْفِي أنْ يَكُونَ اللهُ أَلْجَأَهُمْ إِلَيْهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وَقَوْلِهِ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥] وَقَالَ في اسْتِحْقَاقِهِمُ العِقَابَ: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩] وَقَوْلِهِ: ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١] وَقَوْلِهِ:

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

[الحج: ١٠].

▪ أمَّا الذيــنَ أَثْــبتُوا للهِ تَعَالَــى الْخَلْــقَ وَلِلْعَبْدِ الْمَخْلُوقِ الكَسْبَ فَإِنَّهُمْ تَعَلَّقُوا بِالنَّظَرِ في هَذِهِ الآيَاتِ جَمِيعًا، فَفَهِمُوا أنَّ ما كان مُسْنَدًا إلى اللهِ فَإِسْنَادُهُ إِلَيْهِ لأَنَّــهُ خَالِقُهُ وَمُقَــدِّرُهُ، وَمَا كان مُسْــنَدًا إلــى العِبَادِ فَإِسْــنَادُهُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِ اكْتِسَابِهِمْ إِيَّاهُ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الكَسْبُ بِإِكْرَاهٍ مِنْهُ تَعَالَى، وَإِنَّمَا اخْتَارَ مَنْ شَاءَ مِنْهُمُ الخَيْرَ وَمَنْ شَاءَ الشَّرَّ، وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ.

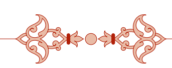
وَقَدْ عَلِــمَ اللهُ في الأَزَلِ ما يَكُونُ مِــن اخْتِيَارِ كُلٍّ لِنَفْسِــهِ، وَجَاءَ الخَلْقُ الَّذِي هُوَ مِنْ فِعْــلِ اللهِ مَقْرُونًا باخْتِيَارِ العَبْدِ الْمُكْتَسِــبِ لِيَتَأَتَّى لَهُ الكَسْبُ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، ولا يَعْنِي هَـذَا أنَّ لاخْتِيَارِ الإنْسَانِ أَثَرًا في فِعْلِ اللهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ ما يُرِيدُ، وَإِنَّما ذَلِكَ عِنْدَمَا يُرِيدُ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ تَنْــفُذَ مَشِيئَةُ العَبْدِ بِكَسْبِهِ الخَيْرَ أو الشَّــرَّ، وَقَدْ تَكُونُ مَشِيئَتُهُ تَعَالَى خِلافَ ذَلِكَ، فَلا يَقَعُ إِلَّا مَا شَــاءَ، وَيَحُولُ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ مَشِيئَــتِهِ، فَيَصُدُّهُ عَنِ الشَّرِّ الذي اخْــتَارَهُ، أو يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الخَيْرِ.

وفي ذَلِكَ رَحْمَةٌ وَابْتِلاءٌ، إِذْ لَعَلَّهُ عِنْدَمَا يُحَالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ما كانَ يَتُوقُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ يَؤُوبُ إِلَيْهِ رُشْدُهُ وَيَنْثَنِي عَن اخْتِيَارِهِ السَّابِقِ، وَلَعَلَّهُ إِنِ اخْتَارَ الخَيْرَ وَصَرَفَهُ عَنْ فِعْلِهِ صَارِفٌ يَبْقَى مُتَعَلِّقًا بِهِ مُتَحَسِّرًا عَلى فَوَاتِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِكَسْبِ مَزِيدٍ مِنَ الْخَيْرِ، وَقَدْ تَكُونُ عَاقِبَةُ ذَلِكَ أَنْ يَنْثَنِي عَنْ قَصْدِ الخَيْرِ مُخْتَارًا بِنَفْسِهِ، فَيَتَرَدَّى وَيَهْلِكَ ـ والعِيَاذُ بِاللهِ ـ، وَفِي كِلا الأَمْرَيْنِ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ تَقْصُرُ دُونَهَا مَدَارِكُ العِبَادِ، وَبِهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ يَتَّضِحُ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وَمَا القَدَرُ إِلَّا سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ غَيْبِ اللهِ تَعَالَى، فَلِذَلِكَ مُنِعْنَا مِنْ إِغْرَاقِ النَّظَرِ فِيهِ، وَإِنَّما عَلَيْنَا أَنْ نُوْقِنَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لا يُؤَاخِذُ عَبْدَهُ إِلَّا بِفِعْلِهِ، فَالعُقُوبَةُ على أَفْعَالِ الشَّرِّ إِنَّمَا هِيَ عَلى اكْتِسَابِ العَبْدِ لَهَا، لا عَلَى خَلْقِهِ تَعَالَى إِيَّاهَا، وَمِثْلُ ذَلِكَ ثَوَابُ أَعْمَالِ الخَيْرِ.

وَنُفَاةُ الكَسْبِ يَزْعُمُونَ أنَّ الثَّوَابَ وَالعِقَابَ الْمُتَرَتِّبَيْنِ عَلى أَفْعَالِ العِبَادِ إِنَّمَا هُمَا بِسَبَبِ مَا كَانَ مِنَ اللهِ تَعَالَى مِنْ إِيْجَادِ الخَيْرِ أو ضِدِّهِ عَلى يَدِ العَبْدِ، مِنْ غَيْرِ أنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ في ذَلِكَ كَسْبٌ، وَهُوَ عَيْنُ الْمُحَالِ، فَإِنَّ اللهَ أَجَلُّ وَأَعْظَمُ وَأَبَرُّ وَأَرْحَمُ مِنْ أَنْ يُجَازِي عَبْدًا عَلَى مَا لا اخْتِيَارَ لَهُ فِيهِ وَلا كَسْبَ.

وَقَوْلُهُمْ هَذَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ بُطْلانُ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالوَعْدِ وَالوَعِيدِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الكُتُبِ، مَا دَامَ مَنْ كَانَ مَقْصُودًا بِذَلِكَ لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ وَلا كَسْبٌ، وَفِيهِ مَا لا يَخْفَى مِنْ تَعْطِيلِ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى في نِظَامِ الوُجُودِ.



أسئلـة:

١. ما الفرق بين القضاء والقدر؟

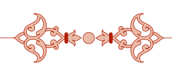
٢. بيّن الأدلة من القرآن والسـنة والعقـل على الإيمان بالقضاء والقدر؟

٣. مَنْ هم الذيـن أفرطوا في إثبات القـدر؟ بيِّن قولهم وأدلتهم في ذلك.

٤. مَنْ هم الذين نفوا القدر؟ وما أدلتهم؟

٥. بيّـن القول الحـق في مسـألة القـدر، وكيف جمع أصحابه بين الأدلة؟

٦. كيـف نفهم رحمـة الله وابتلاءه لعباده فـي خلق الله سبحانه أفعال عباده واختيارهم لها؟



ذِكْرُ الإيمَانِ وَمَا يَشْتَمِلُ عَليْه

«الإيـمَانُ» لُغَةً: هو التصديقُ، كما قال تعالى حِكَايةً لِمَا قالَهُ أولادُ يعقوبَ لأبيهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا ﴾ [يوسف: ١٧]، فإنَّهم أَرَادُوا به أنَّه غَيْرُ مُصَدِّقٍ لَهُمْ. واشتقاقُهُ من الأَمْنِ، فإنَّ الْمُؤْمِنَ ـ أي: الْمُصَدِّق ـ بتصديقِهِ لِمُحَدِّثِهِ جَعَلَهُ في مَأْمَنٍ من تكذيبِهِ إيَّاه.

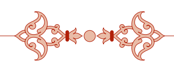
وهو شَرْعًا: تصديقٌ بالغيبِ الذي جاءَتْ بِهِ رسالاتُ الله. وقد جَمَعَ أصولَ ذلك حديثُ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إذْ جاءَ تفسيرُ الإيْمانِ فيه: «أنْ تُؤْمِنَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ وباليومِ الآخِرِ وبالقَدَرِ خيرِه وشَرِّهِ منَ اللهِ».

على أنَّ هذا التصديقَ المطلوبَ شرعًا بِهَذِهِ الحقائقِ الغَيْبِيَّةِ ليس تصديقًا ذِهْنِيًّا فَحَسْب؛ بِحَيْثُ لا يكون لَهُ أثرٌ على أفعالِ الْمُصدِّق، وإنَّما هو تصديقٌ يَتَغَلْغَلُ في أعماقِ النفس، حتى تَتَفَاعَلَ معه

تفاعُـــلًا تامًّا في القـــولِ والعَمَـــلِ والفعـــلِ والتركِ والأخلاقِ والسُّـــلوكِ، بِحَيْثُ تَتَجَاوَبُ حياةُ المؤمنِ كلُّها مع إيْمانِهِ تجاوُبًا تامًّا، فَيَتَجَسَّدُ إيْمَانُه في جميعِ أحوالِهِ وجميـــعِ أقوالِهِ وأعمالِهِ تَجَسُّـــدًا تامًّا يَتَرَاءى لِلنَّاظِرِين.

وأقوَى شاهدٍ على ذلك وأبلغُ تعبيرٍ عنه ما نَجِدُهُ في كتاب الله مِنْ أوصافِ المؤمنين، فقد قال تعالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٢-٤]، فقد حَصَرَ سـبحانه الْمُؤْمِنينَ حقًّا في هذا الصِّنْفِ من الناسِ، إذْ جاءَ في أوَّلِ وَصْفِهِمْ بأداةِ الحَصْرِ وهي «إِنَّمَا»، ثُمَّ أكَّدَهُ آخِرًا بتعريفِ الْمُسْنَدِ والْمُسْنَدِ إليهِ وتوسيطِ ضميرِ الفَصْلِ بينهما في قولِهِ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾.

وقال تعالَـــى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ

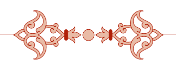


فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ – ١١].

وقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

وتَضَافَرَت الرواياتُ الكثيرةُ عن النبي ﷺ على تأكيدِ هذا المعنى، فقد ثَبَتَ في الصحيحِ عنه ﷺ أنه قال: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيْمَانِ: أَنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إليهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا للهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ»[(١)]، وقال ﷺ: «لا يُؤْمِنُ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان/ باب: حلاوة الإيمان (١٦)، ومسلم في كتاب: الإيمان/ باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).



أَحَدُكُمْ حتى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ والِدِهِ وَوَلَدِهِ والناسِ أجمعينَ»[1]، وفي روايةٍ: «والذي نفسي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أحدُكُمْ حتى أكونَ أحَبَّ إليه مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ»[2].

وصَحَّ عنه ﷺ أَنَّهُ قال: «لا يُؤْمِنُ أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفْسِهِ»[3]، وجاءَ عنه: «واللهِ لا يؤمِنُ، واللهِ لا يؤمِنُ، واللهِ لا يؤمِنُ». قيل: مَنْ يَا رَسُولَ الله ؟ قال: «مَنْ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[4].

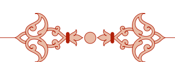
وبَيَّنَ صلواتُ الله وسلامُه عليه شُمُولَ الإيمَانِ للعقيدةِ والقولِ والأعمالِ والأخلاقِ في قولِهِ: «الإيمانُ بِضْعٌ وسِتُّونَ شُعْبَةً، أعلاها كَلِمَةُ لا إله

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان/ باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الإيمان/باب: علامة الإيمان (٥٠٢٨)، وابن ماجه في المقدمة/ باب: في الإيمان (٦٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان/باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣)، ومسلم في كتاب: الإيمان/باب: الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم (٤٥).

(٤) أخرجه البخاري في باب: إثم من لا يأمن جاره بوائقه (٢٩).



إلا الله، وأدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأذَى عن الطريقِ، والحَيَاءُ شُــعْبَةٌ مِنَ الإيْمانِ»[1]، فقد دَخَلَ القولُ والاعتقادُ فــي كَلِمَةِ لا إلــه إلا الله، فإنَّها كلمــةُ الحقِّ التي يُطَالَــبُ بِهَا الإنســانُ، وهــي أَصْـدَقُ ما يُقال، ولا اعتدادَ بِهَا إلا عندما تكون عقيدةً راســخةً في النفس، وَرَمَزَ إلى العمل بذِكْــرِ إماطة الأذى عن الطريق، وإلَى الأخلاقِ بقولِهِ: «والحياءُ شُعْبَةٌ من الإيْمان». والعَدَدُ ليس للحصرِ، فقد جاءَ في روايةٍ «**بِضْعٌ وسبعون شــعبة**»[2]، ومعنى ذلك أنَّ كلَّ برٍّ يندرجُ تحتَ الإيْمان.

ومِــنَ الْمَعلــومِ أنَّ كلَّ قضيَّةٍ إيْمانيةٍ ترســخُ في النفس حتى تَتَغَلْغَلَ في أعماقها وتَمْتَزِجَ بِمَشــاعِرِها وأحاسِيسِــها لا بُــدَّ مِــنْ أنْ تَتَفَاعَلَ معهــا النفسُ وتَتَجَاوَبَ حَرَكَاتُها وَفْقَ مُقْتَضَاها.

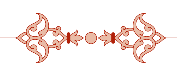
(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان/ باب: أمور الإيمان (٩).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيْمان/ باب: بيان عدد شعب الإيْمان (٣٥).

❖ فالإيْمانُ بالله

هو إِيْمانٌ بِمَـنْ خَلَقَ فَسَـوَّى، وَقَدَّرَ فَهَـدَى، ولَهُ الآخِرَةُ والأولَى، واهِبِ الحيـاةِ ومُفِيضِ النِّعَمِ، القادرِ على كل شيءٍ والعليمِ بكُلِّ أمرٍ، الذي منه الْمَبْدَأُ وإليه الْمُنْقَلَبُ. ورُسُوخُ هذه الحقيقةِ في النفس دافعٌ لَهَا إلى الطاعةِ الْمُطْلَقَةِ لَهُ ﷻ، بِحَيْثُ يَحْرِصُ الْمُؤمِنُ على أنْ لا يَفْقِدَهُ اللهُ حيثُ أَمَرَهُ، وأنْ لا يَجِدَهُ حيثُ نَهَاهُ.

❖ والإيمانُ بِمَلائكته

هـو تصديـقٌ بعالَـمٍ غَيْبِـيٍّ أُوتِيَ مـن القُوَى ما لا يَدْخُلُ في حُسْـبَانِ الإنسانِ، ومع قوَّته تلك لَمْ يَحُمْ حولَه الغُرورُ، فهو لا يَفْتَأُ عن ذكر الله ولا يَنْفَلِتُ عن طاعته ولا يَعْزُبُ عن خشـيته، وإنَّ مِمَّا سُخِّر لَهُ هذا العالَمُ مُراقبةَ الإنسـانِ وكَتْبَ أعماله والشـهادةَ عليه بِمَا قَـدَّم وما أخَّرَ؛ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [قٓ: ١٨] ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۞ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، ورسـوخُ هذا الإيْمان يبعثُ على الطاعة ويَقِي من التَّرَدِّي إلى مَهَاوِي العصيان.



❖ والإيمانُ بكُتبه

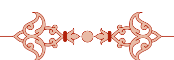
هو إِيْمانٌ بنظامِ اللهِ التشريعيِّ الذي أنزَلَه، والتفاعلُ معه إنَّما هو بالاتّباع التامِّ لِهَذا الْمُنْزَلِ، والعملِ الْمُطلَقِ بِمَا اقتضاه من أوامرَ ونَوَاهِيَ، والانضباطِ بِحُدودِهِ ومراسِمِه.

❖ والإيمانُ برُسُله

هو الإِيْمانُ بصَفْوَتِه مِمَّن خَلق، أرسلهم الله مُبَشّرين ومنذِرين، واختصَّهم بأنْ جَعلهم وعاءً لِهِدايتِه ومَشْرِقًا لِنُورِه، وميَّزَهم بأنْ رفَعهم على غيرهم درجاتٍ، وهذا الإيْمانُ إذا ما امتزجَ بِمَشاعرِ النفسِ قادها إلى حُسْنِ التأسّي بأولئك الْمُرْسَلين واتّباع هداهم وتَجَنُّبِ ما جَانَبَهُ.

❖ والإيمانُ باليوم الآخِر

هو إِيْمانٌ بالْمُنْقَلَبِ الذي لا مَفَرَّ لأحدٍ منه، وفيه يُجزَى كلُّ أحدٍ بِمَا كَسَب؛ ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا ﴾ [فصلت: ٤٦] على أنَّ الجَزَاءَ في ذلك



اليومِ مُبايِنٌ لكلِّ ما يكون من جزاءٍ في الدنيا، إذ لا ينقطع خيرُه ولا شَرُّه، وكلٌّ منهما أعظمُ منْ أنْ تَكْتَنِهَه البصائرُ أو يَرْتَسِمَ في ألواحِ الخيال، فلذلك كان منشأً للصلاح والاستقامة وينبوعًا للهداية والفضائل.

ولذلك كثيرًا ما يقترن بالإيْمان بالله في النصوص القرآنية والنبوية في مقام الدعوة أو التحذير، كما في قوله تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقولِه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وكما في قولِه ﷺ: «مَنْ كان يؤمن باللهِ واليوم الآخر فلا يُؤْذِ جارَه»[١]، وقولِه: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليَقُلْ خيرًا أو لِيَصْمُتْ»[٢].

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب/ باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر (٦٠١٨)، ومسلم في كتاب: الإيْمان/ باب: الْحث على إكرام الْجَار (٤٧).

(٢) أخرجه الإمام الربيع؛ باب: في الضيافة والجوار وما ملكت اليمين واليتيم (٦٨٣).

❖ والإيْمَان بقضاء الله وقدَرِه

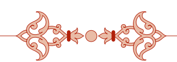
ينشأ عنه التسليم لأمرِ الله والرّضا بصروف قضائه.

وبالجُمْلَةِ فإنَّ الإيْمان الْمَطلــوبَ مِنَ الْمَرْءِ ليس أمرًا نظريًّا فحَسْبُ، وإنّما هو عقيدة ينبثق منها منهجٌ ربَانِيٌّ يشمل جميع تصرفات الإنسان فعلًا وتركًا.

٣٤. إِيـمَانُنَا القَـوْلُ وَالتَّصْدِيقُ مَعْ عَمَلٍ
فَالقَـــوْلُ مَرَّ فَصَدِّقْـــهُ وَكُــنْ عَمِلا

المــراد بـ «القــول الإيْمانِــيّ» ـ فــي قــول الْمُصَنِّفِ ـ: الشهادتان، كما دلَّ عليه حديثُ «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أنْ لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله».

والمراد بـ «التصديق»: هو التصديــق بِمَضْمونِها جملةً وتفســيرًا، وقد ســبق أن الإنســان إنَّما يُتَعَبَّدُ بالْجُمْلَــةِ أوَّلًا، وعندما تقوم عليه الْحُجَّةُ بتفســيرِها الاعتقاديِّ أو شيءٍ منه يَجِبُ عليه الإتيانُ بِمَا قامت به الحجة عليه، ولا اعتبارَ للقولِ وحدَه، فإنَّ مَنْ جاء



بالقول مِنْ غير تصديقٍ كان منافــقًا نفاقًا اعتقـاديًّا، ومعنى ذلك أنه في باطنه حكمُه حكمُ الْمُشركــين، وإنْ أُجْرِيَـتْ عليـــه أحكامُ الإسلام بِحَسَبِ ما أتى بـه في الظاهر من القول والعمل.

ومُرَادُهُ بـ «**العَمَل**»: الإتيانُ بالفرائض مع اجتناب الْمَحَارِمِ، مع الترغيب في الإتيان بالمقدور عليه من المندوبات، وهو الْمُرَادُ بقوله: «**وكنْ عَمِلا**».

٣٥. بِمَا عَلَيْكَ مِنَ الإِيـمَانِ مُفْـتَرَضٌ
وَالنَّـــفْلَ إِنْ تَسْــتَطِعْ فَافْعَلْهُ مُبْـتَهِلا

أي: متضرِّعًا إلى الله بأن يتقبله منك.

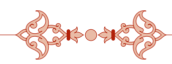
وقولُه: «**فالقولُ مَرَّ**» يعني ما سبق ذكره في الجمل الثلاث.

هذا وقد سبق أنَّ لِجُمْلَةِ التوحيد تفسيرًا عَمَلِـــيًّا، كما أنَّ لَها تفســيرًا اعتقاديًّا، والتفســيرُ العَمَلي هو العمل الذي يندرج في مضمون الإيْمان الشرعي كما أوضحناه.

فإن قيــلَ: إذا كان الإيْمان يشــمل القولَ والعملَ والاعتقادَ؛ فما الفَـرْقُ بينه وبين الإسلام؟ **قلنا:** هُمَا مُخْتَلِفَانِ من حيثُ الدلالــةُ اللغويةُ، فإنَّ الإيْمَانَ لُغَةً هو التصديق كما مَرَّ، والإسلامَ لُغَةً بِمَعْـنَى الانقياد، أمَّا من حيثُ الدلالةُ الشــرعيةُ فــإنَّ مُؤَدَّاهُما واحدٌ، ولذلك يُوصَفُ الْمُسْلِمُ بالْمُؤْمِنِ والْمُؤْمِنُ بالمسلمِ، كما في قولِه تعالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

ولكن قــد يُلحَظ فيهمــا أصلُ معنــى كلِّ واحدٍ منهما، وبِهَذا قد يتباينُ معناهُمَا، كما في قولِه تعالَى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجــرات: ١٤]، فــإنَّ الإيْمَــانَ الحقيقــيَّ هــو الحقيقةُ الباطنةُ للإســلام، والإسلامَ الحقيقيَّ هو الصورةُ الظاهرةُ للإيْمَان، فإنَّ الإيْمَانَ ـ كمــا قلنا ـ عقيدةٌ تســتلزم العملَ الصالِحَ واجتنابَ الْمَحْظُورَاتِ، والإســلامَ هو انقيادٌ وإذعانٌ في الأقوال والأعمال، قائمٌ على عقيدةٍ راســخةٍ في النفس، ولذلك كان الركــنُ الأولُ من أركانه الإتيانَ بالشهادتين.

ونظرًا إلى أنَّ الأصلَ في الإيْمَانِ هو التصديقُ ـ وهو معنىً باطنٌ ـ وأنَّ الأصلَ في الإسلامِ الانقيادُ ـ وهو فعلٌ ظاهرٌ ـ جاز إطلاقُ الإسلام على ما يبدو من أفعالِ مَن انتسَبَ إليه ولو لَمْ يكن ذلك مَبْنِيًّا على تِلْكُمُ العقيدةِ المطلوبةِ الراسخةِ، وهذا شأنُ أولئك الأَعرابِ الذين ادَّعَوا الإيْمَانَ فنفاه الله عنهم، وأثبتَ لَهُم صفةَ الإسلام أي الانقياد الشكْلِيّ الظاهر، وإلَّا فالإسلامُ الْحَقُّ هو أنْ يُسْلِمَ العبدُ نفسَه ظاهرًا وباطنًا لِرَبِّهِ سبحانه، كما يدلُّ عليه قولُه ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].



أسئلـة:

١. عَرِّف الإيمان في اللغة؟ مدلّلًا على ما تقول.

٢. ما معنى الإيمان في المصطلح الشرعي؟

٣. هل يكفي في الإيمان التصديق الذهني من غير عمل الجوارح؟

٤. اذكر ثلاثة أدلة من القرآن على اشتراط العمل في الإيمان؟

٥. ما الدليل من السنة على أنَّ الإيمان قول وعمل؟

٦. بَيِّن معنى الإيمان بالله تعالى، وأثره في النفس؟

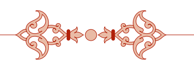
٧. ما معنى الإيمان بالملائكة، وهل لذلك من أثر؟

٨. ما حقيقة الإيمان بكتب الله، وكيف يكون التفاعل معه؟

٩. بَيّنْ أثر الإيمان بالرسل في حياة الإنسان؟

١٠. لماذا كان الإيمان باليوم الآخر سببا للصلاح والاستقامة؟

١١. أين تقدَّم ذكر القول الإيماني في هذا الكتاب؟



١٢. ما حكم من جاء بالإيمان القولي من غير تصديق بقلبه؟

١٣. هل هناك فرق بين الإسلام والإيمان في اللغة العربية؟

١٤. هل يختلف معنى الإيمان عن معنى الإسلام في الشرع؟ بيّن جوابك بالدليل.

١٥. ما معنى قوله تعالى في الأعراب: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾؟



قَوَاعِدُ الدِّينِ

٣٦. قَوَاعِدُ الدِّينِ عِلْمٌ بَعْدَهُ عَمَلٌ
وَنِيَّةٌ وَرَعٌ عَنْ كُلِّ مَا حُظِلا

القَوَاعِدُ هِيَ الأُسُسُ والأصولُ، فَقَاعِدَةُ البِناءِ أَسَاسُهُ الذي يُشَادُ عليه، وقاعدةُ الشَّجَرَةِ جِذْرُها الذي تَبْسُقُ منه.

و**الدِّينُ** هو ما يُدَانُ للهِ به، أي يُنْقَادُ لَه، والْمُرَادُ به هُنَا دِينُ الإسلام، لأنَّه دينُ اللهِ الذي اصْطَفَاهُ واخْتَارَهُ لِعِبَادِهِ وَأَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، قال تعالَى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، وقد بيّن تعالى أن كل دين سواه ليس هو من الله في شيء، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد رَضِيَهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ كما رَضِيَهُ لِلأُمَمِ مِنْ قَبْلِهَا، وَأَكْمَلَهُ لَهُمْ وَأَتَمَّ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْهِمْ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

والدِّينُ ـ كَغَيْرِهِ ـ لا يُشَادُ إِلَّا عَلَى قَوَاعِدَ، وَقَدْ بَيَّنَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ قَوَاعِدَهُ أَرْبَعٌ:

❖ أَوَّلُهَا: **العِلْمُ**

والْمُرَادُ به هنا: العِلْمُ الْمُتَعَلِّقُ بالدِّين، سواءً ما تَعَلَّقَ بالاعتقاد أو العملِ أو الأخلاقِ، وسواءً ما يتعلَّقُ بالتَّحَلِّي أو التَّخَلِّي، إِذِ الدِّينُ لا بُدَّ لِمُمَارِسِهِ مِنْ إتقانه، ولا يُمْكِنُهُ إتقانه إلا بالعلم، ولذلك كانت خلافةُ الإنسان في الأرض مَنُوطَةً بِمَا آتاه الله من علم، فَبِهِ شَرَّفَ اللهُ هذا المخلوقَ وأعلى دَرَجَتَهُ، وبَوَّأَهُ مُبَوَّأَ التَّكْرِيمِ في الْمَلأ الأعلى، وأمَرَ الملائكةَ المقرَّبين أنْ يسجدوا له، وقد بيّن اللهُ شَرَفَ العلم في آياتٍ شَتَّى من كتابه العزيز كقولِهِ:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩]، وقولِهِ: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، ونَعَى على أهل الضلالِ جَهْلَهُمْ بقولِهِ: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٦].

وبيّن نَبِيُّهُ ﷺ أنَّ العِلْمَ المتعلق بالدين هو مَنَاطُ الخير، حيث قال: «مَنْ يُرِدِ اللّٰهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدين»[1]، ودَلَّ الحديثُ على فَرْضِيَّةِ طَلَبِهِ، إذْ قال ـ عليه أفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ ـ: «طَلَبُ العَلْمِ فريضةٌ على كُلِّ مُسْلِمٍ»[2].

وإنَّما كان العلمُ مِنْ قواعد الدين وَقَدَّمَهُ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على سائر قواعده لأنَّ كُلَّ ما يليه مُنْبَنٍ عليه، فالمسلم لا يدري ما يأتي وما يذر من الأعمال إلا بالعلم، ولا يُتْقِنُ النِّيَّةَ الصالحةَ إلا به.

(١) أخرجه الإمام الربيع باب: في العلم وطلبه وفضله (٢٥).
(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: السنة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٤).

❖ ثانيها: العَمَلُ

والمراد به: العَمَـــلُ الصالِحُ الْمُوافِــقُ لِحُكْمِ الله تعالَى، وإنَّمَا كان العَمَلُ مِنْ قواعد الدِّينِ لأنَّ الدين ليس أمرًا نَظَرِيًّا، وإنَّما هو منهجٌ تطبيقي عَمَلِيٌّ، فلا بد للمتديِّنِ من أن يتجاوبَ في تصرفاته وأعماله مع ما يَدِينُ به من الدين، على أن العملَ لو كان بِمَنْـأًى عن الدِّين لَمَا كان الدينُ أمــرًا واقعيًّا، وإنَّما يَنْحَصِرُ في عالَمِ الْمِثَـــالِ، وهذا غَيْرُ مـــا أراده الله تعالَى من عبــــاده، فإنَّ اللهَ ﷻ إنَّما شَرَعَ لعباده الدِّينَ لِيُصلحوا به نفوسَهم، ولِتَتَجَسَّدَ به طاعتُهم لربِّهم، وليتقنوا به روابِطَهم فيما بَيْنَهُمْ، ولتكونَ كلُّ جزئيةٍ من جزئيات حياتِهم قائمةً على تعاليمه، مُسَوَّرَةً بأحكامه.

مِنْ أجل ذلك نـــرى الآيات الكثيـــرة في القرآن الكريم لا تذكر الإيْمانَ في مقام تبشير أهله بالفلاحِ إلا مقرونـــا بالعمـــل، كما في قولِـــهِ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقــرة: ٢٥]، وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩]، وقولِهِ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧]، وقولِهِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ [مريم: ٩٦]، وقولِهِ: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، وقولِهِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٩]، وقولِهِ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۞ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة: ٧، ٨].

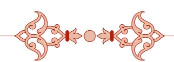
بَلْ بَيَّنَ سبحانه أنه لا نَجاةَ لأَحدٍ مِنَ الخُسران الذي حَكَمَ به على جِنْسِ الإنسان بالإيْمَانِ وَحْدَه حتى يكونَ معه العَمَلُ الصالِحُ والتَّوَاصِي بالحق والتَّوَاصِي بالصبر، وذلك في قولِهِ: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ

ﭐلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣].

ذلك لأن العمـلَ هو تَجْسيدٌ لِحَقيقةِ الإيْمَان وتصديقٌ لَهُ ـ كما سبق ذِكْرُهُ ـ، وإنَّما قَدَّمَ الْمُصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ عليه العِلْمَ لأنَّ العِلْمَ إِمامٌ والعَمَلَ تَابِعُه، إذْ لا يُتَصَوَّرُ التمييزُ بين الصالِحَات والسيئات إلا به، مع شُمُولِهِ لأصلِ العمل وهو الإيْمَان، فإنَّ الإيْمَان الْحَقَّ لا يكون إلا مَبْنِيًّا على العلم، فإنَّ الله فَرَضَ على عبادِهِ الإيْمَانَ بِحَقائِقَ لا يَنْبُو العلمُ عن شيءٍ منها، بل جميعُ دلائِلِهِ تَحُفُّ بِهَا وتُؤَيِّدُها، وليست قضايا الدين التي يَجِبُ الإيْمانُ بِهَا في الإسلامِ خيالاتٍ وأوهامًا؛ كما هو الشأنُ في غَيْرِهِ، بل هِيَ حَقائِقُ تَشْهَدُ لَهَا العُقُولُ وتَدْعَمُها النُّقُولُ.

❖ ثالثُها: النِّـيَّة

وهي إخلاصُ العمل لله وحدَه، وهي رُوحُ العمل، إذْ لا قيمةَ لَهُ بِدُونِها، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَمَن كَانَ



يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠].

ورَوَى الربيعُ عن أبِي عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس ﵁ أن النبي ﷺ قال: «الأعمالُ بالنِّـــيَّات ولِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى»[1]، وَرَوَاهُ الشَّيْخَانِ وغيرُهُمَا من طريق عُمَرَ ﵁ بِلَفْظِ: «إِنَّمــا الأعمالُ بالنيات وإنَّمَا لــكل امرئٍ ما نــوى، فَمَنْ كانــت هِجْرَتُــهُ إلى اللهِ ورَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ، وَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إِلَــى دُنْيَا يُصِيبُهَــا أو امْــرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَــا فَهِجْرَتُهُ إِلَى ما هاجَرَ إليه»[2].

وكَوْنُ الأعمالِ بالنِّـــيَّاتِ إنما هو دَلِيلٌ على أنَّ العملَ لا قيمةَ لَهُ بِدُونِهَا، فقد يأتِي الإنسانُ العَمَلَ مســتقيمًا تامًّا ليس به اعْوِجَــاجٌ ولا خَلَلٌ، ولكنه

(١) أخرجه الإمام الربيع، باب: في النية (٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية (٥٤)، ومســلم في كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية (١٩٠٧).

يَكُونُ وَبَاءً عليه ووَبَالًا، لأنَّه مِمَّا يَتَقَرَّبُ به إلى اللهِ وهو لَمْ يَقْصِدْ به وَجْهَه تعالَى، كأَنْ يُصلّيَ أو يتصدّقَ أو يَحُجَّ أو يُجَاهِدَ؛ لا لامْتِثَالِ أمْرِ الله ولكن مُرَاءَاةً للنَّاسِ، لِيَنَالَ بَيْنَهُمْ شُهْرَةَ الصَّلاحِ والتقوى، فإنَّ هذا تَقَرُّبٌ إِلَى النَّاسِ بِمَا يُتَقَرَّبُ به إِلَى الله، ولذلك عُدَّ مِنَ الإِشْرَاكِ، كما في قولِهِ تعالَى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وبِمَا أنَّ النِّيَّةَ الْمَطلوبَةَ شرعًا هِيَ إِخْلاصُ العَمَلِ للهِ وَحْدَهُ؛ فإنَّها سِرٌّ بَيْنَ العبد وربِّهِ، وليستْ قولًا باللِّسانِ - كما هو تَصَوُّرُ عَوَامِّ الناس -، حتى أصبَحَتِ النيةُ عندَهم لا يُعْتَدُّ بِهَا ما لَمْ يأتِ بِهَا صاحِبُها نُطْقًا، وَلَرُبَّما كان هذا النُّطقُ مُجَرَّدَ تَمْتَمَةٍ باللِّسانِ مِنْ غيرِ استحضارٍ لِمَعَانيها، وهذا يعني فُقْدَانَ النية رأسًا، إِذِ النيةُ لُغَةً وشرعًا لا تعني النُّطْقَ، وإِنَّما هي حقيقةُ القَصْدِ بالقَلْبِ، فَمَنْ قَصَدَ بالعمل شيئًا فَقَدْ نَوَاهُ حَسْبَ قَصْدِهِ ذلك.

ولَـمْ تَكُنْ هـذه الكلمـاتُ الْمُعَبِّرَةُ عن النِّـيَّةِ مَعْهُودةً زَمَنَ النبي ﷺ ولا زَمَنَ الرَّعيلِ الأوَّلِ ـ وَهُمُ الصحابـة والتابعون ـ، وإِنَّما أَحْـدَثَها مَنْ أحْدَثَهَا مِنْ بَعْـدُ تَعليمًا للعَوَامِّ كيف يَنْـوُونَ، وذلك عندما فَشَـا الجهلُ في النـاسِ فاحتاجوا إِلَـى تَبصيرٍ بِمَا يَنْـوُونَ، ولا قائِلَ بأنَّها وَحْدَها تكفـي عن القَصْدِ، ولَكِنْ لِفُشُـوِّ الجهلِ وتَبَلُّدِ الأذهـانِ أصبحتْ في الناس هي النيةَ الْمَطْلوبَةَ، وأصبحتْ غايةً لا وسيلةً، فقد ضاع الْمَقْصِدُ لاشـتغالِ الناس بالوسيلة دُونَه، واللهُ الْمُسْتَعان. وهذا مِمَّا يَدْعُو إلى ضَرُورَةِ تبصيرِ النَّاس بالْهُـدَى وتعريفِهم بِحَقِيقَـةِ النية، ودعوتِهِمْ إِلَـى أَنْ يَكْتَفُوا باسـتحضارِها فـي أذهانِهِمْ عندما يَقُومُونَ إلى العباداتِ دُونَ تَرْجَمَتِهَا إِلَى أَقْوَالٍ تُرَدَّدُ بِاللِّسَانِ.

❖ رابعُها: **الوَرَع**

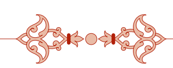
وأَقَلُّـهُ اجتنابُ مَحَارِمِ الله جَمِيعًا، ولـذلك قـال الْمُصَنِّـفُ رَحِمَهُ اللهُ: «**وَرَعٌ عَنْ كُلِّ مَـا حُظِلا**» أي: مُنِعَ،

فَحَقِيقَةُ الوَرَعِ هي التَّقْوَى، ولذلك تَفَاوَتَتْ مَرَاتِبُ الناس فيه:

- فالْمَرْتَبَةُ الأولى هي مَرْتَبَةُ العُدُولِ، وهي تَرْكُ الْمَحَارِمِ بِأَسْرِهَا مع فِعْلِ الفَرَائِضِ كُلِّهَا.

- والْمَرْتَبَةُ الثانيةُ هي مرتبة الصَّالِحِينَ، وهي تَرْكُ ما لا حَرَجَ فيه مَخَافَةَ الوُقُوعِ فيما فيه الحَرَجُ، هذا مع فعل الفرائض والحرص على النوافل.

- والْمَرْتَبَةُ الثالثةُ مَرْتَبَةُ الصِّدِّيقِينَ، ولا تَتَحَقَّقُ إلا بِتَرْكِ كثيرٍ مِمَّا لا حَرَجَ فيه، ولَوْ مع عَدَمِ الخَوْفِ مِنَ الوُقُوعِ فيما فيه الحَرَجُ، مع الْمُسَارَعَةِ إِلَى كُلِّ مَقْدُورٍ عليه من أعمال البِرِّ. وهي أَرْفَعُ الْمَرَاتِبِ.



أسئلـة:

١. بيّن معنى القواعد في اللغة؟

٢. تحدَّث بتفصيل عن الدين في الاصطلاح الشرعي؟

٣. لماذا كان العلم أول قواعد الدين؟ وما المراد به هنا؟

٤. اذكر الأدلة من القرآن والسنة على فضل العلم المتعلق بالدين؟

٥. لماذا كان العمل من قواعد الدين؟

٦. اذكر بعض الآيات التي تقرن الإيمان بالعمل؟ وما دلالة ذلك؟

٧. بيّن الحاجة إلى العلم في الجانبين الاعتقادي والعملي؟

٨. ما هي الأدلة على وجوب إخلاص النية في العمل؟

٩. بيّن حقيقة النية لُغة وشرعا؟ وما هو الخطأ الذي يقع فيه الناس في هذا الأمر؟

١٠. ما حقيقة الورع؟ وما أقلّه؟

١١. عدّد مراتب الورع، مُبيّنًا أعلاها وأدناها؟

أَرْكَانُ الـدِّيـنِ

٣٧. اِرْضَ وَفَوِّضْ وَسَـلِّمْ وَاتَّـكِلْ فَبِذَا
تَحُــوزُ أَرْكَانَــهُ اللاتي بِهَا كَــمُلا

الأَرْكَانُ جَمْعُ رُكْنٍ، وَهُوَ الدِّعَامَةُ، وَهِيَ أَقْوَى مَا فِي البِنَاءِ.

وَفِي هَذَا تَشْبِيهٌ لِلدِّينِ بِبِنَاءٍ لَهُ دَعَائِمُ مَتِينَةٌ، وَإِنَّمَا عُدَّتْ هَــذِهِ أَرْكَانَ الدِّينِ لأَنَّهَا الجَانِــبُ القَوِيُّ مِنْهُ، فَمَنِ اسْــتَجْمَعَهَا فَقَدْ حَــازَ الدِّينَ بِحَذَافِيــرِهِ، لأَنَّها لا تَجْتَمِعُ إِلَّا فِي نَفْسِ مَنْ أَخْلَصَ للهِ تَعَالَى عُبُودِيَّتَهُ، وَتَجَرَّدَ مِنْ هَوَى نَفْسِهِ وَتَحَكَّمَ فِي وَسَاوِسِهَا.

وَأَرْكَانُ الدِّينِ هِــيَ: الرِّضَا بِقَضَاءِ اللهِ، وَتَسْــلِيمُ الأَمْرِ إِلَيْهِ، وَتَفْوِيضُ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ.

❖ **فَالرِّضَا بِقَضَائِهِ** هُوَ قَبُولُ كُلِّ مَا يَأْتِي مِنْ لَدُنْهُ مِنْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ، أَوْ سَــرَّاءَ أَوْ ضَرَّاءَ، بِحَيْثُ لا تَجِدُ النَّفْسُ حَرَجًا قَــطُّ وَهِيَ تَسْــتَجِيبُ لِدَاعِي اللهِ بِفِعْلِ

مَا أَمَرَ وَتَرْكِ مَا نَهَى، وَتَتَفَاعَلُ مَعَ سُنَنِ الحَيَاةِ، مُوقِنَةً أنَّ كُلَّ مَا أَصَابَهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَمِنَ اللهِ وَحْدَهُ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى الاتِّزَانِ وَالثَّبَاتِ أَمَامَ تَحَدِّيَاتِ الدَّهْرِ وَصُرُوفِ الزَّمَنِ، فَلا تَجْزَعُ لِضَرَّاءَ وَلا تَسْتَفِزُّهَا النَّعْمَاءُ.

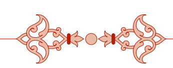
❖ وَ**التَّسْلِيمُ** هُوَ الانْقِيَادُ وَالإِذْعَانُ لَهُ تَعَالَى، مَعَ الخُضُوعِ وَعَدَمِ الاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ.

❖ وَ**التَّفْوِيضُ** هُوَ الرِّضَا بِخِيَرَةِ اللهِ تَعَالَى لَهُ، لأَنَّهُ العَالِمُ بِمَصَالِحِ خَلْقِهِ.

❖ وَ**التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ** هُوَ الثِّقَةُ بِهِ ﷻ وَبِمَا عِنْدَهُ، وَعَدَمُ الاعْتِمَادِ عَلَى مَا عِنْدَ النَّاسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. وَلا يَعْنِي ذَلِكَ إِهْمَالَ الأَسْبَابِ وَعَدَمَ الأَخْذِ بِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنَ التَّوَكُّلِ فِي شَيْءٍ، وَإِنَّمَا هُوَ عَجْزٌ وَجَهْلٌ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ نَاطَ الأُمُورَ بِأَسْبَابِهَا، وَأَمَرَ بِالسَّعْيِ فِي الأَرْضِ وَالابْتِغَاءِ مِنْ فَضْلِهِ، وَهُوَ مِنَ الأَخْذِ بِالأَسْبَابِ، كَمَا أَمَرَ فِي الحُرُوبِ بِأَخْذِ الحَذَرِ مِنَ

الْعَدُوِّ وَإِعْدَادِ الْعُدَّةِ وَعَــدَمِ التَّفَرُّقِ وَالاخْتِلافِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مَعَ ثِقَتِهِ بِاللهِ سُــبْحَانَهُ فَقَــدْ تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ حَــقَّ تَوَكُّلِهِ. عَلَــى أَنَّ الْمُؤْمِنَ لا تُنْسِــيهِ الأَسْــبَابُ مُسَــبِّبَهَا، فَهُوَ يَلْحَظُ عِنْدَمَا يَأْخُذُ بِأَيِّ سَــبَبٍ قُدْرَتَهُ تَعَالَــى، وَيُحِسُّ بِعَظِيمِ فَضْلِهِ عَلَيْــهِ، إِذْ هَيَّأَ لَهُ تِلْكُمُ الأَسْبَابَ وَمَكَّنَهُ مِنْ مُمَارَسَتِهَا.

هَذَا وَقَدْ تَسَاءَلَ بَعْضُ طَلَبَةِ العِلْمِ عَنِ **الفَرْقِ بَيْنَ القَوَاعِدِ وَالأَرْكَانِ**، فَأَجَبْــتُهُ بِأَنَّ القَوَاعِدَ هِيَ الأُسُسُ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَــا البِنَاءُ، وَالأَرْكَانَ هِــيَ العُمُدُ الَّتِي يَشْـتَدُّ بِهَا، وَبِهَذَا يَتَّضِحُ أَنَّ الأَرْكَانَ نَفْسَهَا هِيَ بِحَاجَةٍ إِلَى القَوَاعِدِ؛ إِذْ لا تَقُومُ إِلَّا عَلَيْهَا.



أسئلة:

١. ما معنى الركن في اللغة؟

٢. للدين أربعة أركان، اذكرها؟

٣. بيّن لماذا عُدّت هذه الأربعة أركانا للدين؟

٤. اشرح الأركان الأربعة شرحا موجزا؟

٥. هل إهمال الأسباب من التوكل على الله؟ اشرح ذلك بالمثال.

٦. ما الفرق بين القواعد والأركان؟

مَسَالِكُ الدِّيـنِ

٣٨. ثُمَّ الظُّهُورُ وَدَفْعٌ وَالشِّـرَاءُ مَعَ الْـ * ـكِتْمَـــانِ طُرْقٌ لَهُ، أَكْرِمْ بِهَـا سُـبُـلا

الْمَسَالِكُ جَمْعُ مَسْـــلَكٍ؛ وهو الطَّرِيقُ، وإنَّما عَبَّرَ عن هـــذه الحالات بالْمَســـالك لأنَّها طُرُقٌ يســـلكها المسلمون ـ حَسْبَ مُلاءَمَةِ الظروف وتَهَيُّؤِ الأَسْبَابِ ـ إِلَى ما يبغونه من الحق والرشد وإقامة نظام الدين.

وهذا لأن الْمُسْـلِمَ لا يُكْتَفَى منه بإصلاح نفســه، وإنَّما هو مسؤولٌ عن إصلاح مُجْتمعه وأُمّـــته، وبِهذا ينتظم شَمْلُ المسلمين وتَمْتَدُّ بينهم أواصِرُ الوَلاية، قال تعالَـــى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [التوبة: ٧١].

ولا بُدَّ مــن مراعـاة تفـاوت الأحـــوال وتباين الظروف، وما ينشأ عن ذلك من اختلافِ الْمُلاءَمَاتِ للقيام بِهَـذا الواجب، فمـا يَجِبُ إِبَّـانَ القوة ليس

كالذي يَجِبُ فِي فترات الضعـف، ومن الْمَعلوم أنَّ الإســـلامَ دِينٌ ونِظَامٌ، ولذلك يُبَوِّئُ كُلَّ أمْـرٍ مُبَوَّأَهُ، ويُعطي كلَّ شـيءٍ ما يلائمه من الأحكام، وقد بُعِثَ النبيُّ ﷺ جَامعًا للشَّـتَاتِ ومُوَحِّـدًا للصَّفِّ، ولكنه ـ عليه أفضل الصلاة والسـلام ـ لَمْ يكن شأنُهُ وشأنُ أصحابِه في مَكَّةَ وهُمْ يُواجِهُون عَـنَتَ الكُفْرِ وكِبْرِياءَ الجاهلية كما كان شـأنُه وشـأنُهم بَعْدَ الْهِجْرَة إِلَى المدينة المنوَّرة، حيث نَبَتَتْ أَوَّلُ دولةٍ للإسـلام في عهده عليه الصلاة والسلام وأَخَذَتْ تَبْسُـقُ دَوْحَتُهَا وتَمْـتَدُّ فُروعُها، لِتُظِلَّ بِظِلِّهَا الوَارِفِ الظَّلِيلِ كُلَّ مؤمنٍ، وَلِتُؤْوِي إِلَى رِحَابِهَا الآمِنَةِ كُلَّ مُسْتَضْعَفٍ.

ولا ريبَ أنَّ ما أسَّسـه وبناه ﷺ من نظـامٍ دينيٍّ ليس نظامًـا وَقْتِيًّـا، بل هو شـامل لـكل الأطوار والعُـصور إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ وَمَنْ عليها، رَغْمَ أنَّ عَوَادِيَ الزَّمَنِ وصُـروفَ الدهر متقلِّبةٌ بين مُلائِمَةٍ ومُعَاكِسَـةٍ، فإنَّ رياحَ الأحداث منها الصَّبَا الْمُنْعِشُ، ومِنْهَا الدَّبُـورُ الْمُدَمِّرُ، ومع ذلك فـإن عُصْبَةَ الْحَقِّ مُطالَبون دائمًا بأنْ يُحَافِظوا على ما عندَهم من الحق،

وأنْ يُطَبِّقُوا نظامَه وَفْــقَ مُقتضيات الظروف، فلذلك شُــرِعَتْ لَهُمْ هذه الْمَسَــالِكُ لئلَّا يُفَرِّطُــوا في نظام الدين، وهي أربعة:

❖ أوَّلُها: **الظُّـهُور**

وهو ـ كاسْــمِهِ ـ يُنْبِئُ عن القوة واجتماعِ شَــمْل الأمَّةِ وانتظام أمرِها وعلوِّ كلمة الحق، وتَمَكُّن عُصْبَتِهِ من قيادة سفينة الأمَّة وَفْقَ نظام دينها.

وهــذا الــذي كان مِــنْ بعــدِهِ ﷺ عندمــا بايَعَ الْمُهَاجِــرُون والأنصــارُ والذيــن اتبعوهم بإحســانٍ الْخُلفاءَ الراشــدين، فإنَّ بَيْعَةَ كل واحد منهم كانَتْ وَفْقَ هذا النظام، وإنَّما دَأَبَ أصحابنا ـ رَحِمَهُم الله ـ على التمثيلِ لِهَذا الْمَسْــلَكِ بِمَا كان عليه حالُ الأمة في عهد **الخَلِيفَتَيْنِ الرَّاشِدَيْنِ أبِي بكرٍ وعُمَرَ** رضي الله عنهما لأنَّ الأمة في عصرِهِما كانت في عافيةٍ من الفتنة ومأمَنٍ من الشِّــقاق والْخِلاف، وإنَّمَا بــدأتْ بعدَهُما تَهُبُّ عليها أعاصيــرُ الفِتَــنِ لِتُضْرِمَ نارَهــا، فحصل بينها ما حصل من الشقاق والاختلاف.

هذا؛ وبِمَا أنَّ هذا الْمَسْــلَكَ هو أعلى الْمَسَــالِكِ وأجَلُّها ـ إذ هو أصفاهــا مَوْرِدًا وأطْيَبُهــا ثَمَرًا ـ لَمْ تَتَوانَ هِمَمُ أهلِ الحق والاستقامةِ ـ في حالِ ما تكون الفُرَصُ مُوَاتِيَةً ـ عن الأخْذِ بنظامِه والاعتصام بِحَبْلِهِ، كما كان ذلك **بأرْضِ اليَمَنِ** عندما بايَعُوا طالِبَ الْحَقِّ عبدَالله بنَ يَحيى الكنديَّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، و**بالقُطْرِ العُمَانِيِّ** مُنْذُ مبايَعَةِ الْجُلَنْدَى بنِ مســعودٍ ثُمَّ الأئمَّــةِ العُدُولِ مِنْ بعدِه ـ رحمهم الله تعالَى ـ، وكذلــك **بِبِلادِ الْمَغْرِبِ** منذ بَيْعَةِ الإمام أبِي الْخَطَّابِ الْمَعَافِرِيِّ، ثُمَّ اســتمرَّ هذا النظــامُ في عُهودِ الأئمَّةِ الرُّسْــتُمِيِّينَ مِــنْ بَعْدِهِ ـ رَحِمَ اللهُ الجميعَ ـ. وإلَى ذلك يُشِيرُ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ في جَوْهَرِه حيث قال:

وَلِلْعُمَانِيِّــــينَ وَالْمَـغَــارِبَـــــهْ
وَحَــضْـرَمَـوْتَ أُمَــرَاءٌ غَالِبَهْ

يُــشَــابِـهُــونَ الــعُـمَـرَيْـنِ عَـدْلا
وَوَرَعًـــــا وَثِـــقَــــةً وَفَــضْــلا

مَضَوْا عَلَى نَهْجِ الصَّــوَابِ فَلَهُمْ
حُسْــنُ الثَّنَا مَعَ الرِّضَا مِنْ رَبِّهِمْ

ومِيزَةُ هذا الْمَسْلَكِ أنَّ نظامَ الدِّينِ فيه يُطَبَّقُ على الأُمَّةِ بغير استثناءٍ، فتُقامُ فيه حُدُودُ الله ويُؤْمَرُ فيه بالْمَعْروف ويُنْهَى فيه عن الْمُنْكَرِ، ويُنْصَرُ فيه الْمَظْلُومُ ويُغَاثُ فيه الْمَلْهُوفُ، ويُقْبَضُ فيه على يَدِ الظَّالِمِ، ويُؤْطَرُ فيه على الحَقِّ أَطْرًا، كما تُصَانُ فِيهِ أَرْضُ الإسلامِ وتُحْمَى فيه بَيْضَتُهُ.

❖ ثَانِيهَا: **الشِّرَاءُ**

وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، فَالشُّرَاةُ بَاعُوا نُفُوسَهُمْ للهِ يَبْتَغُونَ رِضْوَانَهُ ﷻ.

وَالشِّرَاءُ إِنَّمَا يَكُونُ في حَالِ عَدَمِ ظُهُورِ كَلِمَةِ أَهْلِ الحَقِّ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ العَدُوُّ مُتَسَلِّطًا عَلَيْهِمْ، يُنْزِلُ بِهِمُ الْمَصَائِبَ وَيَسْعَى إِلَى صَدِّهِمْ عَنِ الهُدَى، وَلا يُبَالِي بِانتهاكِ الحُرَمِ وإضاعة الحقوق ونَهْبِ الأموال، فَتَنْبَرِي طائفةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِمُحَاوَلَةِ الْحَدِّ مِنْ هذا الفساد، لإِقْلاقِ العَدُوِّ ومُحَاوَلَةِ مُبَاغَتَتِهِ تأديبًا له على تصرُّفاته.

وذلك كما وَقَعَ في عهد بني أُمَيَّـةَ عندما وَلِيَ لَهُمْ زِيادُ بن أَبِيهِ، فأَخَـذَ يَتَتَبَّعُ أهلَ الْحَقِّ تقتيلًا وتشـريدًا وتَمْثيلًا، ولَمْ تَسْلَمِ النساءُ مِنْ بَطْشِهِ، فقد أخَذَ البَلْجَاءَ بِنَكِيرِ ظُلْمِهِ، وشَفَى غَلِيلَ نَفْسِهِ بِقَتْلِهَا وتَمْثِيلِها وتَعْرِيَتِهَا مِنْ ثيابِهَا، وكانت ـ رَحِمَهـا اللهُ ـ مثالًا لِرَبَاطَةِ الْجَأْشِ وصَلابـة الْمَوْقِفِ أمـامَ طُغيانه وحِقْـدِهِ، حتى مَضَتْ شـهيدةً إلى رِضْوَانِ اللهِ، فانْبَرَى أهلُ الغَيْرَةِ والشَّـهامة والنَّجْـدَةِ والْمُـروءَةِ وبايعوا **أبَـا بِـلالٍ الْمِرْدَاسَ بنَ حُدَيْرٍ** رَحِمَهُ اللهُ، فَخَرَجَ بِهِمْ آبِيًا أَنْ يَسْتَعْرِضَ الناسَ بالسَّيْفِ إلَّا مَنْ قاتَلَه، وكانوا شَـوْكَةً في جَنْبِ العدو، فَهَزَمُوا ـ وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا ـ أَلْفَيْ مُقَاتِلٍ بآسَـكَ، وكانوا مِثَالًا للصَّلابة وقوة الشَّـكيمة ومَضَاءِ العَزِيْمَـةِ، حتى أَقْلَقُوا زيـادًا وجُنْدَه، ثُـمَّ مَضَوْا في سـبيل الله شُـهداءَ بعد ما سَجَّلُوا بدِمَائهم تاريخَ البُطولة والفِدَاءِ.

بَايَـعَ صَحْـبُهُ عَلَى الشِّـرَا وَمَـا
طَـالَ زَمَانُـهُ إِلَى أَنْ أُكْـرِمَـا
نَالُوا الشَّـهَادَةَ الَّتي قَـدْ طَلَـبُوا
وَبِرِضَـا الرَّحْمَـنِ فِـيها انْقَـلَـبُوا

ولا يكون الشِّرَاءُ عندَ أصحابِنَا إِلَّا بأربعين رَجُلًا، وَلَعلَّهم أَخَذُوا ذلك مِمَّا كان في عهد الرسول ﷺ عندما أسْلَمَ عُمَرُ رضي الله عنه، فَتَمَّ بإسلامِهِ عَدَدُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الرِّجَالِ أرْبَعين، وقد كانوا مِنْ قَبْلُ يَعْبدون الله مُسْتَخْفِينَ في دار الأَرْقَمِ، ولكنَّهم خَرَجُوا بَعْدَ ذلك مُتَحَدِّينَ كِبْرِيَاءَ الجاهلية.

وليس لِمَنْ بايَعَ على الشراء تَرَاجُعٌ إلى أنْ يَلْقَى الله وَحْدَه، لأنه بايع على الْمَوْتِ، ولو بَقِي بنفسه، وقيل إنْ نَقَصُوا عن ثلاثةٍ كانوا في حِلٍّ مِنْ أمْرِهِمْ.

والْمَشْهور في الْمَذْهَبِ: أنَّ الشَّارِي لا تَجُوزُ لَهُ التَّقِيَّةُ، وأجازَها لَهُ الْمُحَقِّقُ الْخَلِيلِيُّ رحمه الله تعالى عند الحاجَةِ إليها، مُعَلِّلًا ذلك بأنَّ ما أوْجَبَهُ على نَفْسِهِ ليس أوْجَبَ مِمَّا أوْجَبَهُ اللهُ عليه.

وهؤلاءِ إنَّما يَخْرُجُونَ مِنَ الأوطانِ، فإنَّهم لا وَطَنَ لَهُمْ إِلَّا حَيْثُ يُشْهِرُونَ سُيوفَهم، فحَيْثُمَا أشْهَرُوا سُيوفَهم أَتَمُّوا صلاتَهُمْ.

❖ ثالثُها: **الدِّفَاعُ**

وهو أنْ يَجْتَمِعَ الْمُسلمون عندَما يُفَاجِئُهُمْ عَدُوُّهم بالانْقِضَاضِ عليهم على مُبَايَعَــةِ أحَدٍ منهم لِيَقُودَهم دِفَاعًا عن دينهم وعن حُرُمَاتِهِمْ، إِلَى أنْ تَنْجَلِيَ الغُمَّةُ وينكشفَ العدوُّ، وتنتهي بذلك بَيْعَتُه.

وهذا كما وَقَعَ لإِخْوانِنَا أهلِ الْمَغْرِبِ؛ عندما كَشَّرَ أبو تَمِيمٍ الفَاطِمِيُّ الْمُلَقَّــبُ بالْمُعِزِّ عن أنْيَابِهِ العُصْلِ فَقَتَــلَ عَالِمَهُــمْ أبــا القاسِــمِ يَزِيدَ بــنَ مخلــد الوِسْــيَانِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فاجْتَمَعَ مَنْ كان حَوْلَه على مبايعة **أبِي خَــزْرٍ الوِسْــيَانِيِّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِمَــامَ دِفَاعٍ لَهُــمْ، يَقُودُ مُجَاهِدِيهِمْ في ســبيل الله حمايةً لدينهم ولِحُقوقهم، ولكنَّ الحَمْلَــةَ التي قادها أبو خَزْرٍ مُنِيَــتْ بالْهَزِيْمَةِ والفَشَلِ، لأنَّها لَمْ يُخَــطَّطْ لَهَا مِنْ قَبْلُ، وإنَّما كانت أمْــرًا ارْتِجَالِيًّا، دَفَعَتْهُمْ إليه الغَيْــرَةُ والْحَمَاسُ كما سَجَّلَتْهُ الْمَصَادِرُ التاريخيّة.

ومِنَ العلمــاءِ مَنْ ذَهَبَ إلــى أنَّ بيعةَ **عبدالله بن وَهْبٍ الرَّاسِبِيِّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ كانت بيعة دفاع، ومِنْ بَيْنِ هؤلاءِ

العلَّامةُ الكِنْدِيُّ شارحُ هذه الْمَنْظُومَةِ ﷺ، وليس ذلك بِشَيْءٍ، فإنَّ أحداثَ البيعة تَدُلُّ على أنَّها كانت بَيْعَةَ ظُهُورٍ، لأنَّهم وَلَّوْهُ أمْرَ الْمُسلمين بعد أنْ أَصْبَحوا لا قائدَ لَهُمْ حين وَقَعَ التحكيمُ واتَّفَقَ الحَكَمَانِ على خَلْعِ الخليفة الشرعي الإمامِ علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ، مع ما تَمَّ من الاتفاق بينه وبين خصمه معاوية بن أبِي سفيان على تَحْكيم ذَيْنِكَ الحَكَمَيْنِ.

❖ رابعُها: **الكِتْمَانُ**

وهو خِلافُ الظهور مَعْنىً وحُكْمًا، وذلك بأنْ يكونَ الْمُسلمون في ضَعْفٍ وتشتُّتٍ، بِحَيْثُ لا يُمْكِنُهم أنْ يَسْلُكوا أيَّ مَسْلَكٍ مِنَ الْمَسَالِكِ الثلاثةِ الْمَذْكُورَةِ مِنْ قَبْلُ، ولا بُدَّ لَهُمْ مِنْ مَرْجِعٍ يَرْجِعُون إليه يَدُلُّهُمْ على الرُّشْدِ ويُذَكِّرهم بالله وباليوم الآخر، ويُصلح ذاتَ بَيْنِهِمْ، ويَقوم بِمَا أمْكَنَهُ من مَصَالِحِهِمْ.

وهذه الحالة التي مَرَّتْ بِهَا الدَّعْوَةُ إبَّانَ نُشُوئِها في **الْمُجْتَمَعِ الْمَكِّيِّ**، فإنَّ أصحابَ النبي ﷺ كانوا

يَلْتَفُّونَ حَوْلَه فـــي كِتْمَانٍ مِنْ أمْرِهِـــمْ، ويَتَلَقَّوْنَ عنه ما يُصْلِحُ دينَهم ودنياهم، ويُنير لَهُــمُ الطريقَ ويُبَيِّنُ لَهُمُ الحقيقةَ.

وقد كان هذا هو مَسْلَكَ الإمام **أبِي الشَّعْـــثَاءِ جابر بن زيـــد** رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ عندما أبْصَرَ ببصـــيرته الثاقبة تَعَذُّرَ انتظـــام أمْرِ الْمُســـلمين في وقتِـــهِ واجتماعِ شَمْلِهِمْ على القيام بإنشـــاءِ نظامٍ إسلاميٍّ يَتَحَدَّى النظامَ القائمَ آنذاكَ.

وعَلَيْـــهِ دَرَجَ تلميـــذُه وخليفتُـــه العمـــلاقُ القائدُ الْمُحَنَّكُ والرَّائدُ الْمُســـدَّدُ **أبو عُبَيْدَةَ مُســـلِمُ بنُ أبِي كَرِيْمَةَ التَّمِيمِيُّ** ـ رِضْوَانُ اللهِ عليه ـ، الذي نَضِجَ في عَهْدِهِ الْجُهْدُ، فآتَت الدَّعوةُ على يديه ثِمَارَها الطيِّـبةَ، إذْ تَمَخَّضَتْ عن ميـــلادِ بَيْعَاتٍ لأئِمَّةِ ظُهُورٍ بارزينَ، فقد بُويِـــعَ لأرْبَعَةٍ مِنْ تلامذته بَيْعَـــةَ ظُهورٍ، فَصَدَقُوا ما عاهَـــدُوا اللهَ عليه إلَـــى أن قَضَوْا نَحْبَهُـــمْ باذِلِينَ أنفُسَهم في سبيل الله، وَهُمْ:

▪ **طالِبُ الْحَقِّ عبدُالله بنُ يَحيى الكِنْدِيُّ،** الذي أظْهَرَ الحقَّ والعَدْلَ بِأَرْضِ اليَمَنِ، وشَمِلَ حُكْمُهُ أَرْضَ الحِجَازِ، وَوَصَلَتْ خَيْلُهُ إلى وادي القرى.

▪ **والجُلَنْدَى بنُ مسعود** الذي بويعَ بِعُمَانَ، فَصَالَ على الباطلِ صَوْلَةَ اللَّيْثِ الْهَصُورِ، وبَذَلَ نفسَه ونفيسَه في طاعة الله ونصرةِ دينه، إلى أن فاضَتْ رُوحُه في سبيل الله.

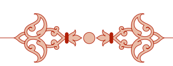
▪ **وأبو الخطَّاب الْمَعَافِرِيُّ** الذي بويع بِطَرَابُلُس الْمَغْرِبِ، فكان مِثَالًا للزهد والورع والتقوى والنَّجْدَةِ والإقدام والعدل والاستقامة.

▪ **وعبدُ الرَّحْمَن بن رُسْتُم الفارسيُّ** الذي بويع بعده بالْمَغْرِب الأوْسَطِ، فأقام دولة الْحَق والإيْمَان والعدل والإنصاف التي سجَّلَ التاريخُ مآثرَها العظيمةَ على صفحاتِ الأمْجَاد الْمُشْرِقة، رحمهم الله جميعًا.

وكثيرًا ما **يَتَوَلَّدُ الظهورُ عن الكِتْمَانِ،** كما حَدَثَ ذلك في عهد النبي ﷺ، فإنَّه ـ بعد تأسيسه لقواعد

الدين وإعدادِه اللَّبِنَاتِ الأولـــى لبناء الأمة الصالحة في عهد الكتمان ـ تَمَخَّضَتْ دعوتُه عن عهدٍ جديدٍ، ظهرَتْ فيــه كلمةُ الْحَق، وعَــزَّ أنصارُهُ بقيــام دولَةِ الإسلامِ على أرضِ طَيْبَةَ ـ طَيَّبَ اللهُ ثراها ـ، إلى أنْ تَمَّ الفتــحُ الْمُبين، ولَــمْ يَقْبِضِ اللهُ عبدَه ورســولَه مُحَمَّــدًا ﷺ إلّا وجزيرةُ العــرب تُظِلُّها سَــمَاءُ تلك الدولة الْمُبَارَكة، ثُمَّ تَوَالَــتْ الفُتُوحُ في عهد خلفائه الراشــدين ﵃ إلى أن طَهَّــرَت الأرضَ من الرِّجْسِ، وحَرَّرَتْهَا من الظلم، وأقامت نظامَ العدل والإنصاف بين العالَمِين، فسَعِدَت الإنسانيةُ بعد شقائها، ونَعِمَتْ بعد بؤسِها، وعَرَفَتْ قيمتَها وقَدْرَها.

وَهَكَذَا أَثْمَــرَ جُهْدُ أَبِــي الشَّــعْثَاءِ جَابِرِ بن زَيْدٍ وَخَلِيفَتِهِ أَبِي عُبَيْــدَةَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمَا مِنْ أَسَــاطِينِ الدَّعْوَةِ وَأَعْلامِ الهُدَى ﵃، إِذْ حَقَّقَ اللهُ أُمْنِيَّاتِهِمْ بِقِيَامِ نِظَامِ العَدْلِ فِي الْمَشْــرِقِ وفي الْمَغْرِبِ مَعًا، وَالحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِــهِ تَتِــمُّ الصَّالِحَاتُ وَتَتَحَقَّــقُ بِفَضْلِهِ الأُمْنِيَّاتُ.



أسئلة:

١. عرف المسالك في اللغة؟

٢. ما هي الغاية من مسالك الدين؟

٣. تعددت مسالك الدين باختلاف حال المسلمين، بين ذلك؟

٤. كم عدد مسالك الدين؟ اذكرها مرتبة؟

٥. ما المراد بالظهور؟

٦. متى كان أسمى عهود الظهور؟

٧. اذكر أمثلة لتطبيق الإباضية لمسلك الظهور باليمن وعُمان والمغرب؟

٨. ما الميزة التي يتميز بها مسلك الظهور؟

٩. من أين أُخذ مسلك الشراء؟

١٠. متى يتخذ المسلمون مسلك الشراء؟

١١. اذكر مثالا من التاريخ على بيعة الشراء؟

١٢. بأي عدد تنعقد بيعة الشراء، وما الدليل على ذلك؟

١٣. هل يجوز للشاري أن يتراجع بعد البيعة؟

١٤. هل تجوز التقية للشاري؟

١٥. أين يُتم الشراة صلاتهم؟ وأين يقصرونها؟

١٦. متى يتخذ المسلمون مسلك الدفاع؟

١٧. اذكر مثالًا من التاريخ على إمامة الدفاع؟

١٨. هل تعد بيعة الإمام عبدالله بن وهب الراسبي بيعة دفاع؟ ولماذا؟

١٩. متى تكون مرحلة الكتمان؟

٢٠. هل مرت الدعوة النبوية بمرحلة الكتمان؟

٢١. اذكر مثالا على مسلك الكتمان في عهد التابعين؟

٢٢. هل يمكن أن تنبع إمامة ظهور من إمامة الكتمان؟

٢٣. من هو الإمام طالب الحق؟ وأين كان حكمه؟

٢٤. من هو أول إمام عماني؟

٢٥. أين تقع طرابلس المغرب اليوم؟ ومن كان أول إمام فيها؟

٢٦. اذكر ما تعرفه عن الدولة الرستمية؟

فَـرْزُ الدِّيـنِ

٣٩. وَفَـرْزُهُ فِي ثَلاثٍ: مُؤْمِـنٍ وَمُـنَا * فِـــقٍ وَصَاحِبِ شِـــرْكٍ جَاحِـدٍ عُذِلا

الفَرْزُ هُــوَ التَّمْيِيزُ والفَصْلُ، والْمُــرَادُ بِهِ هُنَا هُوَ: تَمْيِيــزُ النَّـــاسِ بَعْضِهِمْ مِـــنْ بَعْضٍ، والفَصْـــلُ بَيْنَ أَحْكَامِهِمْ بِحَسَبِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ الدِّينِيَّةِ.

وَهُمْ بِهَذَا الاعْتِبَارِ يَنْقَسِمُونَ إِلَى ثَلاثِ طَوَائِفَ:

❖ أَوَّلُهَا: **الْمُؤْمِنُونَ**

وَقَـــدْ سَـــبَقَ بَيانُ حقيقـــةِ الإِيْمـــانِ ومَعنـــاهُ لُغَةً واصطلاحًا، وتِبْيَانُ صفاتِ المؤمنينَ حَسْـــبَ ما تَدُلُّ عليه النصوصُ القرآنيةُ والأحاديثُ النبويَّةُ الصحيحةُ.

وَتَقَرَّرَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ الإِيْمانَ الْمَطْلُوبَ هو عقيدةٌ رَاسِـــخَةٌ في النفس، تَنْشَـــأُ عنها الأعمـــالُ الصالِحَةُ والأخـــلاقُ الفاضلةُ والأقـــوالُ الصادقـــةُ، وَهُوَ رُوحُ الْحَيَـــاةِ وَمِلاكُها، تَتَحَـــوَّلُ به النفوسُ وتَـــنْقَلِبُ به

الطِّبَاعِ إِلَى أَضْدَادِ ما كانت عليه، كَمَا حَدَث ذَلِكَ لِسَحَرَةِ فِرْعَوْنَ عندما كانوا لا يَعْرِفُونَ قيمةً للحَيَاةِ إِلَّا بِقَدْرِ ما يكسِبُونَه مِنْ مَنَافِعِهَا الْمَادِّيَّةِ، فَلِذَلِكَ قالوا لِفِرْعَوْنَ عندما أَتَوْا لِتَحَدِّي موسى عليه السلام وَدَعْوَتِهِ: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١].

وقد أَدْرَكَ اللَّعِينُ ما تَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ أَفْئِدَتُهُمْ وتَطِيرُ مِنْ أَجْلِهِ أَلْبَابُهُمْ، وَهُوَ ما يُؤْتَوْنَهُ مِنَ الْمَالِ وما يُبَوَّأُونَهُ مِنْ مَقَاعِدِ التَّكْرِيم والزُّلْفَى، فَلِذَلِكَ أضافَ إِلَى ما ذَكَرُوهُ ما لَمْ يَذْكُرُوهُ؛ إِذْ رَدَّ عليهم بقولِه: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢].

ولَكِنْ عندما أَشْرَقَ الإِيْمَانُ على قلوبِهِمْ فأَحْيَا ضَمَائِرَهُمْ وأَنَارَ بَصَائِرَهُمْ تَبَدَّلَتْ نَظْرَتُهُمْ هَذِهِ إِلَى الحَيَاةِ، فَلَمْ يَرَوْا لَهَا قِيمَةً إِلَّا بِقَدْرِ ما يَكُونُ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ بِكَلِمَةِ الحَقِّ ونُصْرَتِهِ، وَلَوْ كان ثَمَنُ ذلك هو الْحَياةَ كُلَّها، فلذلك رَدُّوا عليه بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢].

فما أسْــرَعَ هذا التَّحَوُّلَ مِنَ النَّقِيضِ إِلَى النَّقِيضِ ! وما أعْجَبَ هــذا التَّبَدُّلَ فــي الطِّبَــاعِ والْمَعَايِيرِ والتَّصَوُّرِ! علــى أنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُــنْ تَدَرُّجًا؛ بِحَيْثُ أَخَذَتْ تَنْحَلُّ عُقَدُ تَصَوُّرَاتِهِمُ السَّــابِقَةِ شيئًا فَشَيْئًا، وإِنَّما كان ذلك أمْرًا مُفَاجِئًا فِي نَفْسِ لَحظَاتِ مَوْقِفِ الحِوَارِ، فَمَا الَّذِي جَعَلَهُم يُلْقُونَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كُلَّ ما كانوا عليه مِــنْ قَبْلُ، وَيُوَدِّعُــونَ حَيَاتَهُمُ الأُولَى بِجَمِيع تَصَوُّرَاتِهَا وأفْكَارِهَــا وَمَوَازِينِهَا وَمَعَايِيرِهَا؛ لِيَسْــتَقْبِلُوا حَيَاةً جديدةً تَتَّسِمُ بِخِلافِ ما كانوا عليه مِنْ قَبْــلُ ظاهِرًا وباطنًــا ؟ إِنَّه **الإِيْمَــانُ** الذي حَوَّلَ الطِّبَاعَ غَيْرَ الطِّبَاعِ والأَفْكَارَ غَيْــرَ الأَفْكَارِ والنُّفُوسَ غَيْرَ النُّفُوسِ.

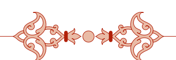
وهكذا كانَ أَثَرُ الإِيْمَانِ فــي نُفُوسِ الرَّعِيلِ الأَوَّلِ الَّذينَ بايعوا رَسُــولَ اللهِ ﷺ بَيْعَةَ الحَقِّ، ونَفَضُوا عَنْ أنفُسِهم كُلَّ ما عَلِقَ بِهَا مِنْ غُبَارِ الْمَاضِي، بَلْ تَطَهَّرُوا بِمَعِينِ الإِيْمَانِ الدَّفَّاقِ ظاهِرًا وباطِنًا مِنْ مَاضِيهِمْ كُلِّهِ، لِيَعُــودُوا كأَنَّمَا أُنْشِــئُوا نَشْــأَةً جَدِيدَةً بِنُفُــوسٍ غَيْرِ

نُفُوسِهِمْ، وَطِبَاعٍ عَكْسَ طِبَاعِهِمْ، وَمَشَاعِرَ تَخْتَلِفُ كُلَّ الاخْتِلافِ عَنْ سَابِقَتِهَا، فَتَآلَفُوا بَعْدَ النُّفْرَةِ، واتَّحَدُوا بعد الفُرْقَةِ، وَصَارَ كُلٌّ مِنْهُمْ يُحِبُّ للآخَرِ ـ الذي كان يومًا مَا خَصْمَهُ اللَّدُودَ ـ ما يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ.

وهكذا شَأْنُ الإِيْمَانِ دائمًا، فإِنَّه يَجْعَلُ الْمُؤْمِنَ يَسْتَعْلِي عَلَى رَغَبَاتِ نَفْسِهِ وضَرُورَاتِ حَيَاتِهِ، لِيَكُونَ هَمُّهُ كُلُّهُ فِي إِرْضَاءِ رَبِّهِ ونُصْرَةِ دِينِهِ والنُّهُوضِ بِأُمَّتِهِ.

ولِلْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ حُقُوقٌ ووَاجِبَاتٌ، أَجْمَلَهَا القُرْآنُ وفَصَّلَتْهَا السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ ـ على صاحِبِها أفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ ـ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]. وهِي عِبَارَةٌ تَشِي بِمَا يَكُونُ بَيْنَ أَهْلِ الإِيْمَانِ مِن اتِّحَادِ الْمَشَاعِرِ وانْسِجَامِ الأَحَاسِيسِ، حَتَّى يُرِيد كُلٌّ منهم لِسَائِرِ إِخْوَانِهِ ما يُرِيدُهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الخَيْرِ.

وهو الذي بيَّنه الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ بقوله: «الْمُؤمن للمؤمن كالبنيان يشد



بعضه بعضًا»[1]، وبقوله: «**لا يؤمن أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه»**[2]، وبقوله: «**ترى المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»**[3]، وذلك قائم على ما يكون بينهم من الصَّفاء والولاية، حتى ينجذب بعضهم إِلَى بعض، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١].

ولأجل الْمُحَافَظة على هذه الصلة وإبقاء هذه الرابطة جاء في حديث رسول الله ﷺ كثير من حقوقها، كالتواصل بالزيارات في الأفراح والأتراح، وشهود الجنائز، وعدم خطبة أحد على

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الآداب، باب: تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا (٦٠٨٦)، ومسلم في كتاب: البر والصلة، باب: تراحم المؤمنين (٢٥٨٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم (٦٠١١)، ومسلم في كتاب: البر والصلة، باب: تلراحم المؤمنين وتعاطفهم (٢٥٨٦).

خطبة أخيه أو المساومة على سَوْمِه، وهي وإنْ لَمْ تنحصر في أهل الاصطفـــاء وَحْدَهُمْ، إلا أنَّها رافِدٌ قوي لِمَا يكـــون بين أهل الاصطفاء من أســـباب المودة والإخاء.

❖ ثانيهما: **الْمُنَافِقون**

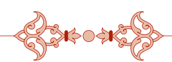
وهم قوم أظهـــروا الإيْمَان بألســـنتهم وباينوه في ســـريرَتِهِمْ أو بأعمالِهِمْ، وَوَصْفُهُمْ بالنفاق يُوحِي بِمَا عندهـــم من التناقض فـــي أحوالهم، وهـــو مُصْطَلَحٌ إســـلامي مَحْضٌ، إذْ لَمْ تكن التسمية بذلك معهودةً عند العـــرب قبل نزول القرآن، وإنَّمـــا مأخَذُها لُغَةً من: نَفِّق اليربوع ونَفِقَ ونَافَـــق؛ إذا خَرَجَ من نافقائه هروبًا من الصائد، وذلك أنَّ للـــيربوع بابَيْنِ: ظاهرًا ويُسَـــمَّى القاصعاء، وخفيًّا ويُسَمَّى النافقاء، فإذا أراد الصائد استخراجَه من قاصعائه ضرب برأسه النافقاء وخرج عنه، وهكذا الْمُنَافِقُ يدخل في الإســـلام من وجه ويَدَعُهُ من آخر.

وهو على ضربين:

▪ نفاق عَقَدِيٌّ: وهو أن يتباين القول والمعتقد، وذلك بأن يدَّعي الإيمان وهو يبطن الإشراك، ومن هذا الصنف المنافقون الذين بكَّتهم القرآن في عهده ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، فقد ادّعوا الإيْمانَ برسالته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مع انطوائهم على معتقدات أهل الكفر والضلال، وإنما جعلوا ما يظهرونه من الإيمان والإسلام جُنَّةً لئلا يُحْكَمَ عليهم بأحكام أهل الشرك والضلال، مع ما كانوا يضمرونه من محاربة الإسلام من الداخل بالدس والوقيعة بين أهله، وتشكيك ضعاف النفوس من المؤمنين في أصول الإيمان ومعتقداته، وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨، ٩]، وقوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

وقد كانوا مع كتمانِهِمْ عقائدهم يَبُوحون بِهَا بغير تَحَفُّظٍ عندما يَخْلُو بعضهم إلى بعض، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، ولَرُبَّما انْفَلَتَ من ألسنتهم عند وحدان المؤمنين ما يدل على دخائلهم، فلذلك كانوا يُمْعِنُون في نفي ما ينسب إليهم من قبل أولئك المؤمنين الذين ينقلون عنهم ما يكون من فلتات ألسنتهم إلى النبي ﷺ وإلى سائر المؤمنين، وذلك بتكرار الأَيْمَان أنَّهم ما قالوا كلمة الكفر وما كان منهم إلا ما يؤكد رسوخ إِيْمَانِهِمْ بالله واليوم الآخر، فلذلك قال تعالى فيهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ٢].

وهذا الصنف تجري عليه أحكام الإسلام ظاهرًا، كالتوارث بينهم وبين المؤمنين، ودفنهم في مقابرهم والصلاة عليهم إذا ماتوا، وإن كانوا في باطنهم مشركين، وإنَّما أعَدَّ الله لهم من الجزاء ما يتلاءم مع



حالهم، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

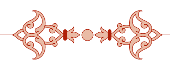
- ونفاق عملي: وهو عدم التزام المرء بواجبات الإسلام فعلًا أو تركًا، وهو وإن كان أهون من سابقه إلا أنه أمر عظيم، لِمَا سبق من أن الإيْمان والإسلام يقتضيان الوفاء بِحُقوقهما ظاهرًا وباطنًا، وهذا الصنف وإن وافق مُعْتَقَدَهُ قَوْلُه إلا أنه مُخَالِفٌ لِمَا يقتضيه الاعتقادُ الْحَقُّ من طاعة رب الوجود والبعد عن معصيته، على أنَّ وَصْفَ هؤلاء بالنفاق إنَّما هو في حال الإصرار على ما يرتكبون، أما التائب من الذنب فكمن لا ذنب له.

ودليل هذا النوع من النفاق ما جاء في حديث رسول الله ﷺ من بيان صفة المنافق، فقد رَوَى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاثٌ: إذا حَدَّث كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا عَاهَدَ غَدَرَ»[1]. وفي روايةِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: علامات المنافق (٣٣)، ومسلم في كتاب: الإيْمان، باب: بيان خصال المنافق (٥٩).

مُسْلِمٍ: «وإِنْ صَامَ وَصَلَّى وزَعَمَ أنه مسلم»[1] بَعْدَ قولِه: «آيةُ المنافق ثلاث». وفي رواية لهما وللترمذي والنسائي مثلُ ما تقدَّمَ، ولكن بإبدال «إذا ائتُمِنَ خان»[2] من قوله: «إذا عاهد غدر». وأخرج النسائي عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «ثلاث مَنْ كُنَّ فيه فهو منافق، إذا حدَّثَ كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وَعَدَ أخلف، فمن كانت فيه واحدة منهن لم تزل فيه خصلة من النفاق حتى يتركها»[3]. وأخرج الشيخان وأصحابُ السنن إلا ابن ماجه عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت به خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَرَ»[4].

(١) هذه الزيادة تقدم تخريجها.
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في علامة المنافق (٢٦٣٢)، والنسائي في كتاب الإيمان، باب: علامة المنافق (٥٠٢٠).
(٣) أخرجه النسائي في كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق (٥٠٣٨).
(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق (٣٤)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق (٥٨).



وفي رواية للنسائي: «إذا وعد أخلف» بدلًا من «إذا ائتمن خان».

وهذا كله دليلٌ على أن النفاق يكون في الأعمال كما يكون في الاعتقاد، وليس ذِكْرُ بعض الخصال في الأحاديث دليلًا على الحصر، وإنما ذلك من باب التمثيل. هذا هو الذي دَرَجَ عليه أصحابنا، ووافقهم عليه جماعة من الْمُحَقِّقين، كالعلامة ابن العَرَبِي المالكي والحافظِ ابن حَجَر العَسْقَلانِي الشافعي، والعَيْنِيِّ الْحَنَفِيِّ، وعَزَاهُ إلى الْخَطَّابِيِّ، ونَسَبَه التِّرْمِذِيُّ في جامعه إلى أهل العلم.

❖ ثالثها: **المشركون**

وهم كلُّ مَنْ رَفَضَ قبول الإسلام ظاهرًا وباطنًا، سواء كان من عبدة الأوثان أو من الملاحدة أو من أهل الكتاب.

ويتحقق الشرك بإنكار كل ما عُلِمَ من الدين بالضرورة من غير تأويل، كإنكار وحدانية الله، أو

إنكار قدسيته عن اتخاذ الصاحبة أو الولد، أو الاتصاف بصفات النقص كالعجز والجهل والحدوث والموت والصمم والعمى، أو إنكار رسولٍ من رسل الله الذين ثبتت رسالتهم بالقطع، أو إنكار كتاب مما أنزل الله، أو حكمٍ قطعي شَرَعَه، أو إنكار اليوم الآخر أو شيء من أوصافه الثابتة بالقطع.

وبِهَذا يتبين دخول كفار أهل الكتاب في المشركين؛ بإنكارهم وحدانية الله سبحانه بنسبة الولد والشريك إليه، وإنكار نبوة نبينا ﷺ ونزول القرآن عليه، ولا معنى لِمَا يقوله البعض ـ وشاع في عصرنا ـ من أنَّهم غير مشركين، لأن الله ﷻ نَسَبَ الإشراك إليهم حيث قال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

ولأن الله تعالى دعاهم إلى الإيْمَان بِمَا أنزله مصدقًا لِمَا معهم، ثم أتْبَعَ ذلك بيانَ عاقبة الإشراك

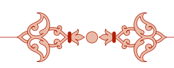
ـ أي إنْ لَمْ يؤمنوا ـ وذلك قولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۝ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٧، ٤٨].

أمَّا مَا جاء من عطف المشركين على أهل الكتاب في نحو قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [البينة: ٦]؛ فهو لأجْلِ أنَّ عَبَدَةَ الأوثان هم أعمق في الإشراك وأبعد في الضلالة، فلذلك غُلِّبَ إطلاقُ وَصْفِ الشرك عليهم، كما غُلِّبَ إطلاقُ وَصْفِ الإيْمان على مُؤْمِنِي هذه الأمة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٢]. ثُمَّ بيّن حُكْمَ مَنْ آمَنَ مِنْ هذه الطوائف جميعًا فقال: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]، لأنَّ إيْمَانَ هذه الأمة أوْسَعُ وأشْمَلُ وأعْمَقُ، لِمَا أكرمها الله به من نزول الكتاب الْمُعْجِزِ عليها فيه تبيان كل شيء.

وبالجملة فإن وصف الشرك إذا أُطْلِقَ شَمِلَ أهل الكتاب وغيرهم، وإذا جاء معطوفًا على أهل كتابٍ كان مقصودًا به سائرُ أصناف المشركين من غيرهم.

ويتفق الْمُشركون جَميعًا في بعض أحكامهم، ومنها أنه لا توارث بينهم وبين الْمُسلمين، ولا يُدفنون في مقابرهم ولا يُصَلَّى عليهم إذا ماتوا، ولا يُحَيَّوْنَ بتحية الإسلام، ولا يُشَمَّت عاطسُهم، ومَنْ مات منهم بين المسلمين ولَمْ يكن هنالك أحد من أهل مِلَّتِهِ فإنَّ على المسلمين دَفْنَهُ فقط بِمَنْأَى عن مَقَابِرِهِمْ مِنْ غَيْرِ غُسْلٍ ولا صَلاةٍ، وإنَّما تُسْتَرُ عَوْرَتُهُ لأَجْلِ حُرُمَاتِ الإنْسَانِيَّةِ. ويَفْتَرِقُونَ في بَعْضِهَا كَمَا سَيَأْتِي شَرْحُهُ ـ إنْ شَاءَ اللهُ ـ في ذِكْرِ أَحْكَامِ الْمِلَلِ السِّتِّ.



أسئلة:

١. ما معنى الفرز في اللغة؟ وما المراد به هنا؟

٢. إلى كم قسم ينقسم الناس حسب دينهم؟

٣. بيّن باختصار أثر الإيمان القويّ في قصة سحرة فرعون؟

٤. اذكر ما أحدثه الإيمان في نفوس الرعيل الأول؟

٥. أجمل القرآن حقوق المؤمن على أخيه، وفصّلتها السنة، بين ذلك؟

٦. ما هي الروافد التي تُقوّي الصلة بين المؤمنين؟

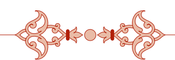
٧. مَن هم المنافقون؟

٨. هل النفاق مصطلح قديم عند العرب؟

٩. اشرح معنى النفاق في اللغة، وعلاقته بالمعنى الاصطلاحي؟

١٠. للنفاق قسمان، اذكرهما؟

١١. من أيّ قسم كان المنافقون الذين فضحهم القرآن على عهد النبي ﷺ ؟



١٢. عدّد بعض صفات المنافقين التي ذكرها القرآن؟

١٣. هل يعامل المنافق بأحكام المسلمين في الدنيا؟

١٤. عرّف النفاق العملي؟

١٥. أيهما أعظم: النفاق العقدي أم العملي؟

١٦. متى يُطلق على المرء وصف النفاق العملي؟

١٧. اذكر الأدلة على أنَّ النفاق يكون في الأعمال؟

١٨. هل خصال النفاق محصورة فيما ذكرته الأحاديث النبوية؟

١٩. مَنْ قال بالنفاق العملي من غير علماء الإباضية؟

٢٠. مَنْ هم المشركون؟

٢١. اذكر بعض الأمور التي يحكم على صاحبها أنَّه مشرك؟

٢٢. هل يدخل كفار أهل الكتاب في المشركين؟ بيّن قولك بالدليل.

٢٣. لماذا عُطف المشركون على أهل الكتاب في القرآن؟

٢٤. اذكر خمسة أحكام دنيوية للمشركين؟

حِـرْزُ الدِّيـنِ

٤٠. وَحِـرْزُهُ أَنْ تُوَالِي مَنْ أَطَاعَ وَتَبْـ * ـــرَا مِنْ مُصِرٍّ وَقِفْ عَنْ كُلِّ مَنْ جُهِلا

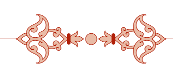
الْحِرْزُ كالحفظ وزنًا ومعنىً.

والمراد بالبيت أنَّ صَوْنَ الدين من الضياع إنما هو بولاية الصالحين والبراءة من المفسدين، والوقوف عمن جُهل أمرُه.

وإنَّما كان حِرْزُ الدين بذلك لما فيه من شدِّ الروابط بين الْمُتَّقين والتناصيح بينهم والتعاون على البر والتقوى، وتَجَنُّبِ جَمِيع أسباب الفساد والانفصال التام عن أهله، فإن الولاية رباط روحي يَشُدُّ الْمُؤمنَ إلى الْمُؤمنِ، حتى لا يُحِبَّ لَهُ إلَّا ما يُحِبُّه لنفسه، ويَحْرِصَ على إصلاحه كحرصه على إصلاح نفسه، ولذلك كانت السمة البارزة على الْمؤمنين الذين يوالِي بعضُهم بعضًا أنَّهم يأمرون بالْمَعْروف وينهون عن الْمُنْكر، مع الالتزام

التام بالواجبات الشــرعية، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [التوبة: ٧١].

فالمؤمن الوَفِيُّ في هذه البيئة الصالِحَةِ يشعر أنه يأوي إلى ركن وثيق، ويتفيأ ظلال الأخوة الخالصة بين المؤمنيــن، يُعينونه على الخيــر ويصونونه من الشر، ويُحافظون على ســلامة دينه ودنياه، والفاجر يشعر أنه منبوذ لا تربطه بِهَذِهِ البيئة الصالحة رابطة، فتَضِيقُ به الأرضُ بِمَا رَحُبَتْ، فإِمَّــا أنْ يَضْطَرَّ إِلَى مُحَاسَبة النفس والعودة إلى حظيرة الحق والالتفاف حول الصالحيــن، وإما أن يبحث عــن بيئة أخرى تلائم هــواه وطباعه، فيَنْقَــى الْمُجْتَمَــعُ من أعماله ويَسْلَمُ من شره.



أسئلـة:

١. ما معنى الحرز في اللغة؟

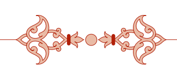
٢. بيّن باختصار المراد بمصطلح (حرز الدين)؟

٣. حرز الدين يكون بثلاثة أمور، اذكرها؟

٤. لماذا كان حرز الدين في هذه الأمور الثلاثة؟

٥. ما هو أثر تطبيق حرز الدين في المجتمع المسلم؟





الوَلايَةُ وَالبَرَاءَةُ

الوَلايَةُ والبَرَاءَةُ على أقسامٍ، لأنَّهُما إمَّا أنْ تكونَا وَلايةَ جُمْلَةٍ وبراءَةَ جُمْلَةٍ، أو ولايةَ أشخاصٍ وبراءَةَ أشخاصٍ، وولايَةُ الأشخاصِ وبراءَةُ الأشخاصِ إمَّا أنْ تكونَا بِحُكْمِ الظَّاهِرِ أو بالحقيقةِ، ولَمْ يَتَعَرَّض الْمُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هُنَا لِبَيانِ أحكام هذه الأقسامِ طَلَبًا للاختصارِ، وتَعْوِيلًا على ما ذَكَرَهُ في سائِرِ مُصَنَّفَاتِهِ وشُرُوحِهِ، وإنَّما ذَكَرَ بعضَ الْمُجْمَلاتِ منَ الأحكامِ، فقال في وَلايَةِ الجُمْلَةِ وبَرَاءَةِ الجُمْلَةِ:

٤١. وَوَالِ في جُمْلَةٍ مَنْ قَدْ أَطَاعَ وَعَا * دِ مَنْ عَصَى جُمْلَةً للهِ مُمْتَثِلا

❖ وَوَلايَةُ الجُمْلَةِ

هي أوَّلُ ما يَجِبُ من صُنُوفِ الوَلايةِ على الإنسانِ، فإنَّها تَجِبُ على كل مُسْلِمٍ عالِمًا كان أو جاهلًا، إذْ يَجِبُ على كلِّ أحَدٍ أنْ يعتقدَ أنَّه يَتَوَلَّى

جَميعَ أوليــاءِ اللهِ مِــنَ الأوَّلينَ والآخِرِيــنَ إلى يومِ الدِّيــن، ويَبَرَأُ مِــنْ جَميعِ أعــداءِ اللهِ مــن الأوَّلينَ والآخِرِينَ إلى يوم الدِّين.

❖ وأمَّا **وَلايةُ الأشْخَاصِ وَبَرَاءَةُ الأَشْخَاصِ**

فَهُمَا إمَّا أنْ تَكُونَا ظاهِرَتَيْنِ أو حَقِيقِيَّتَيْنِ؛

❖ **فوَلايَةُ الظَّاهِرِ**

تَتَرَتَّبُ على ما يَظْهَرُ مِنْ صَلاحِ الإنسان واستقامَتِهِ في أقواله وأفعالِهِ، وكذلك البراءة منه بِحُكْمِ الظَّاهِرِ إنَّما هي مَبْنِيَّةٌ على وُقُوعِهِ في مُخَالَفَةِ الحقِّ قولًا أو عَمَلًا، وإِصْرَارِهِ عليها، وثُبُوتِ ذلك عليه.

وطُرُقُ هذه الوَلايَةِ الظاهِرِيَّةِ ثلاثٌ:

- إمَّا **الْمُعَايَنَةُ**، وهي أنْ يَشْهَدَ الإنْسَانُ الْمُسْلِمُ مِنْ غَيْرِهِ ما يَدُلُّ عَلَى اسْتِقَامَتِهِ مِنْ غَيْرِ خُرُوجٍ عَنْ مَسْلَكِ الحَقِّ قَوْلًا ولا عَمَلًا، مَعَ الْمُسَــارَعَةِ إِلَى التَّوْبَةِ عِنْدَ الزَّلَلِ.

ـ وَإِمَّا **الشُّهْرَةُ**، وذلك بِأَنْ يَشْتَهِرَ الْمَرْءُ بِالصَّلاحِ والاسْتِقَامَةِ حَتَّى تَتَوَاطَأَ الأَلْسُنُ على نَقْلِ ذلك عَنْهُ.

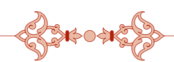
ـ وَإِمَّا **البَيِّنَةُ العَادِلَةُ**، وهي شَهَادَةُ العَدْلَيْنِ، واخْتُلِفَ في شَهَادَةِ الوَاحِدِ.

وأَمَّا **البَرَاءَةُ بِحُكْمِ الظَّاهِرِ** فَتَثْبُتُ بالطُّرُقِ الْمَذْكُورَةِ مع إِضَافَةِ طريقٍ آخَرَ إِلَيْها، وَهِيَ: **الإِقْرَارُ** بارتِكَابِ الكبيرَةِ، سَوَاءً كانت قَوْلًا أو عَمَلًا أو اعْتِقَادًا، والبَيِّنَةُ الَّتي تَثْبُتُ بِهَا البَرَاءَةُ لا تكون إِلَّا بِعَدْلَيْنِ.

ولَئِنْ كانت وَلايَةُ الظَّاهِرِ وَبَرَاءَةُ الظَّاهِرِ مَبْنِيَّتَيْنِ على ما يَظْهَرُ مِنْ صَلاحِ الْمَرْءِ أَوْ عَدَمِهِ؛ فَمِنَ الواجِبِ فيمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا بِصَلاحٍ ولا بِفُجُورٍ: **الوُقُوفُ عنه**، حَتَّى يَثْبُتَ ما يُوجِبُ وَلايَتَهُ أو ما يُوجِبُ البَرَاءَةَ مِنْهُ.

❖ وأَمَّا وَلايَةُ الْحَقِيقَةِ وَبَرَاءَةُ الْحَقِيقَةِ

فلا تَكُونَانِ إِلَّا بِنَصٍّ قَطْعِيٍّ ـ مَتْنًا ودَلالَةً ـ يَدُلُّ على سَعَادَةِ أَحَدٍ بِعَيْنِهِ أَوْ شَقَاوَتِهِ، سَوَاءً ذُكِرَ باسْمِهِ



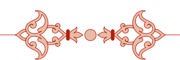
أو بِكُنْيَتِهِ أو بِوَصْفِهِ، كما نَرَى في القرآن الكريم مِنَ النَّصِّ على:

سَعَادَةِ رُسُلِ اللهِ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ، وَسَعَادَةِ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وامْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، والرَّجُلِ الَّذي جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ.

وَشَقَاوَةِ فِرْعَوْنَ وَأَبِي لَهَبٍ وامْرَأَةِ نُوحٍ وامْرَأَةِ لُوطٍ وابْنِ نُوحٍ الذي عَصَى أَمْرَهُ.

ومثل ذلك ما لو ثبت بالتواتر عن النبي ﷺ أن أحدًا بعينه من السعداء أو من الأشقياء، ولا يكفي في هذا كونه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد تولاه أو أثنى عليه أو أخبر بصلاحه أو عكس ذلك، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يتولى ويبرأ بحكم الظاهر فيمن لَمْ يُوحَ إليه فيه بشيء، والدليل على ذلك قوله ﷺ: «وَلَيُذَادَنَّ عن حوضي رجال من أمتي فأنادي أُصَيْحَابِي أُصَيْحَابِي، فيقال لي: لا تدري ماذا أحدثوا بعدك، فأقول فَسُحْقًا فَسُحْقًا»[1]

(١) أخرجه الإمام الربيع، باب في الأمة أمة مُحمد ﷺ (٤٣) من طريق أبي هريرة.

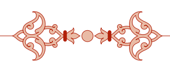


وفي روايــة: «رجالٌ أعْرِفُهم ويعرفوننــي»[1]، وهو دليل على أنه ﷺ كان يتولاهم بِحُكْمِ الظاهر.

والفرق بيــن ولاية الحقيقــة وبراءَتِهــا والولاية والبــراءة بحكم الظاهــر: أنَّ ولايــة الحقيقة وبراءة الحقيقة لا تتبدلان، فالوَلِــيُّ بالحقيقة يظل وليًا ولو ارتكب ما ارتكب من الْمَحْجُــورات، وإن ارتدَّ عن إســلامه، لأن خبر الله لا يتبدل، وكذلك ما أخبر به المعصوم عن الله ســبحانه، وإِنَّمــا تُنَفَّذُ فيه الأحكام الدنيويــة المترتبــة على أعمالــه، كإقامــة الحدود وغيرها، مع الاعتقاد الجــازم أنَّ مِيتَتَهُ لا تكون إلا مقرونة بخاتمة حســنة، ســواء ظهرت لنا أو خفيت علينا، وكذلك البــراءة بالحقيقة تظل ملازمة للمتبرأ منه، ولو بدا من أقواله وأعماله أنــه أَبَرُّ أهلِ زمانه، لليقين الجازم أنه لنْ يَمُوت إلا شقيًا.

وأما الولايــة والبــراءة بحكم الظاهــر فتتبدلان باختلاف حال الشخص الْمُتَوَلَّى أو المتبرأ منه، فإذا

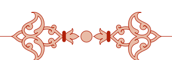
(١) أخرجه البخاري باب في الحوض (٦٢١٢) من طريق سهل بن سعد.



استقام الفاجر وثبتت عند من كان يتبرأ منه توبته وجبت عليه ولايته، وكذلك العكس.

وليس في الجملة ولا في الحقيقة وقوف، لأن ولايتهما وبراءتهما لا تكونان إلا حسب ما في علم الله تعالى، والله لا تخفى عليه خافية، وإنما يجب الوقوف في الظاهر عمن لم يعرف منه موجب ولاية ولا براءة، لأن أحكام الظاهر مَنُوطَةٌ بِمَا يبدو من حال الإنسان، ومَنْ خَفِيَ أمرُه فالوقوف هو الواجب في حقه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ [الإسراء: ٣٦].

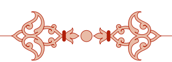
وعند التحقيق ينكشف أن ولاية الجملة وبراءَتَها حكمها حكم الحقيقة، إذ هما أيضًا لا تتبدلان بتبدل أحوال المرء، لأنهما حسب حال المرء عند الله، وإن كانت ولاية الحقيقة وبراءتها المشهورتان في أشخاصٍ وهاتان في غيرِ مُعَيَّنِينَ، ويظهر ذلك في كون ولي الحقيقة لا يمكن أن يكون عدوًا في الجملة وكذا العكس، أما الولي بحكم الظاهر فقد



يكون عدوًا في الجملة وكـذا العكس، لاحتمال أن يكون أمره عند الله بخلاف ما يبدو من حاله للناس.

هذا ولا خلاف فـي أن على الإنسـان أن يتولى جَمِيع أوليـاء الله مـن الأولين والآخريـن إلى يوم الدين، كذلك أن يبرأ من جميع أعدائه، وإنَّما الخلاف في ولاية الأشخاص وبراءَتِهم، فذَهَبَ إِلَى وجوبِهِمَا أصحابُنا بغير خلاف، ووافقهم عليهما بعض أصحاب المذاهب الأخرى، وخالفهم آخرون، والدليل عليهما واضح، فـإن الله أوجب علـى المؤمنيـن أن يتولَّى بعضهم بعضًا حيث قال: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ [التوبة: ٧١]، وهؤلاء هم الْمُوَفُّون بدين الله، بدليل قوله في الآية نفسـها: ﴿ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [التوبة: ٧١].

وما ذكره مـن أوصاف المؤمنين فـي آيتي الأنفال والمؤمنـون، وقال تعالـى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥].



وقال النبي ﷺ: «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

لا يقال: إن هذا الواجب إِنَّما هو في جملة المؤمنين لا في أفرادهم، فلا دليل فيه على ولاية الأشخاص؛ **لأنا نقول**: إن الوصفَ الْمُجْمَلَ لا بد من أن ينطبق على الأشخاص، فصفة الإيمان والالتزام بِمُقتضياته ليست أمرا مثاليًا لا يلمسه الإنسان في حياة إخوانه المؤمنين، وإنما هو أمر واقعي يتجسد في حياة المتقين، فمن وُجِدَ فيه وَجَبَتْ على الكل ولايته.

على أن هذه الولاية ليست فيضًا من مشاعر الرحمة والود فحسب، بل هي تتجسد في الأعمال والأقوال أيضًا، كالمناصرة والدعاء بالرحمة، ولذلك كانت رابطة بين المؤمنين تجمع شتاتهم وتنتظم أفرادهم، حتى تكون جماعتهم ظاهرًا أمرُها، متمكنةً من رقاب أعدائها، كما يوحي به قوله ﷻ:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

ومما يؤكد ذلك أن الله سبحانه فرض على عباده المهاجرين والأنصار الذين ربطتهم رابطة الإيمان وانتظمتهم نصرةُ الله ورسوله والجهاد في سبيله بأموالهم وأنفسهم أن يتولى بعضهم بعضًا، ولم يجعل نصيبًا من هذه الولاية لمن لم يهاجر من المؤمنين، إلا في نصرته إن استنصر على من لم يكن بينه وبينهم ميثاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

ثم إنه سبحانه بيّن انحصار ولاء الكفار بعضهم لبعض، حيث قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣]، ومعنى ذلك أنه لا يتولاهم إلا من

كان مثلهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١]، وأتبع ذلك ما يترتب على ترك المؤمنين لهذا الواجب حيث قال: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣].

أما البراءة من الأشخاص فدليلها قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾، إلى أن قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ [الممتحنة: ٤-٦]، ومن المعلوم أن براءة إبراهيم ومن معه إنما كانت من أشخاص بأعيانهم، ومن بينهم أبو إبراهيم، وقد أوجب الله على المؤمنين التأسي بهم، حيث قال أولًا: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾.

ومفهوم ذلك أنَّ مَنْ لَمْ تكن له هذه الأسوة فليس هو مِمَّنْ يرجو الله واليوم الآخر، وزاد ذلك تأكيدًا

قولُهُ: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾، فإن مثل هذا القول لا يَخْرُجُ إلا مَخْــرَجَ التهديد لِمَنْ أعرض عن الاتباع.

فإن قيــل: إنَّ إبراهيمَ وَمَنْ مَعَه تبــرأوا من القوم المشــركين؛ فلا يقوم من هذا دليل على البراءة من أصحاب الكبائر دون الشرك، كقتل النفس بغير حقٍّ والزنا وأكل الربا وسائر أنواع الظلم والفسوق.

قلنا: إنَّ هذه كبائر تَوَعَّــدَ الله عليها، وقد جاء في كتابه وفي سنة نبيه ﷺ ما يدل على استحقاق فاعلها سَــخَطَ الله ووعيــدَه، ولا شــك أنَّ الإقــدامَ عليها والإصرارَ علــى مُقَارفتهــا عصيانٌ لأمــر الله تعالى وفســوقٌ عن دينه، وقد أَخْبَرَ ســبحانه في كتابه أنه حَبَّبَ إلى عباده المؤمنين الإيْمانَ وكَرَّهَ إليهم الكفرَ والفُسُــوقَ والعصيانَ، وذلك قولُه: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجــرات: ٧]. ومِــنْ شأنِ كراهةِ الفعلِ كراهةُ فاعله.

ويؤكِّد ذلك ما جاء على لسان رسول الله ﷺ مِمَّا يدل على براءته مِمَّنْ فَعَلَ الكبائر دون الشرك، كقولِهِ: «مَنْ غَشَّنا فليس منا»[1]، وقولِهِ: «ليس مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجاهلية»[2]. ومِثْلُهُ ما جاء على لسانه مِنْ لَعْنِهِ مَنْ أَتَى بعض الكبائر، كَلَعْنِهِ الْمُتشبِّهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال[3]، كما في حديث ابن عباس عند البخاري، وكقولِهِ: «لَعَنَ اللهُ الرِّبا وآكلَه ومؤكلَه وكاتبَه وشاهِديه»[4]، وقولِهِ: «لَعَنَ اللّٰهُ الْمُحَلِّلَ والْمُحَلَّلَ لَهُ»[5].

(١) أخرجه الإمام الربيع في كتاب: البيوع، باب: في الربا والانفساخ والغش (٥٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: ما ينهى عن دعوى الجاهلية (٣٥١٩)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية.

(٣) **لَعْن الرسول ﷺ الْمُتشبِّهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال**: أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: المتشبهون بالنساء والمتشبهات بالرجال (٥٨٨٥) من طريق ابن عباس.

(٤) أخرجه أبو داوود في كتابك البيوع، باب: في آكل الربا ومؤكله (٣٣٣٣)، والترمذي في كتاب: البيوع، بابك ما جاء في أكل الربا (١٢٠٦).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في التحليل(٢٠٧٦)، والترمذي في كتابك النكاح، باب: ما جاء في المحلل والمحلل له (١١١٩).

فلا رَيْبَ في كونِه ﷺ بريئًا من هذه الأعمال وفاعلها، وللمؤمنين فيه أسوةٌ حسنةٌ، قال تعالَى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١].

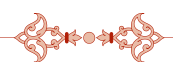
ثُمَّ إنَّ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشارَ إلى **وَلاية الحقيقة وبراءَتِهَا** بقولِهِ:

٤٢. وَكُلُّ مَنْ عَصَمَ الْمَوْلَى وَلايَتُهُ
فَرْضٌ كَعُدْوَانِ مَنْ إِيَّاهُ قَدْ خَذَلا

ويعني به أن ولاية الحقيقة فريضة على المؤمن لكل من عصمه الله من الهلاك، سواء كانت هذه العصمة **عصمة من الوقوع في الأعمال المهلكة** كعصمة الملائكة، الذين قال الله فيهم: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال فيهم: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وقال فيهم أيضًا: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وَمِثْلُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ، فَقَدْ أَثْنَى اللهُ عليهم في كِتَابِهِ وَوَصَفَهُمْ بأنَّهم مِنْ عِبَادِهِ الْمُخْلَصِينَ، وأنَّهم مِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ، مَعَ مَا جَاءَ في كتابِهِ مِنْ قَوْلِهِ لإِبْلِيسَ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وهؤلاء هم من أخص عباده، فلا سلطان للشيطان عليهم، وأما ما كان من عتاب الله لبعضهم وذكر اعترافهم بذنوبِهِمْ ونسبة العصيان إليهم فإنَّما ذلك لعلو قدرهم، فالصغير في حق غيرهم كبير في حقهم، وقد قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، فما بالك بالمرسلين الذين هم أشد قربًا وأقرب مَنْزِلَةً وأجلُّ قدرًا؟ وعلى أي حال فهم لا يُقَرُّون على باطل ولا يُصِرُّون على ما فعلوا، وإِنَّما تتجدد توبتهم إلى الله في كل حين.

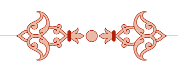
أو كانت **عِصْمَةً من الموت على ما يسخط الله** من المعتقد الباطل أو العمل الفاسد أو القول المنكر، كما هو شأن الذين كتب الله لهم النجاة من الرَّدى، فأنقذهم من الضلال إلى الهدى، وأخرجهم



من الظلمات إلى النور، وباعدهم من الغي والفساد، ومن هؤلاء من كان من قبل على ملة الإشـــراك بالله فأنقذه الله منها كسحرة فرعون.

وبالجملة فإن كل مـــن ثبتت عصمته من الهلاك بالدليل القطعي أو ثبت رضـــى الله تعالى عنهم أو أنهم مـــن أوليائـــه وأصفيائـــه، أو أنهم مـــن حزبه المقربيـــن؛ فهم أوليـــاء بالحقيقة ســـواءً كانوا غير معيّنين بأشـــخاصهم كعموم الملائكة وجلة الأنبياء والمرسلين، أو كانوا معيّنين كالمنصوص عنهم من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، ومثل ذلك امرأة فرعون ومريم ابنـــة عمران والرجل الذي جاء من أقصـــى المدينة وهو يســـعى آمرًا قومـــه باتباع المرسلين.

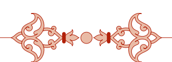
ويقابل هذه الولاية ما يجب من براءة الحقيقة من كل مَن ثبت خذلان الله تعالى لَهُ وسَخَطُه عليه، وأنه من أهـــل العذاب، ســـواءً كانـــوا غيـــر مَحْصُورين كالشـــياطين وأوليائهـــم الذيـــن ماتوا علـــى كفرهم



وفسقهم، أو كانوا مذكورين بأسْمَائهم كفرعون وقارون وهامان، وبنُعوتِهم وأوصافهم كأصحاب الأخدود والذي آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، وكذلك امرأة نوح وامرأة لوط، أو بالكنى كأبي لهب، وقد سَبَقَ بيانُ هذا القسم من الولاية والبراءة كسائر الأقسام مع بيان طائفة مِمَّا يتعلق به من الأحكام.

٤٣. وَكُنْ مُوَالٍ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ حَوَتْهُ طَاعَتُهُ إِلا الَّذِي انْخَزَلا

يعني أنَّ مِنَ الواجب على المسلمين أن يوالوا إمامهم الشرعي الذي اختير للإمامة وبويع بيعة شرعية من قبل أهل الحل والعقد من المسلمين، والتزم العمل بكتاب الله وسنة رسوله ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، فإن ولايته واجبة على الأمة كطاعته، ما لَمْ يُحْدِثْ حدثًا ينقض هذه الولاية ويسقط طاعته عن رقاب العباد، لأن طاعته وولايته كليهما مرهونان بطاعته هو لربه ووفائه بعهده،



والتزامه ما التزمه من القيام بأمر المسلمين وفق نظام الحق وطبق معايير العدل.

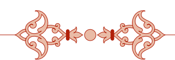
فإن حاد عن ذلك كان كغيره في وجوب إنزاله حَيْثُ أنزلَ نفسه، فتجب استتابته، فإن تاب قُبِلَتْ توبَتُه واستمرَّتْ ولايَتُه وبقيت إمامته، إلا أن يكون الحدث الذي ارتكبه موجبًا لإقامة حدٍ عليه، فهنا يجب على جماعة المسلمين بعد ثبوت ذلك الحدث عليه أن يخلعوا طوق الإمامة عن رقبته، ويَخْتاروا مِنَ الْمُسلمين مَنْ يتولَّى هذا الْمَنْصِبَ فيقيم عليه الْحَدَّ الواجب، لأنه وغيره في حدود الله سواء، فإن تاب قبلت توبته، ولكنه يظل غير أهل للإمامة، وقيل بل على جماعة المسلمين إقامة الحد عليه واستتابته، فإن تاب قبلت توبته وعادت إليه الولاية واستمرت إمامته فيهم.

والقول الأول هو الأرجح، نظرًا لِمَا لِمَنْصِبِ الإمامة من قدر، ولا ريب أن ارتكاب الإمام موجب الحد وظهور ذلك بين الناس حيث أنزل به ما يستحقه

من العقاب يَجْعَلُه عُرْضَةً لسـخرية الساخرين وتَنَدُّرِ سـفهاء الناس، فلا تبقى له في نفوسهم هيبة، وذلك منافٍ لِمَـا يَجِبُ أن يكـون عليه الإمام مـن الهيبة والوقار وتقدير عامة الناس وخاصتهم له، فبِدُونِ ذلك ينحَلُّ النظام وتعم الفوضى.

وإن كان ما أتاه من حدث لم يطلع عليه إلا أحد بعينه من المسلمين؛ كان على ذلك أن يصارحه بِمَا اطلع عليه، وأن يطلب منـه التوبة إلى الله والرجوع إلى الحق، فإن تاب قَبِلَ منه، وإن أصرَّ تَبَرَّأَ منه سرًّا، لئلا يبيح البراءة من نفسه، وأبقى له الطاعة فيما إذا لم يأمره بِمَعْصِيَةِ الله تعالى، حفاظًا على وحدة الأمة واستقامة أمرها.

وقولُه: «**ومن حوته طاعته**» يعني وجوب ولاية من كان من رعايا إمام المسـلمين مُنْقادًا لِحُكْمِهِ مُذْعِنًـا لطاعتـه، لَمْ تَبْـدُرْ منه بادرة سـوء، ولَمْ يُخَالِفْ شـرع الله تعالى، لأن من كان كذلك فهو



من أهل الاصطفاء، لأن سيرته تُرْتَضَى وقد نَهَجَ منهج الحق.

فإن قيل: ما وجه تخصيص من كان من رعايا إمام المسلمين بِهَذا الحكم، مع أن الولاية حق لكل من استقام على الطريقة ولو كان من رعايا الجبارين؟

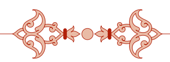
قلنا: هذه هي ولاية بَيْضَةِ المسلمين، لأن الأصل في جماعة المسلمين ـ مع اسْتِتْبَاب الحكم الشرعي وإقامة حدوده، وتنفيذ الأحكام على القوي والضعيف ـ أن تكون أحوال المسلمين في إطار دولتهم على نَهْجِ الاستقامة، إلا مَنْ بَدَرَتْ منه بادرة سوء فظهرت مُخَالَفتُه لأحكام الدين أو تَمَرُّدُه على إمام المسلمين، فالواجب في حقه ما هو حقيق بأمثاله من البراءة والإبعاد عن هذا التكريم، لأنه انْخَزَلَ ـ أي انقطع ـ عن ركب جماعة المسلمين، وهو معنى استثناء المصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى حيث قال: «**إلا الذي انْخَزَلا**».

٤٤. وَعَـــادِ في الدِّينِ جَـبَّارًا وَعَامِلَـهُ
وَمَنْ لَـــهُ في سَبِيلِ الْمُكْـــفِرَاتِ تَلا

٤٥. لا كُلَّ مَنْ قَدْ حَوَى سُلْطَانُ عِزَّتِـهِ
إِذْ قَـــدْ يَكُونُ هُـــنَاكَ مُؤْمِـــنٌ دَخَلا

كما تجب ولاية الإمام العادل تجب البراءة من ضده وهو الإمام الجائر، لفساده وجوره، وكذا كل من شدَّ أَزْرَهُ وأعانه على بطشه وظلمه، وهو المراد بـ «**عامله**».

ولكن لا ينطبق هـــذا الحكم على جميع الذين شَـــمِلهم حكمه وكانـــوا لـــه رعية، فقـــد يضطر الصالِحُـــون إلـــى العيـــش تحت نير أهـــل الظلم والاستبداد، كما كان ذلك في عهد بني أمية، فكم من صالِـــحٍ اضطرته الأقـــدار إلـــى العيش تحت سلطتهم، وإلى اتقاء بطشهم وظلمهم، وناهِـــيكَ بِمَـــنْ كان تَحْـــتَ وطأتِهِـــمْ مِنْ خيـــار الصحابة والتابعيـــن، كعبدالله بن عُمَـــرَ وعبدالله بن عباس



وأنس بن مالك وجابر بن زيد وجعفر بن السَّمَّاك وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وضُمام بن السائب وأبي الحُرِّ علي بن الحصين وأبي نوح صالح الدهان وغيرهم من أهل البر والصلاح والتقوى، كما وُجِدَ ذلك في الأمم السابقة كامرأة فرعون ومؤمن آل فرعون، فلا يَضِيرُ أحدًا في دينه أن تَعْلُوَهُ يَدُ جَبَّارٍ مفسدٍ مع استقامته على الحق وعدم تفريطه فيما بينه وبين ربه.

والمراد بولاية الإمام العدل والبراءة من إمام الجور: إمامُ الزمان، فإن على المسلم أن يكون عالِمًا بِحَال إمام زمانه، ليطيعه إن كان من أهل الطاعة، ويَحْذَرَهُ إن كان من أهل الجور، وكذلك تجب ولاية من اشتهر بالصلاح والعدل والتقوى من الأئمة الغابرين والبراءة من أضدادهم.

٤٦. ثُمَّ الوَلايَةُ تَوْحِيدًا تَكُونُ وَأُخْـ * ـرَى طَاعَةً فُرِضَتْ إِنْ شَرْطُهَا حَصَلا

٤٧. كَذَا البَرَاءَةُ، وَالشَّرْطُ الَّذِي وَجَبَتْ * بِهِ الوَلايَةُ: أَنْ تُلْفِيهِ مُمْتَثِلا

يعني أن الولاية تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون مقرونًا بتوحيد الله تعالى، لأنه مِمَّا يندرج في الاعتقاد، ومنها ما يكون من ضمن الطاعات، لأنه مِمَّا يندرج في الأعمال، وكذلك البراءة.

فولاية الجملة وبراءة الجملة داخلتان في الاعتقاد المفروض على العباد، وكذلك ولاية الحقيقة وبراءة الحقيقة، لأنهما لا تَجِبَان إلا بنصّ قطعي، فتركهما إنكار للنص وإعراض عنه، ولذلك يكفر كفر شرك من أنكر ولاية الجملة وبراءتها، أو ولاية الحقيقة وبراءتها.

وذلك بِخِلاف ولاية الظاهر وبراءته، فمن أنكرهما فهو فاسق، وكُفْرُهُ كفرُ نعمة لا يخرجه من

ملة الإســـلام، والإتيانُ بِهِمَا مــن الطاعات العملية، وتركهما من المعاصي، وقد سبق أن الولاية مشروطة بامتثال مَــنْ تتولاه أمْرَ الله تعالى فعــلًا وتركًا، وهو معنى قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: «**والشرط الذي وجبت به الولاية أن تلفيه مُمْتَثلا**».

٤٨. وَرَبُّـنَا لَمْ يَـزَلْ لِلْمُؤْمِـنِينَ وَلِيْـ * ـــيًا هَـــكَذَا وَعَـــدُوًّا لِلَّذِي نَصَـــلا

٤٩. وَهَكَذَا أَبَـدًا لَيْسَ الزَّمَانُ وَلا الْـ * أَفْعَالُ تَقْــدَحُ فِيهِ، خُــذْهُ مُنْــتَحِلا

يعني أن ولايـــة الله لأوليائـــه وعداوته لأعدائه أَزَلِيَّتـــانِ لا تتبـــدلان بتغير الأحـــوال ولا بتقلب الأزمان، فإن الله لَمْ يَزَلْ عليمًا بأحوال عباده، وما سـيؤول إليــه أمــر كل أحــد منهم مــن صلاح الصالحين ورشـــد الراشدين، أو فســاد المفسدين وضلال الغاوين.

فهو تعالى **وَلِـيٌّ** لأوليائه الذيــن علم انقلاب

أمرهم إلى الصلاح والتقوى، وإن كانوا قبل ذلك على فجور وضلال كسحرة فرعون، فإنَّهم أولياء لله ﷻ حتى حين عتوهم في الكفر، عندما انبروا لِمُغَالَبَةِ موسى عليه السلام رغبةً في إزهاق الحق الذي جاء به، وهو عَدُوٌّ لأعدائه الذين علم أنهم سينقلبون إلى الفساد والغي، حتى في حين عبادَتِهم له وامتثالهم أوامره، كإبليس فإنه عدو لله قبل طرده، كما أنه عدُوٌّ له بعد طرده، ولَم تُغْنِ عنه من الله عبادتُه شيئًا، وكالذي آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، فهو عدو لله قبل تَلَبُّسِهِ بِهذه الضلالة، كما أنه عَدُوٌّ له بعدها.

وبِهَذا يتبين أن ولاية الله لعباده أزلية أبدية، وكذا عداوته للمجرمين، لا يؤثر عليهما ما يحدث منهم من أفعال الخير أو الشر، لأن خاتِمَةَ كل منهم معلومة له تعالى، وبِحَسَبِهَا كانت ولايته لمن تولاه وعداوته لمن عاداه.

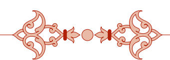
٥٠. لَكِنَّنَا قَدْ تُعُبِّدْنَا بِطَاعَتِهِ فَكُلُّنَا عَامِلٌ بِمَا لَهُ جُعِلا

يعني أن الله ﷻ تعبدنا بطاعته، مع علمه سبحانه بِمَصير كل منا، وولايته لمن صلح وبراءته من المفسدين، وما منا إلا هو **عامل بِمَا جُعِلَ له** ـ أي خُلِقَ ـ كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ عندما قيل له: أفلا نَتَّكِل ؟ فقال: «**اِعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[١]، ذلك لأن صلاح مَنْ صلحَ وفسادَ مَنْ فَسَدَ لَمْ يكن إلا بِمَا اختاره لنفسه، نسأل الله تعالى العافية في الدارين.

٥١. مَعْنَى مُوَالٍ مُعَادٍ: عَالِمٌ بِهِمُ وَبِالَّذِي فَعَلُوهُ الجِدَّ وَالْهَزَلا

هذا بيانٌ لمعنى ولاية الله تعالى لأوليائه وعداوته لأعدائه، فإنَّهما راجعتان إلى علمه بخاتِمَةِ كل منهم

(١) رواه البخاري باب قوله: (فأما من أعطى واتقى) رقم (٤٦٦١)، ومسلم باب: في كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابه رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٧).



ومآلِه في الآخرة، وعليه فهما صفتا ذات، وقيل المراد بولايته: توفيقه للصالحين منهم؛ وببراءته: خذلانه للمجرمين، وعليه فهما صفتا فعل.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وبالذي فعلوه الجدّ والهزلا**» مُرَادُهُ: الذي يفعلونه، وإِنَّما عَبَّرَ بالماضي عن المضارع لأجل تحقق مضمونه، فإن ما علم الله وقوعه لا بد منه.

والْجِدُّ والْهَزْلُ معروفان، وهُمَا ضِدّان، وهُمَا هنا بيانٌ لِمَا أجْمَلَهُ الضمير المنصوب في فعلوه، ولذلك كان الجد بدلًا منه والهزل معطوفًا عليه.

أسئلـة:

١. عدّد أقسام الولاية والبراءة إجمالا؟

٢. ما هو أول قسم يجب على الإنسان من تلك الأقسام؟

٣. وضّح معنى ولاية الجملة وبراءة الجملة؟

٤. تنقسم ولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص إلى قسمَين، اذكرهما؟

٥. ما المقصود بولاية الظاهر وبراءة الظاهر؟

٦. كيف تثبت الولاية الظاهرية؟

٧. هل هناك فرق بين طرق الولاية والبراءة بحكم الظاهر؟

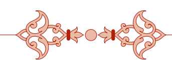
٨. ما حُكم مَنْ لم نعرفه بصلاح أو فجور؟

٩. مِنْ أين تثبت ولاية الحقيقة وبراءة الحقيقة؟

١٠. هل كان النبي ﷺ يتولّى ويبرأ بحكم الظاهر؟ وما الدليل؟

١١. ما الفرق بين ولاية الحقيقة وبراءتها والولاية والبراءة بحكم الظاهر؟

١٢. في أيّ أقسام الولاية والبراءة يكون الوقوف؟



١٣. فيمَ تتفق ولاية الجملة وبراءتها وولاية الحقيقة وبراءتها، وفيمَ يختلفان؟

١٤. هل يمكن أن يكون وليّ الحقيقة عدوًا في الجملة أو العكس؟

١٥. هل يمكن أن يكون الوليّ بحكم الظاهر عدوًا في الجملة أو العكس؟ ولماذا؟

١٦. هل اتفق العلماء على وجوب ولاية الجملة وبراءتها؟

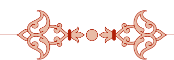
١٧. بيّن خلاف العلماء في وجوب ولاية الأشخاص وبراءتهم؟

١٨. اذكر الأدلة من القرآن والسنة على وجوب ولاية الأشخاص وبراءتهم؟ وبيّن وجه الدلالة منها؟

١٩. مِنْ أدلة وجوب ولاية الأشخاص ما جاء في سورة الأنفال في حديثها عن المهاجرين والأنصار وعن الكفار، اذكر تلك الآيات وبين دلالتها على ذلك؟

٢٠. ما هو الدليل على وجوب براءة الأشخاص؟

٢١. هل تجب البراءة من أصحاب الكبائر دون الشرك؟ وما الدليل؟



٢٢. ما هي القاعدة فيمن تجب له ولاية الحقيقة؟

٢٣. بيّن الأدلة على عصمة الملائكة؟

٢٤. هل جميع الأنبياء والرسل معصومون؟ ولماذا عاتب الله بعضهم ونسبه إلى العصيان؟

٢٥. اذكر أمثلة لمن تجب ولايتهم بالحقيقة؟

٢٦. ما هي القاعدة فيمن تجب منهم براءة الحقيقة؟

٢٧. اذكر أمثلة لمن نتبرأ منهم براءة الحقيقة؟

٢٨. هل يجب على المسلمين أن يتولوا إمامهم الشرعي؟

٢٩. مَنْ هو الإمام الذي تجب ولايته وطاعته؟

٣٠. ماذا يجب على المسلمين تجاه إمامهم إذا أحدث حدثا لا يُوجب حدًّا؟

٣١. إذا فعل الإمام ما يوجب الحد، وعلم المسلمون عنه ذلك؛ فماذا يجب عليهم؟

٣٢. هل يعود الإمام إلى منصبه بعد توبته وإقامة الحد عليه؟ بيّن قولك بالدليل.

٣٣. ماذا يجب على من اطلع على حدث للإمام، ولم يشاركه أحد في معرفة ذلك؟

٣٤. هل تجب ولاية جميع رعايا الإمام الشرعي؟

٣٥. ما معنى ولاية بيضة المسلمين؟

٣٦. بيّن حكم البراءة من الإمام الجائر؟

٣٧. هل تجب البراءة من جميع رعايا الحاكم الجائر؟

٣٨. اذكر بعض خيار الصحابة والتابعين الذين عاشوا تحت حكم أئمة الجور؟

٣٩. لقد حكى القرآن الكريم عن بعض الصالحين من رعية فرعون، اذكر الآيات الدالة على ذلك؟

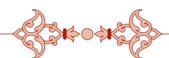
٤٠. هل على المسلم أن يكون عالما بحال حاكم زمانه، ولماذا؟

٤١. الولاية والبراءة تكونان إما توحيدا وإما طاعة، ما معنى ذلك؟

٤٢. ما حكم من أنكر ولاية الجملة وبراءتها، أو ولاية الحقيقة وبراءتها؟ علّل إجابتك.

٤٣. ما حكم مَنْ أنكر ولاية الظاهر وبراءتها؟

٤٤. ما معنى قول الناظم: (والشرط الذي وجبت به الولاية أن تلفيه ممتثلا)؟



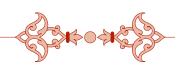
٤٥. ما معنى أنَّ ولاية الله لأوليائه وعداوته لأعدائه أزليتان أبديتان؟

٤٦. هل كان سحرة فرعون أولياء لله قبل إيمانهم؟ علّل إجابتك.

٤٧. هل كان إبليس وليا لله قبل أن يطرده الله؟ بيّن السبب.

٤٨. هل للإنسان أن يتكل على علم الله بمصيره ويضيع العمل؟

٤٩. ما معنى ولاية الله لأوليائه وبراءته من أعداءته إذا قلنا إنهما صفتا ذات، وما معناهما إن قلنا إنهما صفتا فعل؟



ذِكْرُ الكُفْرِ وَمَا يَشْتَمِلُ عَليْه

الكُفْـرُ لُغَةً: هــو التغطية، ولذلك سُــمِّيَ الزارعُ كافرًا، لأنــه يُغطّي البَــذْرَ بإلقاء التــراب عليه؛ قال تعالى: ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠]. ومِنْ شواهدِهِ قولُ الشاعر:

* أَلْقَتْ ذُكَـاءُ يَمِينَهَا فِي كَافِرِ *

يعني به غروبَ الشمس، فـ «ذُكَاءُ» هي الشمس، وإلقاؤُها يَمِينَها في كافرٍ: كنايةٌ عن اسْتِتَارها وراء الأفق في الغروب. ومنه قولُ لَبِيدٍ:

يَعْلُو طَرِيقَةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِرًا
فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا

وهو في الاصطلاح كُفْرَانِ: كفرٌ باللهِ وكفرٌ بنعمته.

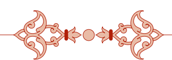
❖ **فالكُفْرُ بالله:**

هو الإشراكُ به سبحانه، وهو مُخْرِجٌ من مِلَّةِ الإسلام، وسيأتي ـ إنْ شاءَ الله ـ بيانُه قريبًا مَقْرُونًا بِحُكْمِهِ في شرح كلام المُصَنِّف.

❖ وأمَّا **الكُفر بنِعْمَتِهِ تعالَى:**

فهو صَرْفُ ما أنْعَمَ بِهِ ﷻ على عبده من نعمه الظاهرة أو الباطنة إلى ما لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أجْلِهِ من الطاعة، ويكون ذلك بالإعراض عن مفروضاته تعالَى أو ارتكاب مَحْظُوراته، وهو بِهَذا الْمَعنى نقيضُ الشُّكْرِ، لأنَّ الشُّكْرَ صَرْفُ العبد ما أنعم الله به عليه من النعم في طاعته.

ومِنْ **أدلَّتِهِ** قولُه تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] وقولُهُ حِكَايَةً عن سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، وقولُهُ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ



إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وذلك أنَّهُ جَعَلَ تَرْكَ الحجّ كُفْرًا.

وقد وَرَدَتْ بِه أحاديثُ كثيرةٌ، حتى إنَّ مُسْلِمًا أفْرَدَ لَهُ بابًا في صَحِيحه، وتَرْجَمَ لَـهُ البُخارِيُّ بقولِهِ: (كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ). ومِمَّا جاءَ فيه قولُ النبي ﷺ: «سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وقِتَالُهُ كُفْرٌ»(١)، وقولُهُ: «لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»(٢)، وَمَا رَوَاه الرَّبيعُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ قولِهِ ﷺ: «مَنْ أَتَى رَجُلًا شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ أَوْ أَتَى النِّسَاءَ في أَعْجَازِهِنَّ فَقَدْ كَفَرَ»(٣)، وقولِهِ: «لَيْسَ بَيْنَ العَبْدِ والكُفْرِ إلَّا تَرْكُهُ الصَّلاةَ»(٤) وفي روايةِ غَيْرِ الرَّبيع: «بين الرَّجُلِ والكفر»(٥). وحديث بُرَيْدَةَ

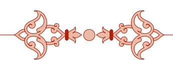
(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان/ باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله (٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الفتن/ باب: الإنصات للعلماء (١٢١).

(٣) أخرجه الإمام الربيع في الزيادات/ باب: الحجة على من قال إن أهل الكبائر ليسوا بكافرين (٧٤٨).

(٤) أخرجه الإمام الربيع في كتاب: الصلاة/ باب: جامع الصلاة (٣٠٣).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان/ باب: بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (٨٢).

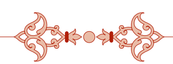


عند الجَمَاعة إلا البخاري: «**العَهْدُ الذي بَيْــنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»[1].

ويَخْتلــفُ هذا الكفر عن ســابقه بأنَّــهُ لا يُخْرِجُ صاحبَه من مِلَّةِ الإسلام، بلْ يُعَامَلُ في الحياة الدنيا معامَلَةَ المســلمين إلّا فــي الوَلاية؛ فإنَّهــا اصطفاءٌ لا يكون إلّا لِمَنْ ثَبَتَ صَلاحُهُ وتَقْواه.

وقد أَثْــبَتَهُ أصحابُنا ـ رحمهــم الله ـ باتفاقٍ، وقــال بِهِ كثيــرٌ من أهــل الحديــث وجماعةٌ من الْمُحَقِّقِينَ، وأَنْكَرَهُ أكثرُ أهلِ العلم مِنْ غَيْرِنَا، وقد حَارُوا فــي فَهْمِ هذه النصوص ومــا تُحْمَلُ عليه، فمنهم من قال: إنَّ المرادَ بِهَــا الْمُبالَغة، وأنَّ هذه الأعمال هي في الأصلِ أعمالُ الكَفَرة، ومنهم مَنْ حَمَلَها على مــن أَتَى بِمَا ذُكِرَ مُسْــتَحِلًّا، وذَهَبَتْ طائفةٌ كالحنابلة إلى أنَّ تارِكَ الصلاة مِنْ بَيْنِ هؤلاءِ

(١) أخرجه النســائي في كتاب: الصلاة / باب: الحكم في تارك الصلاة (٤٦٢)، والترمذي في كتاب: الإيْمان / باب: ما جــاء في ترك الصلاة (٢٦٢١)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصــلاة/ باب: ما جاء في ترك الصلاة (١٠٧٩).



كُفْرُهُ كُفْرُ مِلَّةٍ، ومعناه أنَّه يُعَامَلُ معاملة المشركين في الحياة الدنيا.

وهذا كُلُّهُ فِرارٌ من الواضح إلى المُشْكِل، فإن الدلائل قائمة على أن المرادَ بالكفر فيما ذُكِرَ كُفْرُ النِّعْمَة، فإنَّ الإنسانَ خُلِقَ لعبادة الله تعالى، والعبادةُ هي مُنتَهَى الخضوع والتواضع والانقياد، وخُلِقَ لَهُ ما في الأرض جَمِيعًا، وسُخِّرَ لَهُ ما في الوجود، ليكون ذلك كلُّه عَونًا على القيام بِحُقوق العبادة والطاعة، فإنْ هو شَذَّ فَسَخَّرَ شيئًا من طاقاته أو شيئًا من هذه الْهِبَات الأخرى للاستعانة بِهِ على معصية الله تعالى كانَ ذلك جَحْدًا معنويًا لِمَا أنْعَمَ الله عليه من تِلْكُمُ النعمة التي انْحَرَفَ بِهَا عن سواءِ السبيل، وهو عَيْنُ الكفر لُغَةً، فإِنْ هو أَصَرَّ على ذلك كان حَقيقًا بوصف الكفر، وبِهَذا يتبين لكَ أنَّ الإصرارَ على أيِّ كبيرةٍ هو كفرٌ بنعمته سبحانه، سواء كانت فعلًا أو تركًا.

هذا؛ وقد بيّن الْمُصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ النوعَ الأكبرَ من الكفر وهو الشِّرْكُ حيثُ قال:

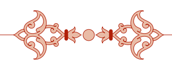
٥٢. وَالشِّرْكُ لا بُدَّ مِنْ أَنْ تَعْرِفَنْـهُ لِكَيْ
تَكُونَ في مَقْـــعَدٍ عَنْ غَـــيِّهِ اعْـتَزَلا

٥٣. وَهْوَ الْمُسَاوَاةُ بَيْنَ اللهِ ـ جَلَّ ـ وَبَيْـ
ـــنَ الخَلْقِ أَوْ جَحْدُهُ سُـــبْحَانَهُ وَعَلا

يَعني أَنَّهُ لا بُدَّ لكَ من معرفة الإشراك بالله، لأَجْلِ أَنْ تكونَ بِمَنْأىً عنه، وهو ينقسم إلى قسمين: شِرْكِ مُسَاوَاةٍ وشِرْكِ جُحُودٍ.

❖ فالْمُسَاواةُ:

أَنْ يُسَـــوِّيَ بين اللهِ وبينَ خَلْقِهِ في شـــيءٍ، فَمَن اتَّخَذَ معَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فقد سَوَّى بين الله تعالى وبين غيره؛ إذْ جَعَلَ الأُلُوهِيَّةَ مُشْـــتَرَكَةً بينه وبين شريكه، ومَنْ زَعَـــمَ أَنَّ للهِ ﷻ مُعينًا أو وزيرًا أو مُشـــيرًا فقد سَـــوَّى بين الله وبين غيـــره في الاحتيـــاج إلى مَن احتاج إليه، وكذلك مَنْ زَعَمَ أَنَّ للهِ صاحبةً أو وَلَدًا فقد سَاوَاه تعالى بغيره في ذلك، ومِثْلُهُ إنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ ســبحانه حادثٌ أو فَانٍ، أو وَصَفَهُ بأيِّ صِفَةٍ من



صفات الخلق، فقد ساواه تعالى بِخَلْقِهِ في الاتصاف بتلك الصفة.

❖ وأمَّا **الجُحُودُ:**

فهو أنْ يَجْحَدَ وُجـودَ اللهِ تعالى، أو ما عُرِفَ مِنَ الدِّين بالضَّرُورة من صفاته وأفعاله، كأَنْ يَجْحَدَ كونَه عالِمًا أو كونَه سَـمِيعًا أو بَصيرًا أو قَديرًا، أو يَجْحَدَ خَلْقَهُ الخَلْقَ أو إِمَاتَتَهُمْ، أو بَعْثَ العُقَلاء وحِسَابَهُمْ، أو أنْ يَجْحَدَ إِثَابَتَهُ للمُطيـع وعقوبَتَهُ لِمَنْ عَصَاه، أو يَجْحَدَ إِنْزَالَهُ لِلْكُتُبِ أو إرسَـالَهُ للرُّسل، ويدخُلُ في ذلك ما لَوْ جَحَدَ وَلَوْ رَسُـولًا واحدًا أو كتابًا واحدًا مِمَّا ثَبَتَت الحُجَّةُ بِه، أو يَجْحَـدَ حُكْمًا مِنَ الله أَنْزَلَهُ في كتابه، أو خَبَرًا أَخْبَرَ بِه، فإنَّه بِذَلِكَ كُلِّهِ يكونُ في عِدَادِ المشركين.

وهذا التقسـيمُ ليـس مَنْصُوصًا عليـه، وإنَّمَا هو اصطلاحٌ لأصحابنا، وإلَّا فيُمْكِنُ عند التحقيق أن يُرَدَّ الشركُ كُلُّهُ إلى المساواة أو إلى الجحود.

والأصلُ في **الإشــراكِ** لُغَةً: جَعْلُ شــريكٍ لأَحَدٍ. والكفرُ يشملُ الإشراكَ كما يشمل كفرَ النعمة، وإنَّما هو في الإشراكِ أَغْلَظُ، فهو مُخْرِجٌ من مِلَّةِ الإسلام، فَلا تَوَاصُلَ بين الْمُشــركين والْمُسلمين بِجَوازِ تَنَاكُحٍ ولا تَوَارُثٍ ولا دَفْنٍ في مقابر الْمُســلمين، ولا القيامِ بأيِّ حقٍّ من حقوق الْمَوْتَى إلا الدَّفْن.

٥٤. وَمَا سِـوَاهُ مِنَ الكُـــفْرَانِ يَلْزَمُـنَا
أَيْ عِلْمُـــهُ إِنْ عَلِمْـــنَا حُكْمَهُ الفَصِلا

٥٥. مَا لَمْ نَكُنْ رَاكِـبِيهِ أَوْ نُصَوِّبُ مَنْ
يَأْتِيــهِ عَمْدًا وَجَهْلًا، هَكَــــذَا نُــــقِلا

يعني أنَّ مَا عَدَا الشِّرْكَ مِنَ الكفر ـ وهو **كفرُ النِّعْمَةِ** السَّالِفُ الذِّكر ـ يَلْزَمُنا عِلْمُهُ بقيام الحجَّة بِه، واختُلِفَ فيمن تقوم به الحجة فيما يســع جهلُه نحو هذا، فقيل لا تقوم إلّا بعَدْلَيْنِ، وقيل بل تقوم بِعَدْلٍ واحدٍ.

ومُرادُهُ بِهَذَا جميعُ الْمَحَارِمِ من الأفعال والأقوال التي هي دونَ الإشراك، وهي كالزِّنا وأكْلِ الرِّبا وقتلِ

النفس المحرَّمةِ بغير حقٍّ، وشُـربِ الخمر وعقوقِ الوالدين وقطـعِ الرَّحِـمِ، والسـرقةِ وأكلِ أموالِ اليتامى ظلمًا وأكلِ أموال الناس بغير حق، والغِيبَةِ والنميمـةِ وقـذفِ المُحْصَنَات والتجسُّـسِ على العَوْرات، والسُّـخْرِيَةِ من المؤمنين أو المؤمنات، فإنَّ ذلك كُلَّه مِمَّا **يَسَـعُ المسـلمَ جَهْلُهُ ما لَمْ تَقُم الحجةُ بِهِ**؛ إلّا إن ارتكَبَـه، أو تَوَلَّى راكِبَه، أوْ تَبَرَّأَ من عالِمٍ تَبَرَّأَ من راكِبِه، أو وَقَفَ عن وَلايته بسببِ براءته تلك، فَبِكُلِّ ذلـك يَضيقُ عليه جهلُه ويجب عليه علمُه، فتقـوم عليه الحجة عندئذٍ بـأيِّ مُعَبِّرٍ يُعَبِّـرُ لَهُ عن حكمه ولـو كان كافرًا، كما شَـرَحَهُ الإمـامُ أبـو سعـيدٍ فـي اسـتقامته، وبَسَـطَهُ الْمُصـنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ في مَشَارِقِه، وقد تَضَمَّنَ ذلك كُلَّه الأَثَـرُ الْمَرْوِيُّ عـن الإمام أبي الشَّـعْثاء جابرِ بن زيـد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيثُ قال: «يَسَـعُ النـاسَ جَمِيعًا جَهْلُ ما دَانُوا بِتَحْرِيـمِهِ؛ مَا لَمْ يَرْكَبُوهُ أو يُصَوِّبوا راكِبَه أو يَتَبَرَّأوا مِنْ عالِمٍ تَبرَّأَ مـن راكِبِه أو يَقِفُوا عنه»، وحُكِيَ انعقادُ الإجماعِ عليه.

أسئلـة:

١. ما معنى الكفر في اللغة؟

٢. ينقسم الكفر في الاصطلاح إلى قسمين، اذكرهما؟

٣. اشرح المقصود بكفر النعمة؟

٤. ما الدليل على صحة مصطلح (كفر النعمة) من القرآن الكريم؟

٥. اذكر بعض الأحاديث التي أطلقت لفظ الكفر على صاحب المعصية غير الشرك؟

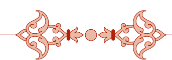
٦. ما حكم كافر النعمة في الدنيا؟

٧. مَنْ قال مِنَ المذاهب الإسلامية بإثبات كفر النعمة؟ ومَنْ أنكره؟

٨. الذي أنكر (كفر النعمة) كيف فسر الأحاديث الدالة عليه؟

٩. وضّح الدليل على صحّة تسمية المعصية بكفر النعمة؟

١٠. لماذا يطالب المرء بمعرفة الشرك؟ اذكر مِنَ القصيدة ما يدلّ على إجابتك.



١١. ينقسم الشرك بالله إلى قسمين، اذكرهما؟

١٢. متى يُعدّ الإنسان مشركا بالله شرك مساواة؟

١٣. عرّف شرك الجحود؟ واذكر أمثلة عليه؟

١٤. ما معنى الإشراك في اللغة؟

١٥. أيهما أغلظ: كفر الشرك أم كفر النعمة؟ ولماذا؟

١٦. بماذا تقوم الحجة لمعرفة المحرمات من غير الشرك؟

١٧. متى يضيق على الإنسان معرفة المُحرّم ولا يسعه جهله؟



قَـوَاعِـدُ الكُفْـرِ

٥٦. جَهْلٌ، حَمِيَّةٌ، كِبْرٌ، بَعْدَهُ حَسَـــدٌ
قَوَاعِــدُ الكُفْرِ، فَاحْــذَرْ دَاءَهَا العُضَلا

القَوَاعِــدُ جَمْعُ قاعــدَةٍ، وهي الأصــلُ. يَعني أنَّ أصولَ الكفر بِقِسْمَيْهِ ـ وهُمَا الشــركُ وكفرُ النعمة ـ أربعةٌ: وهي الجَهْلُ والحَمِيَّةُ والكِبْرُ والحَسَدُ.

وقد حَذَّرَ المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ من داءِ هذه العِلَلِ **العُضَلِ** أي العُضَال، و**الدَّاءُ العُضَالُ** هــو المرض الذي أعْيَا الأطبَّاءَ علاجُه، وقد عَدَّها كذلــك لأنَّها مُهْلِكَةٌ لِمَنْ لَمْ يتخلَّصْ منها بتوفيق الله تعالى إيَّاه.

❖ وأوَّلُها: **الْجَهْلُ**

وهو عَــدَمُ الْمَعرفة بِمَا مِــنْ شــأنِهِ أنْ يُعْرَفَ، فهو نقيضُ العلمِ، وينقســم إلى قسمين: بســيطٍ ومُرَكَّبٍ، فالبسيط: عدم المعرفة بالشــيءِ أصلًا، والمركَّبُ: عدم المعرفة بِهِ مع تصــوُّرِ معرفته على خلاف ما هو عليه،

ولذلك كان أشدَّ؛ فهو مُرَكَّبٌ من جهـلينِ: جهلٍ بالشيءِ وجهلٍ بأنه جاهِلُهُ، وهـذا الذي عَنَاه الشاعرُ بقولِهِ:

وَمِنْ عَجَـــبِ الأَيَّامِ أَنَّكَ جَاهِـلٌ
وَأَنَّكَ لا تَـــدْرِي بِأَنَّك لا تَـدْرِي

والأوَّلُ أَخَفُّ لِبَسَاطَتِهِ.

وإنَّما كان الجهلُ من قواعد الكفر لأنه بِقِسْـــمَيْهِ يعود إلى الجهل غالبًا، فالذين اتخذوا مع الله إلَـــهًا آخَرَ أو جَحَدُوا وجودَه رأسًا أو جحدوا صفاته الذاتية أو أفعالَه هُمْ أشدُّ الناس جهلًا؛ وإنْ كان ذلك عائدًا إلى العناد، فإنَّ آياتِ الله تعالـــى الدالَّة على وجوده ووَحْدانيته وسائر صفاته هي مِنْ أَبْيَنِ البيِّنات وأظهرِ البراهين، فالإنســـانُ يتلوها علـــى صفحات وجوده بنفســـه، إذ ما مِنْ خليَّةٍ من خلاياه إلّا وهي شـــاهدُ عَـــدْلٍ على وجـــود الله وعلـــى وحدانيتـــه واتصافه بالكمالات، فضلًا عن أصوات ســـائر الكائنات التي تُنادِي كلُّ ذرَّة من ذرَّاتِهَا بلسانِ حالِهَا مُعْلِنَةً افتقارَها إليه وأنَّها لَمْ توجَدْ إلّا بإِيْجَادِ الله لَهَا.

فمَنْ تعامَتْ بصيرتُه عن هذه الدلائل وتَصَامَمَ سَمْعُهُ عن هذه الشهادات كان أَعْرَقَ النَّاسِ في الجهل وأَضَلَّهُمْ عن الحقيقة، وكذلك مَنْ جَحَدَ رسالاتِه سبحانه إلى مَن اصطفاهم مِنْ خَلْقِهِ لِحَمْلِ أمانته إِلَى عباده، لا سيَّما خاتَمُ الْمُرسَلين وقائدُ الغُرِّ الْمُحَجَّلِين، فمَنْ كَفَرَ بِهِ هو أعمى الناسِ بصيرةً؛ لِظُهورِ برهانه وقَهْرِ معجزته وانكشافِ صدقِه، فلم يَبْقَ أمامَ مَنْ جَحَدَ رسالتَه إلّا العنادُ والمكابَرَة.

❖ ثانيها: **الْحَمِيَّة**

وهي العَصَبِيَّةُ الباطلة، فإنّها تُعْمِي بصيرةَ صاحبِها حتى يَجْعَلَ الباطلَ حقًّا والْحَقَّ باطلًا، وهي من شأنِ أهل الْجَاهلية؛ قال تعالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

وإنَّما كانت من قواعد الكفر لأنَّها تَحُولُ بين مَن اسْتَحْكَمَتْ في نفسه وبين اتِّباع الْحَقِّ، فقد يَرَى الْحَقَّ بأُمِّ عينيه ولا يَصُدُّهُ عنه إلّا هذه الْحَمِيَّة، كما كان من فرعون وآلِه الذين أراهم الله من آياته ما جعلهم مُوقنين

بصدق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكنَّهم أَخْلَدُوا إلى عِنَادِهم، كما قال الله تعالَى فيهم: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]، وكذلك شأنُ أولئك الذين قالوا: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فإنَّ حَمِيَّتَهُمْ لآبائهم صَدَّتْهُمْ عن الخروج عَمَّا أَلِفُوه منهم.

وإنَّ مِنْ شأنِ الحمية أنْ تَدْعُوَ كلَّ طائفةٍ بأنْ تَلْتَفَّ حول نفسها وتدخلَ في حربٍ مع غيرها؛ ولو أيْقَنَ أفرادُها أنَّها ظالِمَةٌ وأنَّ الحق في جانب غيرها، مع أنَّ مُجَرَّدَ الرُّكون إِلَى الظلم مَهْلَكَة، ولو كانَ مَيْلًا بالقلب مِنْ غير أن يكونَ لَهُ أثرٌ على الفعل؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

❖ ثالثُها: الكِبْرُ

وهو أنْ يَتَعَالَى الإنسانُ بنفسِه، وعُرِّفَ بأنَّه: تَسْفِيهُ الحَقِّ وغَمْطُ الخَلْقِ، أي ازدراؤُهم واحتقارُهم. والمتكبِّرُونَ إِمَامُهُمْ إبليسُ ـ لعنَهُ الله ـ فإنَّما عَصَى

الله تبـــارَك وتعالى باســـتكبارِه، إذْ رأى لِنَفْسِهِ مِزِيَّةً على آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فـقال: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وعلَيْهِ فإنَّ الكِبْرَ إِمَامُ الْمَعَاصي، لأنَّ أوَّلَ ما عُصِيَ اللهُ تَعالَى بِه.

والْمُتَكَبِّــرُ مُتَطَاوِلٌ على الله تبــارك وتعالى، فإنَّ الكِبْرِيَاءَ مِنْ خصائصِه عَزَّ وَجَلَّ، ففي الحديث القُدُسِــيّ: «الكِبْرِيَــاءُ رِدَائــي والعَظَمَــةُ إِزَارِي، فمَــنْ نَازَعَني أَحَدَهُمَا قَذَفْتُهُ في النــار ولا أُبَالِي»[1]. ومعناه أنَّ كلَّ واحدةٍ من الصفتين خاصَّةٌ به عَزَّ وَجَلَّ، ليس لِغَيْرِهِ منهما نصيبٌ، كخُصُوصيَّة أحدِنا بِرِدَائِهِ وَإِزَارِه، فلِذَلك كان حَرِيًّا مَنْ تَطَاوَلَ على الله ســبحانه بِمُنَازَعَتِهِ إحداهما أنْ يَقْذِفَهُ في النار.

وإنَّما كان الكِبْرُ مِنْ قواعد الكفر لأنَّه يَحُولُ دُونَ اتباع الحق، كما في قصَّة إبليسَ ـ لعنه الله ـ، وكذلك أولئك المتكبرون الذين صَدُّوا عــن الحق صُدُودًا،

(١) أخرجه مســلم في كتاب: البر والصلة والآداب/ باب: تحريم الكبر (٢٦٢٠).

كقوم نوح وعاد وثَمُــودَ والذي حاجَّ إبراهيمَ في ربِّهِ وفرعونَ وقومِه، لذلــك كان كل متكبرٍ مصروفًا عن آيات الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

❖ رابعُها: **الْحَسَدُ**

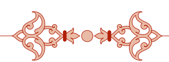
وهو تَمَنِّي زَوَالِ نعمة الغَيْرِ، سواء كان هذا التمنِّي مصحُوبًا بِتَمَنِّي انتقالِهَا إلى الحاسد أو مُجَرَّدِ زوالِهَا، وهو دَاءٌ عُضَالٌ يُثْمِرُ العداوةَ والبَغْضَاءَ، فإنَّ الحاسِدَ يَشْعُرُ بِنَارٍ تَضْطَرِمُ بين جَوَانِحِه، يُؤَجِّجُها ما يَراه من نعمة الله تعالى علــى غيره، فلذلــك يَتَمَنَّى إطفاءَهَا بزوال تِلْكُمُ النعمة، وقد أجَادَ مَنْ قال:

إِنِّي لَأَرْحَـمُ حَاسِـــدِيَّ لِحَـرِّ مَا
ضَمِـنَتْ صُـدُورُهُمُ مِنَ الأَوْغَـارِ
نَظَـرُوا صَنِـــيعَ اللهِ بِي فَعُـيُونُهُمْ
فِي جَـنَّـــةٍ وَقُـــلُوبُهُمْ فِي نَـــارِ

وقد يَدْفَعُ الحَسَدُ بِصَاحِبِهِ إلى أنْ يُكَابِرَ الحقيقة التي تَمْلأُ عقلَه وقلبَه فيَجْحَدَها، كمــا كــان ذلك

من أُمَيَّةِ بنِ أبي الصَّلْتِ؛ الذي كان يَتطَلَّعُ إلى نُبُوَّةٍ يُشْرِقُ ضياؤُها فيُبَدِّدُ ظلامَ الجاهلية، فلمَّا أَكْرَمَ اللهُ بذلك عبدَه ورسولَه محمَّدًا ﷺ حَسَدَه على ما آتَاه اللهُ وَكَفَرَ بِه. وهكذا كان صَنِيعُ كثيرٍ من المشركين، إذْ لَمْ يَصْرِفْهُمْ عن الإيمان بِهِ ﷺ إلّا هذا الداءُ.

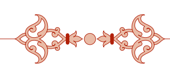
وهكذا صَنِيعُ اليهود، فإنَّهم كانوا مُوقنين بنبوَّتِهِ ﷺ بِمَا وَجَدُوهُ مِنْ نُعُوتِهِ في التوراة، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا، فلمَّا جاءَهم ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ حَسَدًا أنْ تَخْرُجَ النبوَّةُ مِنْ بني إسرائيل إلى العرب، ولذلك قال الله تعالى فيهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، وبِدَافِعِ الحسد كانوا يَتَمَنَّوْنَ الكفرَ لِلَّذين آمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].



وقد يَسْعَى الْحَاسدُ إلى الإضْــــرار بالْمَحْسُودِ في جســـمِهِ أو عقلِهِ أو مالِهِ أو ولدِهِ أو أهلِهِ، لِذَلِكَ كُلِّهِ كان من قواعد الكفر.

ولِمَا لِلْحَسَدِ مِنْ أَثَرٍ خطيرٍ في حياة الناس عَلَّمَنَا اللهُ تعالى أنْ نستعيذَ بِهِ مِنْ شرِّ حاسدٍ إذا حَسَد؛ فيما أَنْزَلَهُ في سورة الفَلَق.

ومِمَّا تَقَــدَّمَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الكُفْــرَ القائمَ على القواعد المذكورة هو أعَــمُّ مِنْ أَنْ يكونَ كُفْرَ شِــرْكٍ أو كُفْرَ نِعْمَةٍ، فإنَّ كُلًّا من الجهل والحمِيَّة والكبر والحســد يَنْشَأُ عنه كلُّ واحدٍ من الكُفْرَيْنِ كَمَا عَلِمْتَ.



أسئلـة:

١. عرِّف القاعدة في اللغة العربية؟

٢. كم عدد قواعد الكفر؟ اذكرها إجمالا.

٣. لماذا كانت قواعد الكفر داء عضالا؟

٤. عرِّف الجهل؟

٥. للجهل قسمان، اذكرهما وبيِّن الفرق بينهما؟

٦. لماذا كان الجهل من قواعد الكفر؟

٧. ما معنى الحمية التي هي من قواعد الكفر؟ وهل ذكرت في القرآن الكريم؟

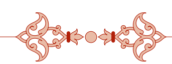
٨. كيف تكون الحمية سببا في الكفر؟ أوضح إجابتك بالمثال والدليل.

٩. عرّف الكبر؟

١٠. من هو إمام المتكبرين؟

١١. ورد حديث قدسي في التحذير من الكبر؟ اذكره واشرح معناه.

١٢. اذكر أمثلة من المتكبرين الذين ذكرهم القرآن الكريم؟



١٣. ما معنى الحسد؟

١٤. لماذا كان الحسد داء عضالا؟

١٥. اذكر أمثلة من الذين حسدوا سيدنا محمدًا ﷺ من الأفراد أو الجماعات؟

١٦. بيّن آثار الحسد السيئة على الحاسد والمحسود؟

١٧. أين تجد الاستعاذة من شر الحسد في القرآن الكريم؟

١٨. هل قواعد الكفر مختصة بأحد أقسامه؟



أَرْكَانُ الكُفْرِ

٥٧. وَرَغْـبَةٌ رَهْـــبَةٌ أَرْكَانُـهُ، وَيَلِيـ * ـــهَا شَــهْوَةٌ غَضَبٌ فِي كُلِّ مَا حُظِلا

يعني أنَّ أركانَ الكفر التي يُشَادُ بِهَا بِنَاؤُهُ هي هذه الأربعة: الرَّغْبَةُ والرَّهْبَةُ والشَّهْوَةُ والغَضَبُ.

❖ فالرَّغْبَةُ:

هي الْمَيْلُ الزَّائِدُ إلـــى الدنيا حتى يَمْتَنِعَ صاحبُه مِنْ أداءِ ما عليه من الحق، ويَحْرِص على أخْذِ حقِّ غيره، وهـــذا هو حُـــبُّ الدنيا الـــذي يُعْمِي بصيرةَ صاحبه، فلا يُبَالي بِمَا يتَرَتَّبُ عليه من خَسَـــارٍ في الدار الآخرة، وهو المـــراد بِنَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، وقولِهِ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا

لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقولِهِ: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨]، وقولِهِ: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩].

وإنَّما كانت الرغبةُ من أركان الكفر لأنَّها إذا استحكَمَتْ في النفس اسْتَوْلَتْ على العقل، وهَيْمَنَتْ على الأحاسيس والْمَشَاعر، فَتَصُدُّ صاحبَها عن اتّباع الْحَقّ، وتَحُولُ بينه وبين الواجب، فكَمْ من خبيرٍ بأنَّ الإسلامَ حقٌّ - مِنْ أَهْلِ الكتاب أو غيرِهِمْ - أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ عن براهينه، وأصَمَّ أُذُنَيْهِ عن حُجَجِهِ، خَشْيَةَ أن يفوتَه ما يَسْتَمْتِعُ به في حياته الدنيا من مالٍ يأتيه مِنْ قِبَلِ الذين غَرَّرَهُمْ بِضَلالِهِ، أو جاهٍ ومَرْتَبَةٍ عند عظيمٍ من عظماء الكفر، وقد تَصُدُّ هذه الرَّغْبَةُ صاحبَها عن قول الحق، فيُخفي شهادةً تَحَمَّلَها أو يَشْهَدُ زُورًا بِخِلافِ ما عَلِمَ.

❖ وأمَّا **الرَّهْبَةُ:**

فهي الخوفُ الْمُفْـرِطُ الذي يَصْـرِفُ صاحبَه عن الواجب، كأنْ يَخْشَـى أحَدًا مـن الْمَخْلوقين، فيمتنعَ عن اتّباع الحقّ لأجْلِهِ، ومنها خشيةُ الفقر الْمَانعةُ من أداءِ حـقّ الله كالـزكاة، وحقوقِ أهلِـهِ كالإنفاقِ على العِيَال، وقد أَوْقَعَت هذه الخشـيةُ قومًا في مُعَاكَسَـةِ الفطرة بِحَيْثُ انْتَزَعَتِ الرَّحْمَةَ من قلوبِهِمْ فَقَتلوا أفلاذَ أكبادِهم خشيةَ الإمْلاقِ، ولذلك قال تعالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

ويَنْـدَرِجُ في هـذه الرَّهبـةِ الامتناعُ عـن الأمرِ بالْمَعروف والنهيِ عن الْمُنكر مع وجوبِهما، وكذلك الفِرَارُ من الزَّحْفِ وعَـدَمُ الثبات لِلْعَدُوِّ وعَدَمُ الدفاعِ عن النفس والدِّين وسائِرِ الحُرُمَاتِ.

❖ وأمَّا **الشَّهْوَةُ:**

فهي مَيْلُ النفس إلى اتّباع الْمَلَـذَّاتِ، وهي تَكُونُ من أركان الكفر عندمـا تَخْرُجُ بصاحبهـا عن حُدودِ ما أباحـه الله تعالى لَهُ مِـنْ مَلاذِّ الحياة إلـى ما حَرَّمَ

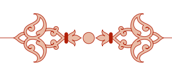
عليه، فإنَّ هذه هي الشهواتُ المُحَرَّمَةُ الْمُهْلِكَةُ الصَّارِفَةُ عن الحـــقّ، ولذلك قَرَنَ اللّٰهُ بيـــن اتّباعها وبين إضاعة الصلاة في قوله تعالـــى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩].

❖ وأمَّا **الغَضَبُ:**

فهو انفعالٌ نَفْسِيٌّ يَدْفَعُ بصاحبه إلى الانتقام من الغير، وإنَّمـــا هو مِـــنْ أركان الكفر عندمـــا يَدْفَعُ إلـــى الانتقام بالباطل كما هو شَـــأْنُ المُجْرِمينَ، أمَّـــا إنْ كان غَضَبًا للهِ تعالى حينمـــا تُنْتَهَكُ حُرَمُـــهُ ويُضَاعُ دينُه فهـــو مِنْ أَجَلِّ الْمَحَامِـــدِ، وقد وَصَـــفَ اللّٰهُ المؤمنيـــن بقوله: ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وبقولِهِ: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وإنَّما تَكُونُ هـــذه الخصالُ أرْكانـــًا للكُفْرِ عندما تَدْفَـــعُ بصاحِبِها إلـــى باطـــلٍ أو تَصْرِفُهُ عـــن حَقٍّ، ويَخْتَلِـــفُ نوعُ الكفـــر باختلافِ ما تُـــؤَدِّي إليه من نتيجةٍ، فقد تكون عاقبتُها تركَ الإســـلامِ رأسًا، وهذا هو الكُفْرُ الْمُخْـــرِجُ من الْمِلَّةِ، وقـــد تكونَ ارتكابَ شيءٍ من مَحَارِمِه، وذلك هو كُفْرُ النعمة.

و«**حُظِلَ**» في البيت بِمَعْنَى: مُنِعَ.



أسئلة:

١. كم عدد أركان الكفر؟ اذكرها إجمالا.

٢. متى تكون الرغبة من أركان الكفر؟

٣. اذكر بعض الآيات التي تبيِّن خسارة مَنْ قدَّم دنياه على آخرته؟

٤. ما هي الرهبة التي تعدّ ركنا للكفر؟ اذكر أمثلة عليها وما تؤديه من الكفران.

٥. هل الشهوة على إطلاقها من أركان الكفر؟ اشرح جوابك.

٦. بيّن متى يكون الغضب مذموما، ومتى يكون محمودا؟

٧. هل أركان الكفر المذكورة تُؤدّي إلى كفر الشرك أم إلى كفر النعمة؟

ذِكْرُ الْمِلَلِ السِّتِّ وَأَحْكَامِهَا

٥٨. وَهَذِهِ مِلَـلُ الأَدْيَانِ قَـدْ نُصِبَتْ
لا بُـدَّ لِلْمَرْءِ مِـنْ أَنْ يَعْـرِفَ الْمِلَلا

الْمِلَلُ جَمْعُ مِلَّةٍ بِمَعْنَـى الدِّين، وهي في الأَصْلِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ أَمَـلَّ بِمَعَنْى أَمْلَى، قال تعالَى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وأصلُها في الْمِلَّةِ الشرعية، وهي التي أَمَلَّها الْمَلَكُ على الرسول، وأَمَلَّها الرسولُ على الأمَّة، ولكنها أُطْلِقَتْ على سَـائر النِّحَل، سواء ما كان لَهُ أصلٌ فيما أوحاه الله تعالى أو لا.

ومِلَـلُ النـاس بِحَسَـبِ الأحكام الشـرعية في أصحابِهَا تنقسـمُ إلى سِتٍّ؛ وهي: **الإسلام واليهودية والنصرانية والصابئة والْمَجُوسِـيَّة وعبـادة الأصنام**، ويَندرج في هذه الأخيرةِ جميعُ أنواع الشرك، فيدخل في حكمها الْمَلاحِـدَةُ كالشُّـيُوعِيّين والوُجُودِيّين، وسائرُ الذين لا يدينون بدين.

ووجوبُ معرفة هــذه الْمِلَلِ مِنْ أجْــلِ الفَرْزِ بين أَتْباعِها في الأحكام، وهو الــذي دَرَجَ عليه كثيرٌ من أصحابنا، وذَهَبَ الإمامانِ أبو يعقــوب الوارجلانِيُّ وأبو إســحاق اطفيِّش إلــى أنَّ معرفتها ليســت من ضروريَّات الدين، وهي داخِلَةٌ فيما يَسَــعُ جَهْلُهُ من الأحكام الشــرعية والْمُعْتَقَدَات الدينية، وهذا القول مِــنَ الحُجَّةِ بِمَــكانٍ، إذْ لَمْ يُؤْثَرْ قَــطُّ عن النبي ﷺ عندما كان يدعو إلى الإســلام أنَّهُ يُلَقِّنُ الناسَ معرفةَ هذه الْمِلَلِ، ويَشْــرَحُ لَهُمْ أحكامَها، ولا أُثِرَ ذلك عن أحدٍ من صحابته رضي الله تعالى عنهم.

وما مِنْ رَيْبٍ أنَّ إلزامَ ذلك جَمِيعَ الناسِ ذُكورَهُمْ وإناثَهُمْ صِغارَهُمْ وكِبارَهُمْ بَدْوَهُمْ وَحَضَرَهُمْ فيهِ حَرَجٌ كبيرٌ على عَوَامِّ الناس وجَهَلَتِهِــمْ، فمَا لِلْعَامِّيِّ الذي لا يَعْنِيهِ إلا أمرُ نفسِه وبَحْثِ أحكام هذه الْمِلَلِ ؟ فإنَّ التعبُّدَ بأحكامها لا يعني عَوَامَّ المســلمين، وإنَّمَا هو مِنْ خصائص خاصَّتِهِمْ، فكيف يُلْــزَمُ أنْ يَعْرِفَ هذه الْمِلَلَ وأنْ يَفْرِزَ بين أحكامها جميعًا ؟!

فإنْ قيلَ: بـأنَّ هـذه الْمِلَلَ مَنْصُـوصٌ عليها في القرآن؛ وذلك أنَّ الله تعالى قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الحج: ١٧]، فَمِنَ الضرورة أنْ يَعْرِفَها الإنسانُ المسلمُ.

قُلْنَـا: ليس كلُّ منصوصٍ عليه فـي القرآن مِمَّا لا يسـع جهله، وإلا وَجَبَ على كل مسـلمٍ منذ بلوغِهِ الحُلُمَ أو دخولِهِ الإسلامَ أنْ يُلِمَّ بكُلِّ أحكام القرآن، ويُحْصِيَ كلَّ ما جاء فيه، وهو مِنَ العُسْـرِ بِمَكانٍ، علـى أنَّ كثيرًا من الْمُسـلمين لا يُتقِنون قراءَةَ القرآن رأسًا، وَهَبْ أَنَّهُمْ يَـتْلُونه؛ فإنَّ القليل مِمَّنْ يتلونَه هم الذين يُدرِكون معانِيَه، كَيْفَ وفِيهِمُ العَرَبِـيُّ والأَعْجَمِيُّ؟ وأَنَّى لِلأعجمـي أنْ يُكَلَّفَ فَهْـمَ مَضَامينِ الكلام العربي مع عـدم إتقانه لغة العرب؟! والعربُ أنفسُـهم ليس بإمكانِهِمْ إدراكُ مقاصدِ القرآن إلا بعد دراسة فنون العربية ودراسة علوم القرآن.

ومع هذا فإنَّ تِلْكُـــمُ الْمِلَلَ عندمــا ذُكِرَتْ في الآية المشارِ إليها لَمْ يَقْتَرِنْ ذِكْرُها بتِبْيان أحكامِها، وإنَّمَا جــاءتْ متناثرةً في آيــاتٍ متعدّدةٍ وسُــوَرٍ مُخْتلفة، مــع أنَّ هذه الأحــكامَ نفسَــها وَقَعَ في بعضها خلافٌ بين أهل العلم بِحَسَبِ ما فَهِمَه كلُّ فريقٍ من ظواهِرِ الأدلَّةِ.

وبالجُمْلَةِ فــإنَّ معرفةَ هذه الْمِلَــلِ وأحكامِها مِمَّا يَجِبُ على الإنسانِ بعد أنْ تقومَ بذلك الحجَّةُ ويَتَّضِحَ لَهُ الْمَقصَدُ ويَتَيَسَّرَ لَهُ الفهمُ، وإلا فهي كسائر الأحكام الشــرعية والعقائد الدينية التــي يكفي الإيْمَــانُ بهَا إجمالًا؛ ما لَمْ تَقُم عليه الحجَّة بتفصيلها، وما لَمْ يَقَعْ فــي مُخَالَفَةِ الْمَشْــروعِ بالإقدام على ما لَمْ يَــأْذَنْ بِهِ الحَقُّ، كما جاءَ الأَثَرُ في أنواعِ الْمَحَارِمِ: «يَسَعُ الناسَ جَهْلُ ما دَانُوا بِتَحْرِيــمِهِ؛ مَا لَمْ يَرْكَبُوهُ أو يُصَوِّبوا راكِبَه أو يَتَبرَّأوا مِنْ عالِمٍ تَبرَّأَ من راكِبِه أو يَقِفُوا عنه».

على أنَّ العَمَلَ بشــيءٍ فيمــا يتعلَّق بِهَــذِهِ الْمِلَلِ لا يَعنــي العوامَّ، وإنَّما هو مِنْ شــأنِ خاصَّةِ الخَاصَّةِ

ـ كما ذَكَرْنا ـ، لأنَّ الإقْدَامَ على أمرٍ يتعلَّق بأصحابِهَا إنَّما هو شأنُ أئمَّةِ المسلمين.

ثُمَّ أَخَذَ يُبَيِّنُ الأحكامَ الْمُتعلِّقَةَ بِهَذِهِ الْمِلَلِ، فقال:

٥٩. فَالْمُسْلِمُونَ؛ وَهُمْ مُوْفٍ وَمُجْتَرِحُ
وَالْمُجْرِمُونَ بِنَهْكٍ مِنْهُمُ انْفَصَلا

٦٠. أَوْ مُسْتَحِلٌّ، وَأَحْكَامُ الأُلَى انْتَهَكُوا
أَنْ يَرْجِعُوا كُلَّ مَا صَابُوا وَإِنْ جَزُلا

٦١. وَقَدْ يَجُوزُ لِكُلٍّ مَا يَجُوزُ لَنَا
إلا الوَلايَةَ خُصَّتْ بِالَّذِي عَدَلا

الْمِلَّةُ الأولى منَ الْمِلَلِ السِّتِّ هي مِلَّةُ الإسلام.

❖ والإسلامُ

هو دينُ الله الحق الذي ارتضاه لخلقه وأرسَلَ بِهِ رُسُلَه وأنْزَلَ به كتبه، ولكنَّ الْمَحْسُوبين على هذا الدين فِيهِمُ الوَفِيُّ الصالِحُ الذي الْتَزَمَ جميعَ أحكامه، فأدَّى الفرائضَ واجتنبَ الْمَحَارِمَ، وحَرَصَ جُهْدَه

على إتيان الفضائل واجتناب الْمَكْرُوهِ، وإنْ وَقَعَ في مَحْظُورٍ أو قَصَّرَ في مفروضٍ بادَرَ إلى التوبة وسَدِّ الخَلَل. وفيهم **الْمُقَصِّرُ**؛ إمَّا بتركِ ما فُرِضَ وإمَّا بِفِعْلِ ما حَرُم. والكلُّ مَحْسُوبٌ على هذا الدين، فلا يقال بِخُروجِهِ منه إلّا إنْ أنْكَرَ ما هو معلومٌ من الدين بالضرورة.

ومَنْ وَقَعَ في ارتكاب ما حَرُمَ لا يَخْلُو إمَّا أنْ يكونَ أَتَى ما أَتَى **اسْتِحْلالًا** أو **انْتِهَاكًا**، **فالْمُسْتَحِلُّ** تُجْزِيهِ التوبةُ مِمَّا أتى، ولا يُلْزَمُ بشيءٍ فيما يتعلق بحقوق الناس الَّتي أضاعَها، سواء ما يتعلق بالأَنْفُسِ أو الأموال أو الأعراض، إلا ما بَقِيَ بعينه في يده، فإنَّ عليه أنْ يَرُدَّهُ إلى صاحبه، وذلك هو خَلاصُه منه، أمَّا ما تَلِفَ فلا يُطالَبُ بِهِ.

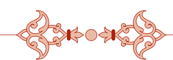
والْمُسْتَحِلُّ هو الْمُعْتَقِدُ حِلَّ ما أتى بتأويله دليلًا من الأدلة الشرعية، كالْخَوَارجِ ـ وهم الأَزَارِقة والنَّجْدِيَّة والصُّفْرِيَّة ـ فإنَّهم يَحْكُمون بِحُكْمِ الشرك على كلِّ مرتكبِ كبيرةٍ، فيستبيحون بسبب ذلك

سَفْكَ دمه وغنيمةَ مالِهِ وسَبْيَ نسائه وذُرِّيَّتِهِ، ويتأوَّلون في هذا قــولَ الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، إذْ حَمَلُوه على الطاعة بأكلِ الْمَيْتَةِ، ومعنى ذلك أنَّ مَنْ أَكَلَ الْمَيتةَ عندهم مُشْــرِكٌ، وهكذا بقية الكبائر، وقد أَفْرَطَت الأزارقـةُ في الغُلُوِّ حتى حَكَمَتْ علــى كلِّ مَنْ عصــى اللهَ ورســولَه ـ ولــو بِمُقَارَفَةِ صغيرةٍ ـ بالإشراك، مستدلِّين بقولِ الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحــزاب: ٣٦]، إذْ حَمَلوا الضلالَ الْمُبِينَ على الشرك.

وهذا كلُّه خِلافٌ لِمَا استقرَّ عليه إجماعُ الأمَّة قبلَ أنْ تَظْهَرَ بِدْعَتُهُمْ هذه، فإنَّ الأمةَ مُجْمِعَةٌ على أنَّ مِمَّا يُعْصَى بــه الله تعالى ما هو دونَ الإشــراك من أنواع الفُسوق، وأنَّ الْمُرادَ بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾: إنْ أَطَعْتُمُوهُمْ في اعتقــادِ حِلِّ الْمَيْتَةِ، فإنَّ اعتقادَ حِــلِّ ما حَــرَّمَ اللهُ ردٌّ لِحُكْمِــه ﷻ، ومَنْ رَدَّ حكمَه الصريحَ فقد أشــرك، أمَّا قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ فلا يعني الضلالُ فيه الإشراكَ، إذْ ليس كلُّ ضلالٍ شِرْكًا.

وإنَّ مِنْ أَبْيَنِ الأدلَّة على فسادِ مُعْتَقَدِهِم وضلالِ تأويلهم ما نَصَّ عليه القرآن من الْحُدود الَّتي تَجِبُ على من قَارَفَ بعضَ الكبائر، كالقطعِ الواجبِ على السَّارق والسارقة، والْجَلْدِ مائةً على الزانِي والزانية، والْجَلْدِ ثَمَانين على الذين يَرْمُونَ الْمُحْصَنَات، وكذلك ما ثَبَتَ بالسُّنة من جلد شارب الخمر، فإنَّ هذه كلَّها كبائرُ، فلو كانت شِرْكًا لَكَانَ حَدُّ مَنْ أتاها حَدَّ الارتدادِ وهو القتل، وَكَوْنُ عُقُوباتِهَا دُونَه دليلٌ قاطِعٌ على أنَّها ليسَتْ شِرْكًا.

وبالجُمْلَةِ فإنَّ أولئكَ تأوَّلوا ذلك التأوُّلَ الباطِلَ فحَكَمُوا على الكلِّ بالشرك، وتَرَتَّبَ عليه ما تَرَتَّبَ مِن استحلالِ غنيمةِ أموالِهِمْ، واستحلالِ وَطْءِ نسائهم بعد سَبْيِهِنَّ، فمَنْ ثَابَ مِنْ هؤلاء إلى رُشْدِهِ وتابَ إلى رَبِّه كانت توبتُه كافيةً في رفع أوزار ما ارتكبوه، وليس عليهم ضَمَانُ ما أَتْلَفُوه، وإنَّما عليهم رَدُّ ما بقي في أيديهم بِعَيْنِهِ.



وأمَّـــا **الْمُنْتَهِكُ** فيجب عليـــه مع التوبـــةِ أنْ يَرُدَّ ما أَتْلَفَ من مـــالٍ، وأنْ يَضْمَنَ ما أصـــابَ من دماءِ الناس وأعراضهم، وذلك معنى قول المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

.... وَأَحْكَامُ الأُلَى انْتَهَكُوا
أَنْ يَرْجِعُوا كُلَّ مَا صَابُوا وَإِنْ جَزَلا

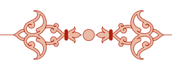
لأنَّ توبتَه موقوفـــةٌ على ردِّ الْمَظَالِـــمِ، كما جاء في الحديث[1]، فتوبةُ الْمُنْتَهِكِ من هذه الناحية أشدُّ من توبة الْمُسْـــتَحِلِّ، وإنَّما يُشَـــدَّدُ علـــى الْمُسْـــتَحِلِّ بوجوب الاستيـــثاق من توبته، وذلك بأنْ تكون توبته تَفْصِيلًا، بِحَيْثُ يُعَـــدِّدُ ما خَالَفَ فيه الحـــقَّ، ويُعْلِنُ رجوعَه إلى مُعْتَقَدِ المســـلمين وقولِهِمْ، وأنْ يُعْلِـــنَ وَلايَتَه لِمَنْ تَبَرَّأَ منهم من أئمَّة أهل الحق، وبَرَاءَتَـــهُ مِمَّنْ دان بوَلايتهم من أئمة أهـــلِ الضلال، هذا فيما بَيْنَهُ وبين الْمُسْلِمين، أما فيما بَيْنَهُ وبين ربِّهِ فَحَسْبُهُ أنْ يتُوبَ كما يتوبُ غيرُه، مُقْلِعًا عن كل ضلالةٍ اعتقدَها إلى ضِدِّها من الحق.

---

(١) انظـــر الحديث الـــذي أخرجه الإمـــام الربيع في بـــاب: الوعيد في الأموال (٦٩١).

هذا؛ وجَميعُ الْمُسْـــلِمِينَ بَرُّهُمْ وفاجِرُهُمْ تَجِبُ لَهُم حقوقُ الإســـلام العامة، كَرَدِّ السلام وتَشْمِيتِ العاطس ودَفْنِهِـــمْ في مقابر المســـلمين، وجميع حقوق الموتى من المســـلمين، وكذلـــك الْمُوَارَثَةُ بينهم وبين غيرهم من أبناء ملة الإســـلام، وإنَّما تُقَامُ عليهم الحدودُ الشرعية إن ارتكبوا موجباتِهَا، ويُقاتَلُونَ إنْ بَغَوْا مِنْ غير أنْ يُجْهَزَ على جريحهم أو يُتْبَعَ مُدْبِرُهُمْ، إلّا أنْ يكـــونَ لَهُمْ رِدْءٌ يرجعون إليه، ولا تُغْنَمُ أموالُهُمْ ولا تُسْـــبَى ذَرَاريهم سواء كانوا مستحلين أو منتهكين.

وإنَّما اسْـــتَثْنَى بعضُهم في الصلاةِ على موتاهم مُدْمِنَ الخمـــر، وتاركَ الصلاة عمْـــدًا طُولَ عُمُرِهِ، وقاتِلَ نفسِـــه عمْـــدًا، والعَبْـــدَ الآبِـــقَ. وقيل بلْ لا يُصَلَّى علـــى كلِّ مُصِرٍّ على كبيـــرة حتى مات عليها. والصحيحُ الصلاةُ على هـــؤلاءِ جَمِيعًا؛ إنْ لَمْ يكونوا خَرَجوا من ملة الإســـلام بإنكارِ حُرْمَةِ ما أَتَـــوْا، أو وُجُوبِ ما تَرَكوا مِمَّا هُوَ معـــلومٌ من الدِّين بالضَّرورة.



والدَّليلُ على الصلاة عليهم ما أخْرَجَهُ الربيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من طريق ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**الصَّلاةُ جائزةٌ خلفَ كلِّ بَارٍّ وفاجِرٍ، وصَلُّوا على كلِّ بَرٍّ وفاجِرٍ**»[1]. وقولُهُ ﷺ فيما رواه الربيعُ أيضًا ـ: «**الصلاة على مَوْتَى أهلِ القبلة الْمُقِرِّينَ بالله ورسولِهِ واجبةٌ، فَمَنْ تَرَكَها فقد كفر**»[2]. فإنَّ هذا عامٌّ ولَمْ نَجِدْ لَهُ مُخَصِّصًا يُخْرِجُ أولئك من عُموم الحكمِ، وإنَّما تُسْتَثْنَى الوَلايةُ، فلا تُمْنَحُ إلّا لِلْوَفِيِّ، لأنَّها اصطِفَاءٌ لِمَن اتقى الله وأطاعه، وهو مَصُونُ الدَّمِ والْمَالِ والعِرْضِ.

---

(١) أخرجه الإمام الربيع في الزيادات، باب: الحجة على من لا يرى الصلاة على موتى أهل القبلة (٧٧٦).

(٢) أخرجه الإمام الربيع في الزيادات، باب: الحجة على من لا يرى الصلاة على موتى أهل القبلة (٧٧٧).

٦٢. ثُمَّ اليَهُودُ النَّصَارَى وَالْمَجُوسُ مَعًا
وَالصَّابِئُـونَ لَهُـمْ حُكْـمٌ وَقَـدْ عُقِلا

٦٣. يُسَـالَمُونَ إِذَا انْقَادُوا عَلَى صِغَرٍ
بِجِزْيَـةٍ، أَوْ أَبَـوْا فَالـكُلُّ قَـدْ قُتِلا

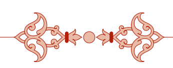
ذَكَرَ المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا حُكْمًا مُشْتَرَكًا بين أصحاب أَرْبَعِ مِلَلٍ من الْمِلَلِ السِّـتِّ؛ وهُم اليَهُودُ والنَّصَارَى والْمَجُوسُ والصَّابئون.

❖ فاليَهُودُ

هم أهلُ التَّوْرَاةِ التي يزعُمُونَ التَّمَسُّـكَ بِهَا، مع أنَّهم حَرَّفوا الكَلِمَ عن مواضعه، وأضافوا إلى التوراة ما ليس فيها، وحَذَفُوا ما لَمْ يَـرُقْ لَهُمْ منها، فَضَلُّوا بذلك ضَلالًا مُبِينًا.

❖ والنَّصَارَى

هم أهل الإنْجِيل، وقد وَقَعُوا فيما وَقَعَ فيه اليهودُ من التحريف والتبديل والضلال.



❖ وأمَّا الصَّابئون

فهم قومٌ لَمْ يَتَّضِحْ للنـــاسِ مُعْتَقَدُهُمْ لإخفائِهِ عن غيرهم، ولَمْ يــأتِ القرآنُ ببيــانِ ما يعتقدون فيكونُ عليه الْمُعَوَّلُ في إثبات ذلك، لذلك وَقَعَ الخلافُ بين أهل العلم كثيرًا في مُعْتَقَداتِهِمْ، فقيل: كانوا مُتَمَسِّكين برسالةٍ سَمَاوِيَّةٍ ـ وهي رِسَــالَةُ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ ووقعوا في التحريف والتبديل كغيرهم. وقيــل إنَّهم يَعْبُدُونَ الملائكة. وقيل بَلْ يعبدون الكواكبَ ولكنَّهم يَرْمُزُونَ بِهَا إلى الملائكة. وقيل بأنَّ دِينَهُمْ خَليطٌ مِمَّا جاء في الإنجيل والتوراة والقرآن، إذْ أَخَذُوا مِنْ كلِّ ما طابَ لَهُمْ وقالوا: أَصَبْنَا دِينًا. وقد بَسَــطْتُ القولَ فيهم في تفسيرِنَا، فَلْيُرَاجِعْهُ مَنْ شَاءَ.

❖ وأمَّا الْمَجُوسُ

فهم أصحابُ زَرَادشْــت الذي يُنْسَبُونَ إليه، وهم يَعْبُدُونَ النارَ، ومِنَ الناس مَنْ يقول بأَنَّهُم كانوا أهلَ كتابٍ فَرُفِــعَ عنهــم لِتَغْييرهم، وقد رأيْــتُ العلامَةَ أبا زُهْرَةَ في كتابه «خَاتَم النبييــن» يَجْزِمُ بأنَّهم أهلُ

كتابٍ، بَلْ ويَجْزِمُ بأنَّ زرادشْت الذي يَنْتَسِبُونَ إليه كان نَبِيًّا رسولًا، ويستدلُّ لذلك بِمَا في كتابِهِم الذي بأيديهم مِنْ بَشَائِرِ بِعْثَةِ النبي ﷺ؛ مُؤَكِّدًا أنَّ ذلك لا يُمْكِنُهُمْ أنْ يَتَوَصَّلُوا إلى عِلْمِهِ إلّا بِطَريقِ الوَحْيِ.
وأَرَى في القَطْعِ بذلك مُجَازَفَةً؛ لِعَدَمِ وُجودِ ما يُشِيرُ في القرآنِ الكريمِ إلى نُبُوَّةِ زرادشْت، وعَدَمِ وُرُودِ ذلكَ عن النبيِّ ـ عليه أفضلُ الصلاةِ والسلامِ ـ، واحْتِمَالِ أنْ تَكُونَ بَشَائِرُ بِعْثَةِ رسولِ اللهِ ﷺ وَصَلَتْهُمْ باخْتِلاطِهِمْ بِمَنْ أُوتِيَ عِلْمَ الكِتَابِ.

هذا؛ وَالحُكْمُ الذي ذَكَرَهُ هُنَا لِهَذِهِ الْمِلَلِ الأَرْبَعِ ـ وَهُوَ أَنَّهُم يُسَالَمُونَ إذا أَدَّوُا الجِزْيَةَ عَنْ صَغَارٍ ـ إِنَّمَا هُوَ ثَابِتٌ في أهلِ الكِتَابَيْنِ بِالنَّصِّ عَلَيْهِ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. إِذْ جَعَلَ الغَايَةَ مِنْ مُقَاتَلَتِهِمْ رُضُوخَهُمْ لأَنْ يُعْطُوا الجِزْيَةَ وَهُمْ صَاغِرُونَ،

وَهَذَا بَعْدَ أَنْ يُعْرَضَ عليهم الإِسْلامُ وَيَرْفُضُونَ، فَإِنْ قَبِلُوهُ كانوا إِخْوَانَنَا، لَهُمْ ما لَنَا وعليهم ما عَلَيْنَا.

وأمَّا الصَّابِئُونَ فَإِنَّ إِجْرَاءَ هَذَا الحُكْمِ عَلَيْهِمْ لِقَرْنِهِمْ بِأَهْلِ الكِتَابِ في أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ في القُرْآنِ، كَقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]. عَلَى أنَّ اقْتِرَانَهُمْ بِهِمْ في مَقَامِ التَّبْشِيرِ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَعَمِلَ صَالِحًا يُوحِي بِأَنَّهُمْ كانوا أَهْلَ كِتَابٍ كَمَا قِيلَ.

وَأمَّا الْمَجُوسُ فَإِلْحَاقُهُمْ بِأَهْلِ الكِتَابِ لِمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنَ السُّنَّةِ.

والجِزْيَةُ الَّتي يُعْطُونَهَا هي ضَرِيبَةٌ مَالِيَّةٌ يأخُذُها منهم إمامُ الْمُسْلِمِينَ، لِيَتَمَتَّعُوا بالأَمْنِ والاسْتِقْرَارِ في كَنَفِ دَوْلَةِ الإِسْلامِ، فلا يُنَالَوْنَ بِأَذىً في أَنْفُسِهِمْ ولا في أَهْلِيهِمْ ولا في ذَرَارِيهِمْ ولا في أَمْوَالِهِمْ، وَيَنْعَمُونَ بِحُقُوقِ الْمُوَاطَنَةِ العَامَّةِ، ويُعْطَوْنَ بِذَلِك

ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُــولِهِ في هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَتَرَتَّبُ على ذَلِــكَ حِــلُّ أَكْلِ ذَبَائِحِهِمْ وَنِــكَاحِ الحَرَائِرِ مِنْ نِسَــائِهِمْ بلا خِلافٍ، أمَّا في حَــالِ حَرْبِهِمْ فلا تَحِلُّ عَلى الْمَشْــهُورِ نِسَــاؤُهُمْ، لأنَّ سَــبْيَهُنَّ مَشْــرُوعٌ، ولا يَجُــوزُ أَنْ تَكُونَ حَلِيلَةُ مُسْــلِمٍ عُرْضَةً لِلسَّــبْيِ، والخِلافُ في أَكْلِ ذَبَائِحِهِمْ، وَقَدْ شَــرَحْتُ ذَلِكَ فيما كَتَبْتُهُ في **أَحْكَامِ التَّذْكِيَةِ**.

هذا، والْجِزْيَةُ رَاجعةٌ إلَــى نَظَرِ الإمام، فَيَرْفَعُهَا أو يَخْفِضُهَا بِحَسَــبِ اخْتِلافِ الْحَالَةِ بَيْنَ اليُسْرِ والعُسْرِ والرّخْصِ والغَلاءِ، **هَــذَا هُوَ الصَّحِيــحُ**، ومِنْهُمْ مَنْ حَدَّدَهَا بِمِقْدَارٍ، واخْتَلَفُوا في ذلــك، وأَكْثَرُ قَوْلِ مَنْ حَدَّدَهَا: أنَّها عَلَى الغَنِيِّ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ دَنَانِيرَ مِنَ الذَّهَبِ أو ما يُعَادِلُهَا، وعلى الْمُتَوَسِّطِ دِينَارَانِ، وعلى الفَقِيرِ دِينارٌ، وذلــك في كُلِّ عَــامٍ، ولا يُؤْخَذُ علــى امْرَأَةٍ ولا عَبْــدٍ ولا مَجْنُونٍ ولا شَــيْخٍ هَــرِمٍ ولا رَاهِبٍ، واخْتُلِفَ في الْمُفْلِسِ، فقيل: لَيْسَتْ عليه جِزْيَةٌ، وهذا هو الظَّاهِرُ، وقِيلَ بَلْ هي عَلَيْهِ، لأَنَّهُ ـ وَإِنْ لَمْ يُمْكِنْهُ دَفْعُهَا ـ قَادِرٌ على دَرْئِهَا عَنْ نَفْسِهِ بالإِسْلامِ.

هذا؛ ولا تُنْكَحُ نِسَاءُ الْمَجُوسِ ولا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ وَإِنْ دَانُوا بِأَدَاءِ الْجِزْيَةِ، وإِنَّما يُلْحَقُونَ بِأَهْلِ الكِتَابِ فــي قَبُولِهَا منهم ومــا يَتَرَتَّبُ عليه مِــنْ أَمْنِهِمْ على أنفُسِهِمْ وعلى نِسَائِهِمْ وذَرَارِيهِمْ وعلى أمْوَالِهِمْ.

وسُــمِّيَتْ جِزْيَةً لأَنَّها تُجْزِي عَنْ دَمِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ وأمْوَالِهِمْ بِصَوْنِهَا بذلك.

وَإِنْ أَبَوا الإِسْــلامَ والجِزْيَةَ مَعًا فَإِنَّهُــمْ يُقَاتَلُونَ، ويَحِلُّ في قِتَالِهِمْ ما يَحِلُّ في قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ غنم أمْوَالِهِمْ وَسَبْيِ ذَرَارِيهِمْ وَنِسَائِهِمْ.

٦٤. وَالْمُشْرِكُونَ ذَوُو الأَوْثَانِ لَيْسَ لَهُمْ
سَــلامَةٌ غَيْــرَ إِنْ دَانُــوا بِمَــا نَــزَلا

هذا هو حُكْمُ الْمِلَّةِ السَّادِسَــةِ مِنْ هــذِه الْمِلَلِ السِّتِّ، وهي مِلَّةُ

❖ الإِشْرَاكِ بالله

وأُطْلِقَ على هؤلاء وَصْفُ الْمُشْرِكِينَ مَعَ مُشَارَكَةِ غَيْرِهِمْ لَهُمْ في الإِشْراكِ ـ كَالْمَجُوسِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ

النَّـــارَ، والصَّابِئِينَ الذين قِيـــلَ عنهم أنَّهُـــمْ يَعْبُدُونَ الكَوَاكِبَ أو الْمَلائكَةَ، واليَهُودِ الذين قالوا عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ، والنَّصَارَى الذين قالوا الْمَسِـــيحُ ابنُ اللهِ، وَقَالُوا بِأَنَّهُ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ، وقالوا بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ ـ لأنَّ هؤلاءِ أَعْمَـــقُ في وَصْفِ الشِّـــرْكِ، فكان لَهُمْ وَصْفًا غَالِبًـــا، ويَدْخُلُ فيهم الْمَلاحِدَةُ كالشُّـــيُوعِيِّينَ والوُجُودِيِّينَ والدَّهْرِيِّينَ، وكُلُّ أَصْحَابِ الدِّيَانات التي لا صِلَةَ لَهَـــا بِوَحْيِ السَّـــمَاءِ، فَـــإِنَّ هـــؤلاءِ جَمِيعًا لا سَلامَةَ لَهُمْ مِنْ حُكْمِ السَّيْفِ إِلَّا أنْ يُقْلِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ والضَّلالِ، ويَدِينُوا دِينَ الحَقِّ، لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥].

ولا تُؤْخَذُ مِنْ هـــؤلاءِ جِزْيَةٌ، ولا تَحِلُّ نِسَـــاؤُهُمْ ولا ذَبَائِحُـــهُمْ بِحَالٍ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفـــال: ٣٩]، ولا يَجُـــوزُ أيضًا إِنْكَاحُهُـــمْ مُسْـــلِمَةً لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ

وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ولِقَوْلِهِ: ﴿ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٠]، ويَدْخُلُ في هذا أَهْلُ الكِتَابِ، فلا يَجُوزُ إِنْكَاحُهُمُ الْمُسْلِمَاتِ إِجْمَاعًا، ولَوْ جَازَ نِكاحُ الْحَرَائِرِ مِنْ نِسَائِهِمْ.

فإِنْ قِيلَ: مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ هذِهِ التَّفْرِقَةُ؛ بِحَيْثُ جَازَ نِكَاحُ نِسَاءِ أَهْلِ الكِتَابِ وَلَمْ يَجُزْ إِنْكَاحُهُمُ الْمُسْلِمَاتِ؟ فَإِنِ اعْتُبِرُوا دَاخِلِينَ في الْمُشْرِكينَ فَإِنَّ النَّهْيَ عَنْ نِكَاحِ الْمُشْرِكَاتِ كالنَّهْيِ عَنْ إِنْكَاحِ الْمُشْرِكِينَ سَوَاء، وَإِنِ اعْتُبِرُوا غَيْرَ داخلين فيهم فلا دَلِيلَ على مَنْعِ إِنْكَاحِهِمْ، أَمَّا قَوْلُهُ تعالَى: ﴿ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ فَإِنَّما هو في مُشْرِكِي العَرَبِ، لأَنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ فيما يَتَعَلَّقُ بِصُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ الَّذي أَبْرَمَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُشْرِكِي مَكَّةَ؟

قُلْنَا: هُمْ دَاخِلُونَ في حُكْمِ الْمُشْرِكِينَ، لأَنَّ وَصْفَ الشِّرْكِ يَنْطَبِقُ عَلَى كُلِّ مَنِ اتَّخَذَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ،

وَهُمْ كَذَلِكَ، وَقَدْ سَـبَقَ تَحْرِيرُ هَـذَا، وإِنَّمَا خَرَجَتْ نِسَاؤُهُمْ مِنْ عُمُومِ حُكْمِ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ مِنْ أَجْلِ تَخْصِيصِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

والْخُصُوصُ يَقْضِي على العُمُومِ، سَوَاءً تَقَدَّمَهُ أَوْ تَأَخَّرَ عَنْهُ، كَيْفَ وَهُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ؛ لأَنَّ سُـورَةَ الْمَائِدَةِ مِنْ آخِرِ القُرْآنِ نُزُولًا؟ فَلِذَلِـكَ انْعَقَدَ الإِجْمَاعُ على حِلِّيَّةِ نِسَـاءِ أَهْلِ الكِتَـابِ لِلْمُؤْمِنِينَ، علـى أَنَّ هَذِهِ الْحِلِّيَّةَ مُقَيَّدَةٌ عِنْدَنَـا وعِنْدَ كَثِيرٍ مِـنَ العُلَمَاءِ بِكَوْنِ الكِتَابِيَّةِ ذِمِّـيَّةً غَيْرَ مُحَارِبَةٍ، أَمَّا إِنْ لَمْ تَكُنْ كذلك فلا يَحِلُّ نِكَاحُها كما تَقَدَّمَ.

ومَشْرُوعِيَّةُ الزَّوَاجِ بالكِتَابِيَّاتِ ـ عِنْدَمَا يَكُنَّ عَلَى الذِّمَّةِ ـ فيها حِكْمَةٌ بالِغَةٌ، وَهِيَ أَنْ يَحْصُلَ التَّدَاخُلُ بين الْمُسْـلِمِينَ وأَهْلِ الكِتَابِ، ويَجِدُوا في مُعَامَلَةِ الْمُسْـلِمِينَ وأَخْلاقِهِمْ ما يَدْعُوهُمْ إِلَى اتِّبَاعِ دِينِهِمْ،

وَتِلْكَ هي وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ، وَمَعَ ذَلِك فإِنَّهُ عِنْدَمَـــا خَشِـــيَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يَكُـــونَ سَـــبَبًا لانْدِفَاعِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الكِتَابِيَّاتِ وَتَضَرُّرِ الْمُسْلِمَاتِ بِبَقَائِهِنَّ أَيَامَى نَهَى عَنْهُ، لا سِيَّما أَكَابِرَ الصَّحَابَةِ، كَقِصَّتِهِ مع حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وَمِـــنَ الْمَعْلُومِ أنَّ هذا الْمَطْلَـــبَ لا يَتَحَقَّقُ عندما يَكُونُ الْمُسْـــلِمُونَ ضُعَفَاءَ وَيَكُـــونُ الكِتَابِيُّونَ أقْوَى، فَفِي هَـــذِهِ الحَالَةِ بَدَلًا مِـــنْ أنْ يَكُونَ الـــزَّوَاجُ مِنْهُمْ وَسِيلَةً مِنْ وَسَـــائِلِ الدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلام يُصْبِحُ الأَمْرُ في مُنْتَهَى الخَطَرِ علـــى الدِّينِ، بِحَيْـــثُ لا يَبْعُدُ أنْ تَسْتَوْلِيَ الكِتَابِيَّةُ على أوْلادِ الْمُسْـــلِمِ مِنْهَا، فَتُنَشِّئُهُمْ على مِلَّتِهَا كما تُرِيدُ، وَقَدْ وَقَعَ ذلك فِعْلًا، إِذِ انْحَرَفَ بِهَذَا عَدَدٌ مِنْ أوْلادِ الْمُسْـــلِمِينَ فَاعْتَنَقُـــوا النَّصْرَانِيَّةَ، وَقَدْ حَدَثَ هَذَا لِكَثِيرٍ مِنْ أوْلادِ العُمَانِيِّينَ مِمَّنْ نَعْرِفُ آبَاءَهُمْ، بَلْ وَقَعَ أَحَدُ هَـــؤُلاءِ الَّذِينَ لا يُبَالُونَ بِمَصِيرِ أفْلاذِ أكْبَادِهِمْ في غَرَامٍ يَهُودِيَّـــةٍ بريطانِيَّةٍ عِنْدَمَا كان يَدْرُسُ في دَارِ الغُرْبَةِ، فَتَزَوَّجَهَا وَوَلَدَتْ مَوْلُودًا نَشَّأَتْهُ

على اليَهُودِيَّةِ، وانْتَزَعَتْـهُ مِنْ يَدِ أَبِيهِ فَأَلْحَقَتْهُ بِالكيان الصهيوني، فَأَصْبَحَ يَهُودِيَّ الْمُعْتَقَدِ صهيوني النَّزْعَةِ والْجِنْسِيَّةِ، أَوَلا يَكْفِي هَذَا عِبْرَةً لِعُبَّادِ الشَّهَوَاتِ الَّذِينَ لا يُبَالُونَ بِمُسْتَقْبَلِ أَفْلاذِ أَكْبَادِهِمْ وَثَمَرَةِ أَفْئِدَتِهِمْ ؟! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٧].

هَذَا؛ وَلَئِنْ كان عُمُومُ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١] مُخَصَّصًا بِجَوَازِ نِكَاحِ الكِتَابِيَّاتِ مَعَ مُرَاعَاةِ القُيُودِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعالَى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٢١] بَاقٍ على عُمُومِهِ، فَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمَةٍ الاقْتِرَانُ بِأَيِّ مُشْرِكٍ كَانَ، سَوَاءً وَثَنِيًّا أَوْ كِتَابِيًّا، مَعَ اعْتِضَادِهِ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]. إِذْ لا خِلافَ في كُفْرِ أَهْلِ الكِتَابِ بَعْدَ تَحْرِيفِهِمْ وَتَبْدِيلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِنَبِيِّنَا ﷺ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ.

ولا يُعَكِّرُ هَذَا الاسْتِدْلالَ كَوْنُ الآيَةِ الكَرِيْمَةِ نَزَلَتْ

في مُشْـــرِكِي العَرَبِ؛ لأَنَّ الْحُكْمَ نِيطَ بِالكُفْرِ وَجُعِلَ عَامًّا فـــي الكُفَّـــارِ، والْحُكْمُ عَلَـــى الْمُشْـــتَقِّ يُؤْذِنُ بِعِلِّـيَّتِهِ، ولا عِبْرَةَ بِخُصُوصِ السَّبَبِ مَعَ عُمُومِ اللَّفْظِ، وَمَـــا كان مِنْ تَزْوِيـــجِ النَّبِـــيِّ ﷺ بَعْضَ بَنَاتِـــهِ بِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فَذَلِكَ قَبْلَ مَشْرُوعِيَّةِ هَذَا الْحُكْمِ.

٦٥. وَالحُكْمُ إِنْ حَارَبُوا فِي الكُلِّ مُتَّحِدٌ
نَهْـــبٌ وَسَـــبْيٌ وَقَتْـــلٌ فِيهِـــمُ فُعِـــلا

٦٦. حَاشَـــا قُرَيْشًا فَإِنَّ السَّـــبْيَ مُمْتَنِعٌ
فِيهِمْ عَلَى قَوْلِ أَهْـــلِ الْمَغْرِبِ الفُضَلا

يَعْنِي أَنَّ جَمِيعَ هَؤُلاءِ الْخَارِجِينَ عَنْ مِلَّةِ الإِسْلامِ ـ سَوَاءً كانوا يَهُودًا أو نَصَارَى أو صَابِئِينَ أو مَجُوسًا أو مُشْـــرِكِينَ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ أو مَلاحِدَةً مِمَّن لا دِينَ لَهُمْ ـ يَتَّحِدُ حُكْمُهُمْ إِنْ حَارَبُوا الْمُسْلِمِينَ، وهو **قَتْلُ مُقَاتِلَتِهِمْ وغنم أَمْوَالِهِمْ وَسَـــبْيِ ذَرَارِيهِمْ وَنِسَـــائِهِمْ**، وفي هَذِهِ الحَالَةِ لا يَحِلُّ نِكَاحُ نِسَـــاءِ أَهْلِ الكِتَابِ، لأَنَّهُنَّ عُرْضَةٌ للسَّبْيِ كما ذَكَرْنَا.

واخْتُلِفَ في **حِـلِّ ذَبَائِحِهِمْ**، فَجُمْهُورُ أصحابِنَا لا يَرَوْنَ حِلَّهَا حَتَّى يَكُونُوا أَهْلَ ذِمَّةٍ، وَذَهَـبَ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَجُمْهُورُ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ الأُخْـــرَى إِلَى أَنَّهم إِنْ ذَكُّوهَا ذَكَاةً شَـــرْعِيَّةً حَسْـــبَمَا يَدِينُون فَهِيَ حَلالٌ، وهُوَ أَقْوَى دَلِيلًا كَمَا بَسَطْـــتُهُ فِيمَا كَتَبْـتُهُ في الذَّبَائِحِ.

واخْتُلِفَ في **السَّـــبْيِ**؛ هَلْ يَشْمَلُ جَمِيعَ العَنَاصِرِ والشُّـــعُوبِ أَوْ يُسْـــتَثْنَى مِنْ حُكْمِهِ بَعْضُهُمْ؟ فقِيلَ باسْـــتِثْنَاءِ العَرَبِ مُطْلقًا، وهذا قَوْلُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ مِنْ أَصْحَابِنَا، لِمَا يُـــرْوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لا رِقَّ على عَرَبِـــيٍّ بَعْدَ اليَـــوْمِ». وقِيلَ باسْتِـــثْنَاءِ قُرَيْشٍ وَحْدَها تَكْرِيْمًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وهو مَعْنَى قَوْلِ الْمُصَنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

حَاشَـــا قُرَيْشًا فَإِنَّ السَّـــبْيَ مُمْتَنِعٌ
فِيهِمْ عَلَى قَوْلِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ الفُضَلا

وَقِيلَ بِعَدَمِ اسْـــتِثْنَاءِ أَحَدٍ، لأَنَّ عِلَّـــةَ ذلك هِيَ الإِشْـــرَاكُ، وَهُمْ جَمِيعًا مُشْـــتَرِكُونَ فيه، مَع أَنَّهُ عليه الصلاة والسلام قال يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ لِقُرَيْشٍ: «اذْهَبُوا فَأَنْـــتُمْ

الطُّلَقَاءُ»، وهو وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَصًّا في اعْتِبَارِهِمْ سَبَايَا قَبْلَ أَنْ يُنْعِمَ عليهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بِمَا أَنْعَمَ به عَلَيْهِمْ مِنَ الإِطْلاقِ؛ فَإِنَّهُ يَسُوغُ أَنْ يُسْتَنْتَجَ منه هَذَا الْحُكْمُ لِمَنْ رَأَى ذلك، إِذِ الإِطْلاقُ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ قَبْضٍ، وقد سَبَى ﷺ قَوْمًا مِنَ العَرَبِ كما وَقَعَ ذلك في هوازن وبَنِي الْمُصطلق. وما وَرَدَ مِنْ أَنَّهُ قَالَ: «لا رِقَّ على عَرَبِيٍّ بَعْدَ اليَوْمِ» لَمْ أَجِدْ لَهُ سَنَدًا، ولَوْ ثَبَتَ ذلك لَمَا وَقَعَ خِلافٌ في مَضْمُونِهِ.

عَلَى أَنَّ السَّبْيَ إِنَّما هُوَ إِجْرَاءٌ عَسْكَرِيٌّ، ولا يَلْزَمُ أَنْ يَتَرَتَّبَ عليهِ الاسْتِرْقَاقُ، وإِنَّما كانَ ما كانَ مِن اتِّبَاعِ هذا الإِجْرَاءِ لأَجْلِ ضَرُورَةِ الْمُعَامَلَةِ بِالْمِثْلِ، لِئَلا يُكَالَ الشَّرُّ لأُمَّةِ الإِسْلامِ وَهِيَ مَكْتُوفَةُ الأَيْدِي عَنِ الرَّدِّ بِمِثْلِهِ، مَعَ ما فِيهِ مِنَ الأَسْبَابِ لاهْتِدَاءِ السَّبايَا إِلَى الإِسْلامِ وإِنْقَاذِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ وضَلالِهِ، وَإِلَّا فَإِنْ كانَتْ مَصْلَحَةُ الإِسْلامِ والأُمَّةِ في عَدَمِ الاسْتِرْقَاقِ فإِنَّ ذلك هُوَ الذي يُؤْخَذُ بِهِ.

ومِمَّا يَدُلُّ عليه قولُهُ تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤]. إِذْ لَمْ يَذْكُرْ سُبحانه وتعالى هُنَا إِلَّا طَرِيقَيْنِ في مُعَامَلَةِ الأَسْرَى، وَهُمَا: الْمَنُّ عليهم بِإِطْلاقِ سَرَاحِهِمْ ومُفَادَاةُ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ بِهِمْ، إِذِ الأَصْلُ في الإنسانِ الْحُرِّيَّةُ، والرِّقُّ عَارِضٌ لَهُ.

ولِذَلِكَ أبْطَلَ الإسلامُ جميعَ وَسَائِلِه إِلَّا هَذِهِ الوَسِيلَةَ الوَاحِدَةَ الَّتي اقْتَضَتْهَا ضَرُورَةُ التَّعامُلِ بِالْمِثْلِ، لِئَلَّا يَقِفَ الْمُسْلِمُونَ مَوْقِفَ الذُّلِّ والضَّعْفِ أمامَ أعْدَائِهِمْ، ومع قِيَامِ الْمُعَاهَدَاتِ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ غَيْرِهِمْ على عَدَمِ اسْتِرْقَاقِ أَسْرَى الْحَرْبِ والْتِزَامِ ذلك مِنْ قِبَلِ الغَيْرِ لا تَبْقَى ضَرُورَةٌ دَاعِيَةٌ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ تَقْدِيمُ الْمَنِّ على الفِدَاءِ في الآيةِ الكَرِيْمَةِ إِلَّا دَلِيلًا على سَمَاحَةِ الإِسْلامِ وعَظَمَتِهِ واعْتِدَالِهِ ورِفْقِهِ، وذلك بِخِلافِ ما يُرَوِّجُهُ خُصُومُهُ ويُحَاوِلُونَ إِلْصَاقَهُ بِهِ مِمَّا هُوَ مِنْهُ بَرَاءٌ.

٦٧. وَالذِّبْحَ[١] إِنْ سَالَمُوا أَهْلُ الكِتَابِ مَعَ النْـ * ـنِكَـــاحِ مِنْهُـــمْ أَجِـزْ إِلا الإِمَـاءَ فَـلا

هذا الحُكْمُ خَاصٌّ بِأَهْلِ الكِتَـــابِ ـ كما تَقَدَّمَ ـ، وهُوَ إِبَاحَةُ أَكْلِ ذَبَائِحِهِمْ ونِكَاحِ الْحَرَائِرِ مِنْ نِسَائِهِمْ، وَقَـــيَّدَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى حِلِّيَةَ ذَبَائِحِهِمْ بِمَا يُقَيِّدُ نِكَاحَ الحَرَائِرِ مِنْ نِسَـــائِهِمْ؛ وَهُوَ كَوْنُهُمْ مُسَالِمِينَ أيْ غَيْرَ مُحَارِبِينَ، وهو مَذْهَبُ جُمْهُورِ أصحَابِنَا ـ كما تَقَدَّمَ ـ خِلافًا لِرَأْيِ جُمْهُورِ الأُمَّةِ.

وقد اخْتَرْتُ غَيْرَ هذا القَوْلِ ـ كما أَشَرْتُ مِنْ قَبْلُ ـ لِمَا في صَحِيحِ البُخَارِيِّ: «مِنْ أَنَّ الْمُسْـلِمِينَ أَخَذُوا يَوْمَ خَيْـبَرَ جِرَابَ شَحْمٍ أَلْقَاهُ اليَهُودُ مِنْ دَاخِلِ حِصْنِهَا فَأَكَلُوهُ»[٢]، وإِنْ كانَ ما ذَهَبَ إِلَيْـــهِ جُمْهُورُ أصحابِنَا أَبْلَغَ في الاحْتِيَاطِ وأَقْعَدَ مِنْ حَيْثُ النَّظَرُ إِلَّا أنَّ الْخَبَرَ

(١) الذِّبح ـ بكسـر الذال ـ: اسـم لما يُذبح من الحيوان، قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾. وأما الذَّبــح ـ بفتح الذال ـ فهو فعل الذابح من قطع الحلقوم ونحوه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر (٤٢١٤).

أَبْطَلَـــهُ، ولا حَـــظَّ لِلنَّظَرِ مَـــعَ الأَثَـــرِ، ولا رَيْبَ أنَّ الاحْتِيَاطَ بابٌ وَاسِعٌ ويَنْبَغِي الأَخْذُ بِهِ في العَمَلِ، أمَّا في الإِفْتَـــاءِ والْحُكْمِ فَيُؤْخَذُ بالدَّليـــلِ، كما قَالَ إِمَامُ الْمَذْهَبِ أبو سَـــعيدٍ الكُدَمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «لَيْسَ العالِمُ مَنْ حَمَلَ النَّاسَ على وَرَعِهِ، وإِنَّما العَالِمُ مَنْ أَفْتَاهُمْ بِمَا يَسَعُهُمْ في دِينِهِمْ».

وأمَّا حِلُّ **تَزَوُّجِ نِسَائِهِمْ** فهو مُقَيَّدٌ بِقَيْدَيْنِ:

❖ **أَوَّلُهُما:**

أنْ يَكُونَ ذلك في حَالَةِ سِـــلْمٍ لا في حَالَةِ حَرْبٍ، لأنَّ الْمُحَارِبَةَ عُرْضَةٌ لِلسَّـــبْيِ ـ كما تَقَدَّمَ ـ، ثُمَّ إنَّها لا يُؤْمَنُ مِنْهَا أنْ تَكُونَ عَيْـنًا لأهْلِ مِلَّتِهَا، تَدُلُّهُمْ على ثَغَـرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَعَوْرَاتِهِمْ، وَمَنِ الَّذي يَأْمَنُ اليَوْمَ ـ وَقَـــدْ تَحَالَفَـــتِ اليَهُودِيَّـــةُ والصَّلِيبِيَّـــةُ على حَرْبِ الإِسْـــلامِ وَأَهْلِهِ ـ مِنْ إِقْحَـــامِ العُنْصُرِ النِّسَـــائِيِّ في سِيَاسَتِهِمُ الْحَرْبِيَّةِ، واتِّخَاذِ اللَّوَاتِي يَقْتَرِنَّ مِنْهُنَّ بِرِجَالِ الْمُسْـــلِمِينَ عُيُونًا عليهم يَكْشِـــفْنَ لأَقْوَامِهِنَّ ما خَفِيَ عليهم مِنْ ثَغَرَاتِ أُمَّةِ الإِسْـــلامِ وعَوْرَاتِهَا، لا سِـــيَّما

أولئِكَ اللَّاتِي يَتَسَــنَّى لَهُنَّ الاقْتِرَانُ بِرِجَالِ السِّيَاسَةِ والْحَرْبِ، فَيَصْطَدْنَ مِنْهُمْ أَسْرَارَ الأُمَّةِ لِيَبْثُـثْـنَهَا أَبْنَاءَ مِلَّتِهِنَّ عَبْرَ قَنَوَاتٍ مُخَصَّصَةٍ لِذَلِكَ؟! فَكَمْ مِنْ أَسِيرِ شَهْوَتِهِ رُزِئَتِ الأُمَّةُ بِسَبَبِهِ؛ إِذْ بَاحَ بِمَا يُكِنُّهُ مِنْ أَسْرَارٍ إِلَى الَّتِي يَعُدُّهَا شَرِيكَةَ حَيَاتِهِ سَــاعَةَ هَيَجَانِ شَهْوَتِهِ وَلَوْعَةِ غَرَامِــهِ، فاطَّلَعَتْ علـــى ما لا يَطَّلِعُ عليه مِنَ الأُمَّةِ إِلَّا خَاصَّـتُهَا مِنْ أَسْرَارِ السِّيَاسَةِ الْحَرْبِيَّةِ، وهي لَمْ تَأْتِ إِلَيْهِ إِلَّا لِتَخْدُمَ مَصْلَحَةَ أُمَّتِهَا، فَلَمْ تَأْلُ جَهْدًا في القِيَــامِ بِمُهِمَّتِهَــا والْحِفَــاظِ على مَسْــؤُولِيَّتِهَا، فأصْبَحَتِ الأُمَّــةُ هِيَ الْخَاسِــرَةَ، إِذْ رَاحَــتْ ضَحِيَّةَ شَهَوَاتِ كُبَرَائِهَا.

❖ **ثَانِيهِمَا:**

أَنْ تَكُونَ حُــرَّةً، إِذْ لا تَحِلُّ إِمَــاءُ أَهْلِ الكِتَابِ، لأَنَّ حِلِّيَّةَ نِكَاحِ الأَمَةِ مَشْــرُوطَةٌ في القُــرْآنِ بِعَدَمِ اسْــتِطَاعَةِ الطَّــوْلِ إِلَى نِــكَاحِ الْمُحْصَنَــاتِ ـ أي الْحَرَائِرِ ـ وخَوْفِ العَنَتِ ـ وَهُــوَ الوُقُوعُ في الزِّنا ـ مَعَ كَوْنِ الأَمَةِ الْمَنْكُوحَةِ مُؤْمِنَةً، وذلك لِقَوْلِهِ تعالَى:

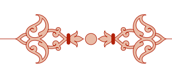
﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إِلَى قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

وهذا التَّشْدِيدُ إِنَّما هُوَ لأَجْلِ الْمُحَافَظَةِ مِنَ الْمُسْلِمِ على أَفْلاذِ كَبِدِهِ وَثَمَرَاتِ فُؤَادِهِ لِئَلا يَكُونُوا عُرْضَةً لِلرِّق، وَلِئَلَّا يَكُونُوا تَبَعًا لِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ الأَوْلادَ كَمَا يَتْبَعُونَ آباءَهُمْ في الأَنْسَابِ يَتْبَعُونَ أُمَّهَاتِهِمْ في الْحُرِّيَّةِ أو الرِّقِّ، فلذلك ما كانَ لِلْمُسْلِم أنْ يَلْجَأَ إِلَى مَا يُرِقُّ أولادَه في سَبِيلِ قَضاءِ شَهْوَتِهِ، إِلَّا أنْ لا يَجِدَ مَنَاصًا مِنْ ذلك، بِحَيْثُ لا يَقْدِرُ على مُقَاوَمَةِ غَرِيزَتِهِ ولا يَجِدُ سَبِيلًا إِلَى نِكَاحِ الْحُرَّةِ، فَيَتَخَلَّصُ بِهِ مِنْ تأثيرِ تلك الغَرِيزَةِ.

ومُنِعَ مِنْ أنْ تَكُونَ الأَمَةُ الَّتي يَنْكِحُها غَيْرَ مُسْلِمَةٍ؛ لِئَلَّا يُسْتَرَقَّ أولادُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الكِتَابِ، هذا هُوَ قَوْلُ أصحابِنَا والْجُمْهُورِ، وفي ذلك خِلافٌ بَسَطْتُهُ في بَعْضِ الفَتَاوَى فَلْيَرْجِعْ إِلَيْهِ مَنْ شَاءَ.

وقولُ الْمُصَنِّفِ رَحِمَهُ اللهُ: «إِلَّا الإِمَاءَ فَلا» جَرْيٌ على مَذْهَبِ أصْحَابِنَا وَوَافَقَهُمْ عليه الْجُمْهُورُ؛ وهو عَدَمُ حِلِّ نِكَاحِ الإِمَاءِ منهم، وقد عَضَّدُوا ذلك بِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، فَإِنَّ الْمُحْصَنَاتِ وَصْفٌ يَشْمَلُ الْحَرَائِرَ والعَفَائِفَ.





أسئلـة:

١. بيّن معنى المِلّة في اللغة العربية؟

٢. ما المقصود بالْمِلَل الست؟

٣. في أيّ ملّة يندرج الشيوعيون والملاحدة؟

٤. اختلف العلماء في وجوب معرفة الملل الست؟ بيّن هذا الخلاف، وما القول الذي يُؤيِّده الشارح؟

٥. اذكر دليلَين استدلّ بهما الشارح لما ذهب إليه؟

٦. كيف تردّ على مَن قال بوجوب معرفة الملل الست لذكرها في القرآن؟

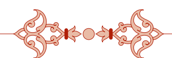
٧. هل أحكام الملل الست مذكورة في آية واحدة أو سورة واحدة؟

٨. بيّن صحّة هذه العبارة مِنْ عدمها: (اتفق العلماء على أحكام الملل الست)؟

٩. متى يلزم الإنسان معرفة الملل الست وأحكامها؟

١٠. مَنِ الذي يعنيه في الأكثر معرفة أحكام الملل الست؟

١١. مَن هم الذين يُحسبون على ملّة الإسلام؟ وما أقسامهم؟



١٢. ينقســـم الذين يرتكبون المحرمات إلى قســـمَين؟ اذكرهما؟

١٣. مَن هو المستحل؟ وما حكمه؟ اذكر مثالا عليه.

١٤. ما هو قول الخوارج في مرتكب الكبيرة؟ وما دليلهم؟

١٥. كيف تردّ على الخوارج في تأويلهم الآيات لبدعتهم؟

١٦. اذكر دليلا واضحًا من القرآن والسنة على فساد معتقد الخوارج؟

١٧. بيّن حُكم المنتهك؟

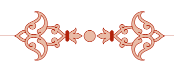
١٨. أيهما أشدّ: توبة المنتهك، أم توبة المستحل؟

١٩. ما هي حقوق المســـلمين العامة؟ وهل تشمل بَرَّهم وفاجرهم؟

٢٠. ما حكم البغاة من المسلمين؟

٢١. هل تجوز غنيمة أموال المسلمين أو سبي ذراريهم؟

٢٢. ذهب بعض العلماء إلى المنع من الصلاة على أصحاب الكبائر؟ اذكر هـــذه الكبائر، وبيِّن رأي الشـــارح في المسألة، والأدلة التي استدلّ بها؟



٢٣. مَن هم اليهود؟ وما سبب ضلالهم؟

٢٤. عرّف النصارى؟ وهل هناك شيء مشترك بينهم واليهود؟

٢٥. الصابئون قوم لم تتضح للناس عقائدهم، اذكر خلاف العلماء في ذلك؟

٢٦. بسط الشارح الكلام عن الصابئين في كتاب آخر، ما اسم ذلك الكتاب؟

٢٧. إلى مَنْ يُنسب المجوس؟ وماذا يعبدون؟

٢٨. كيف تردّ على مَنْ جزم بأنَّ المجوس أهل كتاب؟

٢٩. ذكر الناظم حكما واحدا لأربع ملل؟ اذكر هذه الملل وحكمها المشترك؟

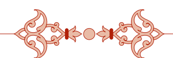
٣٠. ما هي الآية التي تـــدل على الحكم المذكور في أهل الكتاب؟

٣١. لماذا أجري على الصابئين حكم أهل الكتاب؟

٣٢. من أين عرفنا إلحاق المجوس بأهل الكتاب؟

٣٣. عرّف الجزية، وبيّن المقصود منها؟

٣٤. ما حكم أكل ذبائـــح أهل الذمة ونكاح الحرائر من نسائهم؟



٣٥. هل تحلّ نساء أهل الكتاب في حال الحرب؟ ولماذا؟

٣٦. ما حكم ذبائح أهل الكتاب المحاربين؟ وأين شرح الشارح هذه المسألة؟

٣٧. اختلف العلماء في تحديد مقدار الجزية، بيّن القول الصحيح في ذلك؟

٣٨. مَن هم الذين لا تُؤخذ عليهم جزية من أهل الكتاب؟

٣٩. بيّن خلاف العلماء في أخذ الجزية على المفلس؟

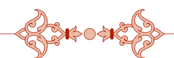
٤٠. إذا أدَّى المجوس الجزية فهل يحلّ للمسلمين نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم؟

٤١. لماذا سُمّيت الجزية بهذا الاسم؟

٤٢. ما حكم الملل الأربع المتقدمة إن أبت الإسلام ودفع الجزية معا؟

٤٣. هل يشترك المجوس والصابئون واليهود والنصارى مع المشركين في وصف الشرك؟ ولماذا خُصّ المشركون بهذا الوصف؟

٤٤. ما حكم المشركين؟ وهل تُؤخذ منهم جزية؟ وما حكم ذبائحهم ونكاح نسائهم؟ أوضح إجابتك بالأدلة.



٤٥. هل يجوز تزويج المشرك مسلمة؟ اذكر دليلين من القرآن على ما تقول؟

٤٦. لماذا لم يجُز للمسلمين إنكاح الكتابيين، مع حِلّ نساء أهل الكتاب للمؤمنين؟

٤٧. ما الحكمة من مشروعية الزواج بالكتابيات الذمّيات؟

٤٨. لماذا نهى سيدنا عمر رضي الله عنه عن الزواج بالكتابيات؟

٤٩. بيّن خطر الزواج من الكتابيات في هذا العصر؟

٥٠. للخارجين عن ملة الإسلام حكم واحد إن حاربوا المسلمين، بين هذا الحكم؟

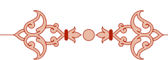
٥١. هل حكم السبي يشمل جميع شعوب المشركين؟ وما هو قول المشارقة والمغاربة في ذلك؟ وما القول الذي أيّده الشارح؟

٥٢. بيّن الحكمة من السبي؟

٥٣. أوضح سماحة الإسلام في معاملة أسرى الحرب؟

٥٤. ما هو قول جمهور أصحابنا في أكل ذبائح أهل الكتاب؟

٥٥. لماذا اختار الشارح القول بحليّة ذبائح أهل الكتاب المحاربين؟



٥٦. حِلّ زواج الكتابيات مقـيّد بقيدَين، اذكرهما إجمالا؟

٥٧. بيِّن خطر الزواج بالكتابية في حال الحرب؟

٥٨. ما هي شروط نكاح الأمة؟ وما الدليل على ذلك؟

٥٩. لماذا شدَّد الإسلام في شروط نكاح الإماء؟

٦٠. هل يجوز نكاح الإماء من الكتابيات؟



الإِمَامَةُ

٦٨. إِنَّ الإِمَامَةَ فَرْضٌ حِينَمَا وَجَبَتْ
شُرُوطُهَا، لا تَكُنْ عَنْ شَرْطِهَا غَفِلا

هي القيادةُ الكُبْرَى للأمَّةِ، وهي ضَرُورِيَّةٌ مِنْ أجْلِ جَمْعِ شَمْلِ الأمَّةِ وتأليفِ قلوبِهَا والنُّهُوضِ بِمَسْؤُوليَّاتِها، ومِنْ بَيْنِها: الدَّعْوَةُ إلى الْخَيْرِ، والأمرُ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وإقامةُ الحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ، وإِغَاثةُ الْمَلْهُوفين ونُصْرَةُ الْمَظْلُومِينَ، والجهادُ في سبيلِ اللهِ، وإقامةُ الْجُمُعَاتِ، فإنَّ ذلك مِنْ مَسْؤُولِيَّاتِ الأمَّةِ، ولا يُمْكِنُ أنْ يَقُومَ بذلك أفرادٌ مُشَتَّتُونَ، وإنَّما يَتِمُّ ذلك في حينِ قيامِ النِّظامِ الشرعيِّ، ووُجُودِ قائدٍ للأمَّةِ تُفَوِّضُ إليهِ أمْرَهَا وتُسْلِسُ لَهُ قِيَادَهَا، وتَحُوطُهُ بِنُصْحِها وتوجيهاتِهَا.

وهو مَنْصِبٌ لا يُخْتَارُ لَهُ إلَّا مَنْ كان **ذَا أَهْلِيَّةٍ تامَّةٍ**، وذلك بأنْ يكونَ رَجُلًا، مُسْلِمًا، وَرِعًا، سَلِيمَ

الحواسِّ والعَقْلِ، لَيْسَــت بِهِ عاهَةٌ، وأنْ يكونَ حُرًّا بالِغًا، مُتَمَتِّعًا بِمُؤَهِّلاتِ القِيَادةِ؛ مِنَ الإقدامِ وحُسْــنِ السياســةِ والْحِنْكَةِ وسَعَــةِ الصَّدْرِ ورَبَاطَةِ الجَأْشِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ، والخِبْرَةِ بشؤون الدينِ والدنيا، ومعنى هَــذا أنَّه لا بُدَّ مِنْ أنْ يكونَ عالِمًــا مُجْتَهِدًا، أو أنْ يكونَ مِنْ حَوْلِهِ عُلَماءُ يَسْــتَمِدُّ منهم خِبْرَتَه ويَرْجِعُ إليهم في حَلِّ الْمُشْكِلات.

وعلى كِلا الأمْرَيْــنِ لا مَنَاصَ لَهُ عن **الشُّــورَى،** وذلك بأنْ يَسْتشير في كلِّ شأنٍ أهلَ الخِبْرَةِ بِه، ففي مَجَالِ الشَّرْعِ يَسْتشــيرُ الفُقَهاءَ، وفي الشُّؤونِ الحَرْبيَّةِ يستشيرُ ذَوِي الخِبْرَةِ العَسْكَرِيَّةِ، وفي الشُّؤونِ الْمَالِيَّة يَرْجِعُ إلى ذَوِي الخِبْــرةِ الاقتصاديةِ، وهكذا في كُلِّ مَجَالٍ يَرْجِــعُ إلــى الْمُختَصِّينَ بِه، مَــعَ ضَبْطِ هذه الْمَشورَةِ بالأحكامِ الشَّرْعِيَّةِ، لأنَّ الشَّرِيعَةَ الربَّانية هي أسَاسُ هذا النِّظامِ.

وهذا الْمَنْصِــبُ إنَّما هــو **وِرَاثَةٌ للنُّبُــوَّةِ،** فَلِذَلِكَ لا يَتَبَوَّؤُهُ إلا مَنْ كان على مِنْهَاجِ الأنبياءِ، فَمَا لأهــلِ

الجَوْرِ والظُّلْمِ فيه مِنْ نصيبٍ، بِدَليلِ قولِهِ تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فكَمَا أنَّ الظالِمَ لا يكونُ نَبِيًّا قَطُّ كذلِكَ لا يَقْعُدُ على عَرْشِ خِلافةِ النُّبُوَّةِ.

ولا يُشْتَرَطُ لِهَذا الْمَنْصِبِ **نَسَبٌ** بِعَيْنِهِ، فَجَمِيعُ الناسِ مُتَسَاوِيَةٌ فيه أَقْدَامُهُمْ عندما تَتَوَفَّرُ فيهم الشُّرُوطُ الْمَطْلُوبةُ، فَلَيْسَ العَرَبِيُّ أَوْلَى بِهِ من الأَعْجَمِيِّ، ولا القُرَشِيُّ أَوْلَى بِهِ من غَيْرِهِ.

وإنَّما كانَ اختيارُ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ من قُرَيْشٍ في عَهْدِ الصَّحَابَةِ ـ رِضْوَانُ اللهِ عليهم ـ مُرَاعَاةً لِمَصْلَحَةِ سِيَاسَةِ الأُمَّةِ، فإنَّ الدولَةَ كانتْ قائمةً يومَئِذٍ على أَكْتَافِ العَرَبِ، لأنَّ مُعْظَمَ الرَّادَةِ في الإِسْلامِ كانُوا مِنْهُمْ، وكانت العربُ جَميعًا تُجِلُّ قُرَيْشًا لِمُجَاوَرَتِها بَيْتَ اللهِ تعالَى الذي وَرِثَت العَرَبُ تَعْظِيمَه، ولأَنَّها القائمةُ عليه، وذَلِكَ مِمَّا أَوْرَثَها مَكَانَةً في نُفُوسِ العَرَبِ جميعًا، وعَمَّقَ ذلك أَنِ اخْتَارَ اللهُ تعالى عَبْدَه

ورَسُولَه محمَّدًا ﷺ مِنْ بينِهم واسْتَخْلَصَهُ من ضِئْضِئِ نَسَبِهِمْ، فزادَهُمْ ذلك قَدْرًا ومكانةً، فَلِذَلِكَ كانَ جَمْعُ شَتَاتِهِمْ بِأَنْ يَتبَوَّأَ هَذِهِ الْمَكانَةَ واحِدٌ مِمَّنْ يَنْتَمِي إلى مَحْتِدِهِمْ أقْرَبَ إلى ما أُلِفَ مِنْ شأنِهِمْ وعُهِدَ في طِبَاعِهِمْ، ويُؤَكِّدُ ذلك أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه قال: «إنَّ العَرَبَ لا تَدِينُ إلا لِهَذا الحَيِّ من قريش».

وهذا مِمَّا يُؤَكِّدُ أنَّ اخْتِيَارَ الخُلَفَاءِ مِنْهُمْ كانَ إِجْرَاءً سِيَاسِيًّا مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَةِ الدِّينِ في ذلك العَهْدِ فَحَسْب، وفيما بَعْدَ ذلك إذا وُجِدَ الأَكْفَأُ مِنْ غَيْرِهِمْ فهو أَوْلَى بِهَذَا الشَّأْنِ، مَعَ أنَّ الذين اخْتِيرُوا لِلْخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ لَمْ يُخْتَارُوا لِقُرَشِيَّتِهِمْ فَحَسْب، وإنَّما لِسَابِقَتِهِمْ في الفَضْلِ، ولأَنَّهُمْ مِنَ السَّابقين الأوَّلِين من المُهَاجِرِينَ، فكانُوا أَحْرِيَاءَ بذلك.

فإذا وُجِدَ القائمُ بِهَذَا الأمْرِ **وَجَبَتْ على المُسْلِمِينَ طاعَتُهُ** ونَصِيحَتُهُ، فإنْ أَخْطَأَ صُوِّبَ، وإنْ نَسِيَ ذُكِّرَ، لأنَّ الْمُؤْمِنِينَ على الحَقِّ أعْوَانٌ، وهُمْ كالجَسَدِ الوَاحِدِ تَتَفَاعَلُ أعْضَاؤُهُ جميعًا مع كلِّ ما يَعْنِيهِ، وقد

عَطَفَ اللهُ تعالى طاعَةَ أُولِي الأَمْرِ على طاعَتِهِ وطاعةِ رَسُولِهِ ﷺ في قولِهِ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] أيْ: مِنَ الْمُؤْمِنينَ الذين يَتَّقُونَ اللهَ ويُطِيعُونَهُ ويأمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وينْهَوْنَ عن الْمُنْكَرِ، فإنَّ تِلْكَ هي أسبابُ مُوَالاةِ الْمُؤمنينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، كَمَا نَصَّ عَلَيْه قَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [التوبة: ٧١].

ثُمَّ إنَّه سُبْحَانَه أَمَرَ مع الاختلافِ أنْ يَكُونَ الاحْتِكَامُ إِلَيْهِ وإلى رَسُولِهِ ـ عليه أفضلُ الصلاة والسلام ـ، حيثُ عَطَفَ سبحانه على مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ طاعَتِهِ وطاعةِ رَسُولِهِ وأُولِي الأَمْرِ من الْمُؤْمِنينَ قولَهُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أنَّ وُجُوبَ هذِهِ الطَّاعَةِ مُقَيَّدٌ بِطَاعَتِهِ تعالى وطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ، أمَّا مَنْ خَرَجَ عن حُدُودِ

طاعَتِهِ ﷻ إلى مَعْصِيَتِهِ فلا طاعَةَ لَــهُ، ولِذَلِك قال أبو بَكْــرٍ رضي الله عنه: «إنِّــي وُلِّيتُكُــمْ وَلَسْــتُ بِخَيْرِكُمْ، فَأَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيكُمْ، وإِذَا عَصَيْـتُهُ فَلا طاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ».

وبِمَـا أنَّ مَنْ لَمْ يَـرْقَ إِلَى مَرْتَبَـةِ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْـيَارِ عُرْضَةٌ لِلْخَطَأِ والزَّلَلِ كانَ الحكمُ فيه إنْ وَاقَعَ مَعْصِيَــةً ـ وَلَوْ صغيرةً ـ أنْ يُسْــتَتَابَ، فإنْ تابَ أُقِرَّ، وإنْ أَصَرَّ وَجَبَ على أَهْلِ الحَلِّ والعَقْدِ عَزْلُـهُ وتقديــمُ غَيْـرِهِ مِمَّنْ يَـرَوْنَ فيه الرُّشْـدَ والصَّلاحَ.

أمَّا إِنْ كانت مَعْصِيَـــتُهُ تُوجِبُ عليه حَدًّا شَرْعِيًّا ـ كالزِّنا والسَّرِقَـــةِ وقَذْفِ الْمُحْصَـــنَاتِ وشُــرْبِ الخَمْرِ ـ فَـإِنَّ إِمَامَتَـهُ تَزُولُ بذلـك، ويَجِبُ على جَمَاعَــةِ الْمُسْــلِمينَ في هــذه الحَالَــةِ أنْ يَخْتَارُوا لأَمْرِهِمْ مَــنْ تَتَوَافَرُ فيه شُــرُوطُ الإِمَامَــةِ مِنْ أَهْلِ الصَّلاحِ وَالفَضْــلِ، ويَقُــومُ عِنْدَئِذٍ بِإِنْفَــاذِ الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ في الإِمَامِ الأَوَّلِ.

ومِنْ عَجَائِبِ الأَقْوَالِ قَوْلُ مَنْ ذَهَبَ إلى أَنَّهُ إنْ تَابَ يَبْقَى في إمَامَتِهِ، وإنَّما يُخْتَارُ مِنْ بَيْنِ المسلمينَ إمَامٌ مَوْقُوتٌ بِقَدَرِ ما يُقِيمُ عَلَيْهِ الحَدَّ الشَّرْعِيَّ. وَلَعَمْرُ الحَقِّ ما هُوَ إلَّا قِصَرُ نَظَرٍ مِنْ قَائِلِهِ، فَمَاذَا عَسَى أنْ تَكُونَ مَكَانَةُ الْمَحْدُودِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ مِنْ حَيْثُ التَّقْدِيرُ والتَّوْقِيرُ؟ وَلَوْ رَجَعَتْ إليهِ الوَلايَةُ بِتَوْبَتِهِ وَصَلَحَتْ أَحْوَالُهُ فإنَّه يَبْقى عُرْضَةً للسُّخْرِيَّةِ والاسْتِخْفَافِ واللَّمْزِ والنَّبْزِ. أَفَيَصْلُحُ مَعَ ذلك أنْ يَكُونَ قائِدًا للأُمَّةِ؛ يَلْتَئِمُ بِهِ أَمْرُهَا وتَأْتَلِفُ عليهِ قُلُوبُهَا؟ وَلَئِنْ كان الْمَحْدُودُ على الزِّنَا لَيْسَ كُفُؤًا لِمُحْصَنَةٍ عَفِيفَةٍ ولَوْ تَابَ مِنْ جَرِيرَتِهِ وإنَّما يُزَوَّجُ مِثْلَهُ مِنَ النِّسَاءِ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ أَهْلًا لأَنْ يَتَبَوَّأَ أَعْظَمَ مَنْصِبٍ دِينِيٍّ وسِيَاسِيٍّ واجْتِمَاعِيٍّ في الأُمَّةِ؟!

لذلك كانَ القولُ بِسُقُوطِ إمامَتِهِ بِمُجَرَّدِ ثُبُوتِ مُوجِبِ الحَدِّ عَلَيْهِ هو القَوْلَ الأَوْحَدَ الذي يَجِبُ أنْ يُعَوَّلَ عليه ولا يُلْتَفَتَ إلى ما سِوَاهُ.

٦٩. وَبَاطِلٌ سِيرَةٌ فِيهَا الإِمَامَةُ في اثْـ ❊ ـنَيْنِ لَوْ بَلَغَا في الْمَجْدِ مَا كَمَلا

الإِمَامُ هو وَاسِطَةُ عِقْدِ المُسْلِمِينَ، ونِظَامُ الإمامَةِ شُرِعَ في الإسلامِ مِنْ أَجْلِ جَمْعِ الشَّتَاتِ وتأْلِيفِ القُلُوبِ وتَقْرِيبِ القَاصِي، وهو يَتَنَافَى مَعَ التَّفَرُّقِ والاختِلافِ، ولِذَلِكَ كان غَيْرَ صَالِحٍ أَنْ يَجْمَعَ إِمَامَيْنِ مَعًا في وَقْتٍ واحِدٍ، لأَنَّ ذلكَ مِدْعَاةٌ لاخْتِلافِ الرَّأْيِ وتَشَتُّتِ الكَلِمَةِ، وقِيَامِ العَصَبِيَّةِ العَمْيَاءِ التي تَدْفَعُ بِجَمَاعَاتِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى تَعَصُّبِ كُلِّ جَمَاعَةٍ منهم لإِمَامٍ.

فإِنْ **بُويِعَا مَعًا** بَيْعَةً واحِدَةً فَبَيْعَتُهُمَا بَاطِلَةٌ، لأَنَّهما جَاءَتْ مُخَالِفَةً لِهَدْيِ الإسْلامِ، وفي الحَدِيثِ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1].

وإِنْ **سَبَقَتْ بَيْعَةُ أَحَدِهِمَا** ثُمَّ بُويِعَ الآخَرُ فالأَخِيرُ بَاغٍ يَجِبُ قَتْلُهُ إِنْ لَمْ يَتَرَاجَعْ عن بَغْيِهِ ويَدْخُلْ في

(١) أخرجه الإمام الربيع؛ باب: في الولاية والبراءة (٤٩).

طاعَةِ إِمَامِ المُسْلِمين الشَّرْعِيِّ، اللَّهُمَّ إلَّا أنْ تَكُونَ إِمَامَةُ الأَوَّلِ سَاقِطَةُ الاعتِبَارِ ـ لأنَّها قائمَةٌ على فَسَادٍ مِنْ أَصْلِهَا، أو لارْتِكَابِ الإمَامِ ما يُوجِبُ عَزْلَهُ، أو لِطُرُوِّ أمْرٍ قَهْرِيٍّ يُسْقِطُ إمَامَتَهُ كَجُنُونٍ ـ فإنَّ اجتمَاعَ أهلِ الحَلِّ والعَقْدِ في مِثْلِ هَذِهِ الحَالَةِ لِتَقْلِيدِ الإمَامَةِ غَيْرَهُ مِمَّن تَجْتَمِعُ فِيهِمْ أسْبَابُ الكَفَاءَةِ لِلاضْطِلاعِ بِمَسْؤُولِيَّاتِهَا مَطْلَبٌ شَرْعِيٌّ.

و**الدَّلِيلُ** على عَدَمِ جَوَازِ الإمَامَةِ لاثْنَيْنِ في وَقْتٍ واحِدٍ: انْعِقَادُ الإجْمَاعِ عليه، وذلك أنَّ الأنصارَ ﭫ أرادُوا ذلك أوَّلًا عندما قال قائلُهُمْ: «مِنَّا أَمِيرٌ ومِنْكُمْ أَمِيرٌ»، فَعَارَضَهُمُ الْمُهَاجِرُونَ وفي مُقَدِّمَتِهِمُ الصِّدِّيقُ ﭬ الذي قال: «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ. اللهُ واحِدٌ، والرَّسُولُ واحِدٌ، والإمَامُ واحِدٌ». فاسْتَقَرَّ إِجْمَاعُ الكُلِّ على ذلك، مَعَ ما جاءَ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «**إذا بُويِعَ لِرَجُلَيْنِ فاضْرِبُوا عُنُقَ الثَّانِي منهما**»[1].

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير/ باب: إذا بويع لخليفتين (١٨٥٣).

هذا كُلُّهُ إنْ كان نُفُوذُ دَوْلَةِ المسلِمينَ مُمْتَدًّا في الأرضِ، بِحَيْثُ لا يَفْصِلُ بَيْنَ جانبٍ مِنْ مَكَانِ نُفُوذِهِمْ وجانِبٍ آخَرَ عَدُوٌّ مُتَرَبِّصٌ، لأنَّ الاجتماعَ في هذه الحَالَةِ مُمْكِنٌ، فلا وَجْهَ لِلْعُدُولِ عنه إلى التَّشَتُّتِ والافْتِرَاقِ.

أمَّا إنْ كانَ **نُفُوذُ المسلمينَ في جِهَتَيْنِ مُتَنَائِيَتَيْن**، بِحَيْثُ يَتَعَذَّرُ أنْ تَتَوَحَّدَ مَرْجِعِيَّتُهُم الدِّينيَّةُ والسِّياسيَّةُ لِوُجُودِ ما يَصُدُّ نُفُوذَ الإمَامِ إنْ كَانَ في جِهَةٍ إلى الجِهَةِ الأُخْرَى؛ فَلا مَانِعَ مِنْ أنْ يَجْتَمِعَ أهْلُ كُلِّ جِهَةٍ على إِمَامٍ لَهُمْ وَحْدَهُمْ، كما حَصَلَ ذلك في القَرْنَيْنِ الثَّانِي والثَّالِثِ الهِجْرِيَّيْنِ في أهلِ دَعْوَةِ الحَقِّ والاستِقَامَةِ، حيثُ بُويِعَ لأَئِمَّةٍ منهم بالْمَشْرِقِ وأئِمَّةٍ بالْمَغْرِبِ، لِتَعذُّرِ أنْ يَقُومَ الإمَامُ الْمَشْرِقِيُّ بِرِعَايَةِ أمْرِ الْمُسْلِمِينَ الذينَ هُمْ بِالْمَغْرِبِ، وكذا العَكْسُ، ولَمْ يَكُنْ نَكِيرٌ لِهَذَا الأَمْرِ.

وعندَما يَزُولُ الحَاجِزُ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ حَيْثُ يَتَوَاصَلُ فَتْحُهُمَا إلى أَنْ تَصِلَ حُدُودُ دَوْلَةِ كُلِّ إمَامٍ إلى حُدُودِ

دَوْلَةِ الإِمَـامِ الآخَرِ؛ فَهُنَـا يَجِبُ أنْ يُـرَدَّ الأمْرُ إلى جَمَاعَةِ المسلمينَ مِنَ الجِهَتَيْنِ مَعًا، وهي التي تَخْتارُ مِنَ الإمامَيْنِ مَنْ كانَ أَكْفَأَ لِهَذا الْمَنْصِبِ بِعِلْمِهِ ودينِهِ وسياسَتِهِ وإقْدَامِهِ، وتَفَانِيهِ في هذا الأمْرِ، وتَرَفُّعِهِ عن مَطَامِعِ الدنيا، ورَغْبَتِهِ في أنْ يَقُـومَ بِهَذا الأمْرِ غَيْرُهُ وأنْ يُعْذَرَ هُوَ مِنْهُ، فإذَا وَقَعَ عليه الاختيارُ جُدِّدَتْ لَهُ البَيْعَةُ، لأنَّ بَيْعَةَ كُلِّ واحِدٍ منهما تَسْقُطُ بِمَا طَرَأَ مِنْ تَلاقِي حُدُودِ دَوْلَتَيْهِمَا.

٧٠. وَبَعْدَ مَا فُتِحَتْ أُمُّ القُرَى نُسِـخَا
مَا كَانَ مِـنْ هِجْـرَةٍ مَفْرُوضُهَا اتَّصَلا

يَعْني أنَّ فَتْحَ أُمِّ القُرَى في عهد الرَّسـول ﷺ كانَ سَـبَبًا لِنَسْـخِ ما كان يَجِبُ مِنْ هِجْرَةِ المسلمينَ إلى دارِ الهِجْرَةِ التي هـاجَرَ إليها رَسُـولُ اللهِ ﷺ؛ وهي طَيْـبَةُ الْمُبارَكَةُ ـ طَـيَّبَ اللهُ ثَرَاهَا ـ.

فقد كانت الهجـرةُ إليها مَطْلَبًا دِينِـيًّا لا يَسَـعُ المسْـلِمَ تَرْكُهُ في حالَـةِ الإمْكَانِ، حتـى أنَّ مَنْ لَمْ

يُهَاجِرْ لَمْ يَسْــتَحِقَّ وَلايَةَ المؤمنينَ لَهُ، لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ [الأنفال: ٧٢]، ومــا ذلك إلا لِمَا أَرَادَهُ اللهُ تعالى مِن اجتماعِ أمَّةِ الإســلامِ في صَــدْرِ تاريْخِهَا عندما تَمَخَّضَت الأَحْــدَاثُ فَتَمَّ مِيلادُهَــا، لِيَكُونَ في هذا الاجتمــاعِ الْتِفَافٌ مِنْ بَعْضِهَا حَــوْلَ بَعْضٍ، للتعاوُنِ على البِرِّ والتقوى، ولِيَتَرَبَّـــى أفرادُها في كَنَفِ دولَةِ الإسْــلامِ الناشِــئَةِ على التَّضْحِيَةِ والبَذْلِ والزُّهْدِ في الدنيا والرَّغْبَةِ فيما عِنْدَ اللهِ.

ولا رَيْبَ أنَّ في ذلك امتِحَانًا للمُهَاجِرينَ واختِبَارًا لِصِحَّةِ إيـــمانِهِمْ، فإنَّ هِجْرَتَهُمْ إنَّمــا كانتْ مِنْ دِيَارٍ أَلْفُوهَا، وأمْوَالٍ اقْتَنَوْهَا، ومَسَاكِنَ ارْتَضَوْهَا، مُتَجَرِّدِينَ مِنْ عَلائِقِ الدنيا، وذلك أمْرٌ لا يُوَطِّنُ عليهِ نَفْسَهُ إلا مَنْ كَان رَاسِخَ الإيـــمانِ مَاضِيَ العَزِيـــمَةِ، لا يَرَى الدنيا شيئًا بِجَانِبِ دِينِهِ.

فَلِذَلِكَ مَدَحَهُمُ اللهُ تعالى بقولِهِ: ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ

﴿وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وَوَعَدَهُمُ الحُسْنى بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١]، وقولِهِ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وَمَا كانتْ هَذِهِ الهِجْرَةُ إلى الْمُجْتَمَعِ الإسْلامِيِّ النَّظِيفِ النَّاشِئِ إلا رَمْزًا لِهِجْرَةِ الكُفْرِ والفُسُوقِ، وَتَوْلِيَةِ الوَجْهِ نَحْوَ مَرْضَاتِهِ ﷻ، مَعَ أنَّ الْمُجْتَمَعاتِ الأُخْرَى كانتْ عَفِنَةً بِنَتْنِ الكُفْرِ والفُسُوقِ، فَلَمْ تَكُنْ بِيئَتُهَا صَالِحَةً لاسْتِقْرَارِ الْمُؤْمِنِ بِهَا، لِذَلِكَ كُلِّهِ شُرِعَت الهِجْرَةُ وكانتْ لِزَامًا.

وَبَعْدَ مَا فُتِحَتْ أُمُّ القُرَى أي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة ـ حَرَسَهَا اللهُ ـ نُسِخَ وُجُوبُ الهِجْرَةِ، كما جاءَ في الحديث: «لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ»[١].

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير/ باب: فضل الجهاد والسير (٢٦٣١)، ومسلم في كتاب: الجهاد والسير/ باب: الْمبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير (١٨٦٤).

وذلك لأنَّ فَتْحَ مَكَّةَ كان إِيذَانًا بِفَتْحِ الْجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ بِأَسْرِهَا واسْتِقْرَارِ الإسلامِ بِهَا، فَلَمْ يَكُنْ دَاعٍ بعدَ ذلك إلى إلْزَامِ هذه الْجَمَاهِيرِ الْمُؤْمِنَةِ أَنْ تُهَاجِرَ مِنْ دِيَارِهَا وَتَسْتَقِرَّ في مِسَاحَةٍ مَحْدُودَةٍ مِنَ الأرض، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ في الذين هاجَرُوا إلى الْمَدِينَةِ قَبْلَ نَسْخِ الْهِجْرَةِ، فإنَّ في تَكْلِيفِ جميعِ الْمُؤمِنينَ بِهَذه الْهِجْرَةِ مَشَقَّةً بالِغَةً، والْحَنِيفِيَّةُ جاءَتْ باليُسْرِ لا بِالعُسْرِ، على أنَّ دَوَاعِيَ الْهِجْرَةِ التي كانتْ أوَّلًا انْتَهَتْ بِهَذَا الفَتْحِ، وإنَّمَا بَقِيَ الْجِهَادُ لِتَتَوَاصَلَ الفُتُوحُ في أطرافِ جَزِيرَةِ العَرَبِ وفِيمَا حَوْلَهَا مِنْ مَمَالِكِ الرُّومِ والفُرْسِ.

ولا يَعْني نَسْخُ وُجُوبِ الْهِجْرَةِ بَعْدَ الفَتْحِ أنَّها لا تَجِبُ على الإِطْلاقِ، فإنَّ الْمُسْلِمَ عندَما تَتَحَوَّلُ بِيئَتُهُ إلى بِيئَةِ كُفْرٍ ـ بِحَيْثُ يُفْتَنُ في دِينِهِ ويُصَدُّ عن ذِكْرِ اللهِ وعن الصَّلاة، ويكونُ غَيْرَ حُرٍّ في مُمَارَسَةِ الوَاجِبَاتِ الدِّينِيَّةِ وَتَرْبِيَةِ أَوْلادِهِ وأَهْلِهِ عَلَيْهَا ـ يَجِبُ عليهِ أنْ يَهْجُرَ تِلْكَ البِيئَةَ إلى بِيئَةٍ أُخْرَى يَجِدُ

إسْلامُهُ فيها مُتَنَفَّسًــا، ويَكُونُ آمِنًا على نَفْسِهِ وعلى أَهْلِهِ وأولادِهِ مِنَ الفِتْنَةِ في الدِّينِ والصَّدِّ عن ذِكْرِ اللهِ وعن الصَّلاةِ، لأنَّ الحُرِّيَّةَ الدِّينِيَّــةَ مَطْلَبٌ ضَرُورِيٌّ في حياة الْمُسْلِمِ.

ولَكِنَّ هــذه الهِجْرَةَ لا تَجِبُ إلى بَلَــدٍ مُعَيَّنٍ كما وَجَبَتْ مِنْ قَبْلُ إلــى أَرْضِ المَدِينَةِ، وإنَّما تَجِبُ إلى أيِّ بَلَدٍ من بلادِ الإسْلامِ التي يُرْفَعُ فيها عن المُسْلِمِ أيُّ ضَغْطٍ لِصَــدِّهِ عن الدِّين، فإنْ رَضِــيَ بِأَنْ يَعِيشَ مَفْتُونًا بَيْنَ الْمَلاحِدَةِ والكَفَرَةِ وهو قَادِرٌ على التَّخَلُّصِ منهم بالهِجْرَةِ إلى غَيْرِهِــمْ كان هَالِكًا، لقولِهِ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٧، ٩٨].

وهـــذا الْحُكْمُ يَنْطَبِقُ على كُلِّ الْمُسْلِمِينَ الذين يَقِفُونَ تَحْــتَ نِيــرِ الاسْتِعْــبَادِ القَهْرِيِّ مِــنْ قِبَلِ

أَعْدَائِهِـــمْ، كَمَا حَصَـــلَ لِمُسْـــلِمِي الأَنْدَلُسِ عندَما اجتاحَـــتْهم الْحُرُوبُ الصَّلِيـبِيَّةُ، وما حَلَّ بِكَثِيرٍ مِنْ بِلادِ الْمُسْـــلِمِينَ في القَرْنِ الْمُنْصَرِمِ عندَما اجْتَاحَتْهَا الثَّوْرَاتُ الشُّـيُوعِيَّةُ.

وذِكْرُ الْمُصَنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ نَسْـخَ الْهِجْرَةِ بَعْدَ الفَتْحِ في مَعْرِضِ ذِكْرِ الإمَامَةِ وأَحْكامِها فيه إِيـمَاءٌ إلى ما ذَهَبَ إِلَيْهِ أَصْحَابُنا أَهْلُ الحَقِّ والاســتِقَامَةِ ـ رَحِمَهُمُ اللهُ ـ مِنْ عَدَمِ وُجُوبِ هِجْــرَةِ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْــلِمِينَ إِلَيْهِمْ عندَما تَقُومُ دَوْلَتُهُمْ، لأَنَّ جَمِيعَ بِلادِ الإسْلامِ واحِدَةٌ في الحُكْمِ.

فحَيْثُمَا يُصْدَحُ بالأَذَانِ وتُقَامُ الصَّلَوَاتُ وتُمَارَسُ الشَّعَائِرُ الدِّينِيَّةُ مِنْ غَيْرِ فِتْنَةٍ ولا إكْرَاهٍ يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُقِيمَ، خِلافًا لِمَا ذَهَبَ إليهِ الخَوَارِجُ مِنَ الأَزَارِقَةِ والصُّفْرِيَّـــةِ والنَّجْدِيَّةِ مِنَ الحُكْمِ علـــى مَنْ عَدَاهُمْ بأَحْكَامِ الْمُشْرِكِينَ، وَإِلْزَامِ جميعِ النَّاسِ أَنْ يَعْتَقِدُوا مُعْتَقَدَهُمْ ـ وهو تَشْرِيكُ أَهْلِ القِبْلَةِ إنْ قَارَفُوا كَبِيرَةً، وقيلَ وَلَوْ صَغِيــرَةً ـ وإِلْزَامِهِمُ الهِجْــرَةَ إلى دَارِهِمُ

الَّتي يَقُومُ فيهـا حُكْمُهُمْ، وهـو نَهْجٌ لَـمْ يَرْتَضِهِ أصحابُنا لِشُـذُوذِهِ عمَّا جَرَى عليه السَّلَفُ والخَلَفُ مِنْ هذِه الأُمَّةِ.

٧١. إِنَّا نَدِينُ بِتَصْوِيـبِ الأُلَى مَنَعُوا حُكُومَـةَ الحَكَمَيْـنِ حِينَمَـا جَهِـلا

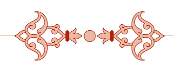
أيْ: إِنَّا نَقْطَعُ بِتَصْوِيبِ الفِئَةِ الْمُؤْمِنَةِ الَّتي أَبَتْ إلا أَنْ تَمْضِيَ قُدُمًا في سبيل الحقِّ، بعدَما اسْـتَبَانَتْ لَهُمُ الْحَقيقَةُ عندَما الْتَبَسَتْ على كثيرٍ من إخْوَانِهِم، وتلكَ الفِئَةُ هُمُ الذينَ رَفَضُوا تَحْكِيـمَ الْحَكَمَيْنِ فيما نَصَّ عليه الوَحْيُ، وأَبَوْا بعدَ ذلك التَّسْلِيمَ لِحُكْمِهِما.

وذلك عندَما وَقَعَ الشِّـجَارُ بَيْنَ هذِهِ الأُمَّةِ بعدَما بُويِعَ الخليفةُ الرَّابِعُ الإمامُ عَلِيُّ بنُ أبي طَالِبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وَجْهَه ـ البَيْعَةَ الشَّـرْعِيَّةَ الَّتي تُوجِبُ على جميعِ الأمَّةِ طاعَتَهُ ما أَطَاعَ فيهِمْ رَبَّه، إذْ أَبَى مُعَاوِيَةُ بنُ أبي سُـفْيَانٍ الذي كان عَامِلًا على بلاد الشَّـامِ أنْ يَدْخُلَ فيما دَخَلَ فيهِ المسلمونَ، وَنَزَعَ بذلك الطَـاعَةَ عن الْخَلِيفَةِ الشَّـرْعِيِّ، وأَجْلَبَ على الْمُسْـلمين بِخَيْلِهِ

وَرَجِلِـــهِ، رافِعًا شِـــعَارَ الْمُطَالَبَةِ بِدَمِ عُثْمَـــانَ، لِتَغْرِيرِ ضِعَافِ النُّفُوسِ منَ المسْــلمين، واستَطَاعَ بِدَهَائِهِ أنْ يَجْلِبَ إلى صَفِّهِ عَمْرَو بنَ العَاصِ الدَّاهِيَةَ الْمُحَنَّكَ.

فكانت حربُ صِفِّـــينَ التـــي دارَتْ رَحَاها بين طَرَفَيِ الأمَّة؛ بيـــن عُصْبَةِ الحق التـــي كان يقودُها إمامُها الشـــرعيُّ عليُّ بن أبي طالب وعُصْبَةِ البَغْيِ التي كان على رأسِـــها مُعاويـــةُ وعمرُو بنُ العاص، ولَمْ يكنْ في نَفْسِ أحدٍ من الفئةِ الأولى ريبٌ أنَّهُمْ على حـــقٍّ وأنَّ عدوَّهـــم على باطلٍ، ذلـــك لأنَّهم يُقاتِلون للحفاظِ على دولة الإســـلامِ مـــن التصدُّعِ والتمـــزُّقِ، وعلى رأسِـــهم قائدٌ شـــرعيٌّ بُويِعَ على أساسٍ مِنْ شـــرْعِ الله كما بُويِعَ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الخُلَفاءِ الراشـــدين، مع مَجِيءِ النصِّ صريحًـــا بقتالِ الفئة الباغية، فقد قال تعالى: ﴿ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الحُجُرات: ٩].

ومِمَّا زادَهم يقينًا أنَّ قَـــتْلَ عَمَّـــارٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ كان على أيْدِي تِلْكَ الفِئَةِ الْمُنْشَقَّةِ عن جَماعةِ الْمُسلمين، فقد



قتله أصحابُ معاوية، مع ثُـبُوتِ قَوْلِ النبي ﷺ فيه: «وَيْحَ عَمَّارٍ! تَقْتُلُهُ الفِئَةُ الباغِيَةُ»(١)، وهو حديثٌ يُفيدُ القَطْعَ، لأنــه رَواه عن النبي ﷺ أكثرُ مَنْ عشــرين صحابيًّا، بل رَواه معاويةُ نفسُــه وعمرٌو نفسُــه، ولَمْ يبقَ رَيْبٌ في صِحَّتِهِ.

ولكنْ لَمَّــا كادَ الحــقُّ يُزْهِقُ الباطلَ بِدَحْــرِ فِئَتِهِ واســتئصالِ شَــأْفَتِه تَمَخَّضَ دَهَاءُ عَمْرٍو عن مَكِيدةٍ أَوْقَعَتْ كثيرًا مــن الذين كانوا يُدافِعُون عن الحقِّ في الفَخِّ، فانقلبوا من اليقينِ إلى الارتيابِ، وذلك عندما أَمَرَ بِرَفْعِ المصاحِفِ على أطــرافِ الرِّماحِ والْمُنادَاةِ بتحكيمِ القرآنِ مِنْ أَجْلِ صَوْنِ الدِّمَاءِ والحفاظِ على الأرواحِ، وقد وُجِدَ في صُفُوفِ أهــلِ الحقِّ مَنْ غَرَّهُ بَرِيقُ الدنيــا فاصْطَنَعَهُ معاويــةُ بِمَالِهِ لِنَفْسِــهِ؛ وهو أَشْعَثُ بنُ قيسٍ، الذي أَخَذَ يُرَوِّجُ بينَ الناس لِمَا دَعَا إليه عمرٌو ومعاويةُ ومَنْ معهما مِنْ فِئَة أهلِ البَغْي.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة / باب: التعاون في بناء المساجد (٤٤٧).

فانْطَلَتْ هذه الحيلةُ على الضعفاءِ، وأوْجَدَت خَلْخَلَةً بالغةً في صُفُوفِ المؤمنين، مع أنَّ أصحابَ البصائرِ وعلى رأسِهم أبو السِّبْطَيْنِ نَادَوْا مِنْ أوَّلِ الأمرِ بِرَفْضِها، وأَدْرَكُوا أنَّها خديعةٌ مُبَطَّنَةٌ لِتَكونَ الكَرَّةُ للباطِلِ بعدَ أنْ كاد يَزْهَقُ، غيرَ أنَّ ضُغُوطَ الأشْعَثِ بنِ قيسٍ ومَنْ مَالأه أدَّتْ إلى أنْ يَتَنَازَلَ أميرُ المؤمنين عن موقِفِه الصَّامِدِ.

وقد وَقَفَ أصحابُ البصائر والهُدَى مُعَارِضِينَ لذلك، لا يبغون بديلًا عن الجهاد الحاسمِ على رَغْمِ أنَّ قياداتِ الجيشِ أخذَتْ تتهَاوَى في فَخِّ هذه الخديعة، وتَمَخَّضَتْ عن تَحْكيمِ حَكَمَيْنِ في القضيَّةِ يُقَدِّمانِ ويُؤَخِّرَانِ، مع أنَّ أصواتَ الْمُعَارَضَةِ كانت تُجَلْجِلُ بالدعوةِ إلى الْمُضِيِّ قُدُمًا حتى يَقْضِيَ اللهُ شأنَه، مُنَادِيةً بِرَفْضِ كلِّ حُكْمٍ إلا ما حَكَمَ اللهُ به في قولِه: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، ولِسَانُ حالِهَا يُعَبِّرُ عن مَكْنُونِ مَشَاعِرِها الْمُفْعَمَةِ بالحُبِّ لِخَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ ويَعْسُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، والحَسْرَةِ على ما آلَ إليه الأمرُ وهو يقول:

أَبَا حَسَـــنٍ ذَرْهَا حُكُومَةَ فَاسِـــقٍ
جِرَاحَاتُ بَـــدْرٍ فِي حَشَـــاهُ تَفُورُ

أَبَا حَسَـــنٍ أَقْدِمْ فَأَنْتَ عَلَى هُدًى
وَأَنْـــتَ بِغَايَـــاتِ الغَـــوِيِّ بَصِيرُ

أَبَا حَسَـــنٍ لا تُعْـطِـيَـــنَّ دَنِـــيَّةً
وَأَنْـــتَ بِسُـــلْطَانِ القَدِيـــرِ قَدِيـــرُ

أَبَا حَسَنٍ إِنْ تُعْطِهَا اليَوْمَ لَمْ تَزَلْ
يَـــحُلُّ عُـــرَاهَا فَاجِـــرٌ وَمُبِيـــرُ

أَبَا حَسَنٍ أَطْلَقْتَهَـــا لِطَلِيقِهَـــا
وَأَنْـــتَ بِقِـــدِّ الأَشْـــعَرِيِّ أَسِـــيرُ

أَتَحْبِسُ خَيْلَ اللهِ عَنْ خَيْلِ خَصْمِهِ
وَسَـــبْعُونَ أَلْفًـــا فَوْقَهُـــنَّ هَصُورُ

أَثِرْهَا رِعَالًا تَنْسِـــفُ الشَّـــامَ نَسْفَةً
بِـــثَارَاتِ عَمَّـــارٍ لَهُـــنَّ زَفِيـــرُ

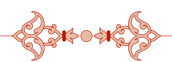
وَصُكَّ ثُغُـــورَ القَاسِـــطِينَ بِفَيْلَقٍ
لَـــهُ مَـــدَدٌ مِـــنْ رَبِّـــهِ وَنَصِيـــرُ

فَلَـمْ يَبْــقَ إِلا غَلْوَةٌ أَوْ تَحُسَّـــهُمْ
وَيَبْكِي ابــنَ صَخْرٍ قُبَّةٌ وَسَـــرِيرُ

فَمَالَكَ وَالتَّحْكِيم وَالحُكْمُ ظَاهِرٌ
وَأَنْــتَ عَلِــيٌّ وَالشَّــآمُ تَمُــورُ

ولَمْ يكنْ مــن الحَكَمَيْــنِ إلا أن اتفَقَا على خَلْعِ الإمامِ الشرعيِّ عليِّ بن أبي طالبٍ ـ كرَّمَ الله وَجْهَه ـ مع اختلافِهما في أمرِ خَصِيمِهِ معاوية بن أبي سفيان، إذْ لَمْ يَرْضَ مُمَثِّلُ فِئَتِهِ في التحكيمِ ـ وهو عَمْرُو بنُ العــاص ـ أنْ يَعْزِلَه، وإنَّما نادَى بهِ أميــرًا للمُؤْمِنِينَ علــى رأسِ كُلِّ الحاضِرِيــنَ، فانكَشَــفَت الْمُؤامَرَةُ وانْجَلَى الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ.

وهنا وَجَدَ الذين رَفَضُوا التَّحْكِيــمَ أَنَّهم أصْبَحُوا بلا قائدٍ، وقد انْفَلَتَ الزِّمامُ وأصْبَحَ الناسُ قُطْعــانًا بلا راعٍ، وقد أطلَّتِ الفِتْــنَةُ برأسِــها وفَغَــرَتْ فَاهَا مُكَشِّــرَةً عن أنيابِهَا العُصْلِ لِتَلْتَهِمَ ما تَبَقَّى مِنْ أمْرِ أمَّةِ محمَّــدٍ ﷺ، فلم يَــرَوْا بُدًّا أنْ يُــبَايِعوا أحدَهم للدِّفاعِ عن حِمَاهُم والذَّبِّ عن حُرُماتِ الدِّينِ، فوَقَعَ



اختيارُهم على عبدِاللهِ بن وَهْبٍ الرَّاسِبِيِّ ﵁ وخَرَجوا عن محيطِ الفتنةِ الــذي لَفَحَتْهُ أعاصيرُهــا الهَوْجَاءُ واعتزلوا الناسَ، فَنَزَلُوا بالنَّهْرَوَانِ.

ولكنَّ الذين نَسَجُوا خيوطَ الفتنةِ ونَصَبُوا شَرَاكَها لإيقاعِ الأمَّةِ فيــه لَمْ يَرُقْ لَهُمْ ذلــك، لأنَّهم رَأَوْا أنَّ بَقَاءَ هذه الفِئَةِ يُشَــكِّلُ عَقَبَةً كَأْدَاءَ في ســبيلِ تَحْقِيقِ مآرِبِهِمْ، إذْ هُمْ صَخْرَةُ الصُّمُودِ الصَّلْبَةِ التي لَمْ يُفَتِّتْها ما فَتَّتَ الآخَرِين، فلم تَزِدْها الْمِحَنُ إلا صَلابةً.

لذلــك وَجَّهُــوا كُلَّ العِنَايةِ إليهم فأَغْــرَوْا بِهِمُ الناسَ وأثارُوا عليهم حَفَائِظَهُمْ بِمَــا أَلْصَقُوهُ بِهِمْ منَ التُّهَمِ الكاذِبَةِ وأشــاعُوهُ عنهم مــن الدِّعَايَاتِ الفاجِرَةِ، حتى كانت معركةُ النَّهْرَوَانِ التي أسْفَرَتْ عن سُقُوطِ آخِرِ سُــورٍ لِلْحَقِّ، واندْكَاكِ آخِرِ مَعْقِلٍ لِحِمَايَتِــهِ، فَصَفَا الأمــرُ لِمُعاوية وطُوِيَــتْ صَفْحَةُ الخِلافَةِ الرَّاشِــدَةِ، لِيَحُلَّ مَحلَّهَــا مُلْكٌ عَضُوضٌ يُحْيِي في هذه الأمَّةِ نظامَ الاســتبدادِ الكِسْــرَوِيِّ القَيْصَرِيِّ الذي أبادَهُ الإسلامُ.

فَيَا فِتْنَةً فِـي الدِّينِ ثَـارَ دُخَانُهَا
وَذَاكَ إِلَـى يَـوْمِ النُّشُـورِ يَثُـورُ
نَجَوْنَا بِحَمْـدِ اللهِ مِنْهَا عَلَى هُدًى
فَنَحْـنُ عَلَى سَـيْرِ النَّبِيِّ نَسِـيرُ
بَصَائِرُنَـا مِـنْ رَبِّنَـا مُسْـتَمِدَّةٌ
إِذَا اشْـتَبَهَتْ لِلْمَارِقِيـنَ أُمُـورُ
وَثِقْنَا بِـأَنَّ الدِّيـنَ عُـرْوَةُ أَمْرِنَا
وَمَـا شَـذَّ عَنْـهُ فِتْنَـةٌ وَغُـرُورُ
وَأَنَّ رِجَـالًا حَكَّمُـوا اللهَ حُجَّـةٌ
عَلَى مَنْ بِتَحْكِيـمِ الرِّجَالِ يَصُورُ
بِبَيِّنَـةٍ مِـنْ رَبِّهِـمْ وَبَصِيـرَةٍ
تَجَاهَـلَ فِيهَـا عَسْـكَرٌ وَأَمِيـرُ

وَقَوْلُ الْمُصَـنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**إِنَّا نَدِينُ... إلخ**» يَعْنِي: أَنَّنَا نَقْطَعُ بِتَصْوِيبِ هَـذِهِ الفِئَةِ وَتَأْيِيـدِ مَوَاقِفِهَا، لأَنَّها بَنَـتْهَا على أَحْكَامٍ شَـرْعِيَّةٍ جَاءَ بِهَا القُرْآنُ الكَرِيمُ.

وَقَــدْ كَشَــفَتِ الأَيَّامُ عَنْ سَــدَادِ نَظَرِهِــمْ وَجَلاءِ بَصِيرَتِهِمْ وَصَــوَابِ مَوْقِفِهِمْ، إِذْ جَــرَّتِ الفِتْنَةُ الَّتي كانوا يَحْذَرُونَهَا على الأُمَّةِ شَــرًّا مُسْــتَطِيرًا، وَنُكِبَتْ بِسَبَبِهَا بِخَسَارَةٍ لا تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ، إِذْ فَقَدَتْ ذَلِكَ النِّظَامَ في الحُكْمِ الَّــذِي كان مِثَالًا لِلنَّزَاهَــةِ والعَدْلِ، وَكَانَ مَعْقِــدًا لاجْتِمَاعِهِمْ وَمَنَاطًــا لِتَرَابُطِهِمْ، فَــإِذَا بِتِلْكُمُ الوَحْدَةِ الَّتي كانت تُنَظِّمُ شَــمْلَهُمْ تَتَحَوَّلُ إِلَى قَطِيعَةٍ نَكْرَاءَ، حَتَّى كان بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدًا.

وَرَزَحَتِ الأُمَّةُ تَحْتَ نِيرِ الْجَبَّارِينَ وَقَهْرِ الظَّالِمِينَ، مُسْــتَمْرِئَةً الذُّلَّ وَالهَوَانَ، مُبَــرِّرَةً كُلَّ ما أَصَابَهَا مِنَ الْمُتَسَــلِّطِينَ بِمُبَرِّرَاتٍ ما أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُــلْطَانٍ، فَأَضْفَتْ على ظُلْمِ الظَّالِمِينَ صِفَةَ الشَّرْعِيَّةِ، وَجَعَلَتْ طَاعَتَهُمْ أَمْرًا مَحْتُومًــا عَلَى العِبَــادِ بِانْدِرَاجِهِ ضِمْنَ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، وَبِهَذَا انْقَلَبَــتِ الْمَقَايِيسُ، وَتَبَدَّلَتِ الْمَوَازِينُ، وَاشْتَبَهَتِ الأُمُورُ، حَتَّى أَصْبَحَ الحَقُّ بَاطِلًا وَالبَاطِلُ حَقًّا.

٧٢. وَالرَّاسِــبِيَّ أُوَالِي بَعْــدَ جُمْلَتِهِمْ
وَمَنْ بِهِ نَسَــبُ الإِسْــلامِ قَــدْ وُصِلا

٧٣. عَنَيْتُ نَجلَ إِبَــاضٍ فَهْوَ حُجَّتُنَا
أَمَــا تَــرَى فَخْــرَهُ لِلْمُسْــلِمِينَ حُــلا

أَيْ: كَمَا نَدِينُ إِجْمَالًا بِتَصْوِيبِ الَّذِينَ حَكَّمُوا اللهَ تَعَالَى وَأَبَوْا تَحْكِيمَ الرِّجَالِ فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ حُكْمٍ؛ نَخُــصُّ مِــنْ بَيْنِهِــمْ إِمَامَهُــمْ عَبْدَاللهِ بْــنَ وَهْــبٍ الرَّاسِبِيَّ رضي الله عنه بِتَمْيِيزِهِ بِالوَلايَةِ بَعْدَ الوَلايَةِ العَامَّةِ الَّتِي تَشْمَلُهُمْ جَمِيعًا.

وَكَذَلِكَ مَنْ وُصِلَ بِهِ نَسَبُ الإِسْلامِ، وَذَلِكَ بِنِسْبَةِ أَهْلِ الحَقِّ وَالاسْــتِقَامَةِ إِلَيْهِ، لِمَا اشْتَهَرَ بِهِ مِنَ الدِّفَاعِ عَنْهُــمْ، وَالْمُجَاهَــرَةِ بِكَلِمَةِ الحَقِّ أَمَــامَ أَهْلِ الظُّلْمِ، والصَّدْعِ بِحُجَّتِهِمْ، وَهُوَ عَبْدُاللهِ بْــنُ إِبَاضٍ التَّمِيمِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَرَضِيَ عَنْهُ -.

عَلَــى أَنَّ هذا الانْتِسَــابَ إِلَيْهِ لا يَعْــدُو أَنْ يَكُونَ تَمْيِيــزًا وَلَيْسَ تَشْــرِيعًا، إِذْ لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَيْــهِ الإِتْيَانُ

بِجَدِيدٍ؛ لا مِنْ حَيْثُ العَقِيدَةُ ولا مِنْ حَيْثُ الفِقْهُ، وَإِنَّمَا كُلُّ ما قَامَ بِهِ هُوَ وَمَنْ نُسِبَ إِلَيْهِ: الْمُحَافَظَةُ على ما جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَدَرَجَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ رضي الله عنهم، وَفِي هَذَا يَقُولُ الْمُصَنِّفُ رحمه الله تعالى:

وَنَحْنُ الأَوَّلُونَ لَمْ يَشْرَعْ لَنَا
نَجْلُ إِبَاضٍ مَذْهَبًا يَحْمِلُنَا
مِنْ ثَمَّ لا تَلْقَى لَهُ فِي الْمَذْهَبِ
مَسْأَلَةً نَرْسُمُهَا فِي الكُتُبِ
فَنَحْنُ فِي الأَصْلِ وَفِي الفُرُوعِ
عَلَى طَرِيقِ السَّلَفِ الرَّفِيعِ
نَرْضَى بِمَا يَرْضَى بِهِ الإِلَهُ
لِدِينِهِ وَنَأْبَى مَا يَأْبَاهُ
سِيرَتُنَا سِيرَةُ صَحْبِ أَحْمَدَا
لا نَرْضَى أَهْلَ الظُّلْمِ فِينَا مُقْتَدَى

وَلَيْسَ تَخْصِيصُنَا لابْنِ وَهْبٍ وابنِ إِبَاضٍ بِمَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ مِنْ وَلايَتِهِمَا نُكْرانًا لِحَقِّ غَيْرِهِمَا،

فَإِنَّ كُلَّ الَّذِينَ كانوا مَعَ ابْنِ وَهْبٍ حُكْمُهُمْ كَحُكْمِهِ في ذَلِكَ، إِذْ مَا أرادُوا إِلَّا الحَقَّ، ولا قَامُوا إِلَّا مِنْ أَجْلِهِ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ كَانُوا على رَأْيِ ابْنِ إِبَاضٍ في عَصْرِهِ أَوْ بَعْدَ عَصْرِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَجْلِ اشْتِهَارِهِمَا، فَابْنُ وَهْبٍ اشْتَهَرَ مِنْ بَيْنِ الْمُحَكِّمَةُ الأُولَى لأَنَّهُ قُلِّدَ الإِمَامَةَ لِجَمْعِ الشَّتَاتِ والْمُحَافَظَةِ على أَدَاءِ الوَاجِبِ، وابْنُ إِبَاضٍ كَانَ هُوَ الْمُنَافِحَ ظَاهِرًا عَنْ هَذِهِ الفِئَةِ، إِذْ كَانَ يُجَاهِرُ بِمَا لَمْ يُجَاهِرْ بِهِ غَيْرُهُ في وُجُوهِ أَهْلِ الظُّلْمِ.

فَلِذَلِكَ عُرِفَتْ هَذِهِ الفِئَةُ بِنِسْبَتِهَا إِلَيْهِ، وَإِلَّا فَفِي حَلَقَاتِ سِلْسِلَةِ هَذِهِ الفِئَةِ - مِنَ العُلَمَاءِ الفَطَاحِلِ والأَئِمَّةِ العُدُولِ الَّذِينَ بَذَلُوا نُفُوسَهُمْ للهِ يَبْغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا - مَنْ هُمْ غُرَّةٌ لامِعَةٌ في جَبِينِ التَّارِيخِ، وَدُرَرٌ مُضِيئَةٌ في تِيجَانِ الأَمْجَادِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِمُ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ:

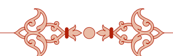
٧٤. وَمَنْ قَفَا إِثْرَهُمْ مِــنْ كُلِّ مُجْتَهِدٍ
شَاكِي السِّلاحِ لِقَمْعِ الخَصْمِ حِينَ غَلا

فَكُلُّ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ واضْطَلَعَ بِمَا اضْطَلَعُوا بِهِ مِنْ أَمَانَةِ الدِّينِ، فَاجْتَهَــدَ في حَمْلِ رَايَةِ الحَقِّ حَامِلًا سِلاحَهُ مِنْ أَجْلِ قَمْعِ خُصُوم أُمَّةِ الإِسْلامِ حِينَ غَلَوْا في البِدْعَةِ والفَسَــادِ؛ فَلَهُ حُكْمُهُمْ في وُجُوبِ الوَلايَةِ لَهُ، وَذَلِــكَ يَشْــمَلُ جَمِيعَ أَهْــلِ الفَضْــلِ والتَّقْوى والصَّلاحِ والاسْتِقَامَةِ.



أسئلة:

١. عرِّف الإمامة تعريفًا موجزًا؟
٢. لماذا كانت الإمامة واجبة وضرورية؟
٣. ما هي المسؤوليات المناطة بالإمامة؟
٤. اذكر أهم الشروط الواجب توافرها فيمن يُختار للإمامة؟
٥. على الإمام أن يستشير أهل الخبرة، اشرح ذلك بالأمثلة؟
٦. بيِّن الدليل على عدم جواز تولية الظالم إماما؟
٧. هل يُشترط نسب معين لمنصب الإمامة؟
٨. لماذا تمّ اختيار الخلفاء الراشدين من قريش في عهد الصحابة؟
٩. ماذا يجب على المسلمين تجاه إمامهم الشرعي؟ اشرح إجابتك بالدليل؟
١٠. كيف يتعامل المسلمون مع الإمام إن واقع معصية من الصغائر؟ وما حكمه إن أصرّ عليها؟



١١. إذا وقع الإمام في معصية تُوجب حدًّا؛ فمن يقوم بإنفاذ الحكم الشرعي عليه؟

١٢. ذهب بعض العلماء إلى بقاء الإمام في منصبه بعد توبته وإقامة الحدّ عليه، ما رأي الشارح في ذلك؟

١٣. هل يجوز أن يكون للمسلمين إمامان في مكان واحد؟ أوضح إجابتك بالدليل النصي والعقلي.

١٤. بيّن حكم البيعة بالإمامة في الأحوال الآتية: ـ

١ ـ بُويع إمامان معا بيعة واحدة.

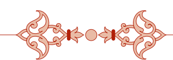
٢ ـ بُويع إمام بيعة صحيحة ثم بويع بعده شخص آخر.

٣ ـ بُويع إمام بيعة غير صحيحة ثم بويع شخص آخر.

١٥. متى تجوز الإمامة لاثنين في وقت واحد؟ وهل وقع ذلك؟

١٦. إذا كان هناك إمامان شرعيّان في دولتَين منفصلتَين، فتوسعتا حتى زال الفاصل بينهما، فما الواجب في هذا الحال؟

١٧. متى نُسخت فريضة الهجرة؟



١٨. لماذا فـرض الله الهجرة أولا من مكـة المكرمة إلى المدينة المنورة؟

١٩. كيف كانت الهجرة امتحانا للمؤمنين؟

٢٠. وردت آيات كثيرة في مدح المهاجرين، اذكر بعضها؟

٢١. ما الدليل على نسخ وجوب الهجرة؟

٢٢. بيّن الحكمة من نسخ الهجرة إلى المدينة المنورة؟

٢٣. هل بقي من فرض الهجرة شيء في واقعنا المعاصر؟

٢٤. ما الفرق بين فريضة الهجرة قديما وحديثا؟

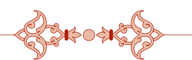
٢٥. ما حكم من رضـي بالعيش مفتونا بيـن الكفرة مع قدرته على الهجرة؟ أوضح إجابتك بالدليل.

٢٦. اذكر مثالَين من التاريخ على الحكم السابق؟

٢٧. لماذا ذكر الناظم نسخ الهجرة بعد الفتح في معرض ذكر الإمامة وأحكامها؟

٢٨. ما الفرق بين الإباضية والخوارج في حكم الهجرة؟

٢٩. هل الذين رفضوا تحكيم الحكمين في موقعة صفّين كانوا على حق؟



٣٠. أين كان معاوية بن أبي سفيان قبل بيعة الإمام علي بن أبي طالب؟

٣١. كيف غرّر معاوية ضعاف النفوس من المسلمين حتى لا يبايعوا الإمام علي بن أبي طالب؟

٣٢. من أين علمنا أنَّ الإمام علي بن أبي طالب كان على حق في حربه ضدّ معاوية؟

٣٣. ما هي مكيدة عمرو بن العاص التي حوّلت مجرى حرب صفّين؟

٣٤. عرِّف بالأشعث بن قيس ذاكرًا موقفه وأثره في حرب صفّين؟

٣٥. عبِّر عن حال الفئة المؤمنة الرافضة للتحكيم بأبيات من الشعر، وكيف كانت مشاعرها تجاه هذا الحدث؟

٣٦. على ماذا اتفق الحكمان؟ وفيم اختلفا؟

٣٧. كيف انكشفت مؤامرة معاوية وعمرو بن العاص؟

٣٨. ماذا فعل الذين رفضوا التحكيم بعد انكشاف المؤامرة؟ ومن بايعوا للدفاع عنهم؟ وأين ذهبوا؟

٣٩. ما موقف أصحـــاب الفتنة من الرافضيـــن للتحكيم؟ وبماذا انتهى الأمر؟

٤٠. لماذا قطع المصنف بصحّة رأي الفئة الرافضة للتحكيم؟

٤١. بيّن الآثار الســـيئة الكثيرة التي جرّتها تلك الفتنة في أُمّة الإسلام؟

٤٢. ما موقف المســـلم العقدي تجاه من حكّم الله تعالى ورفض تحكيم الرجال فيما أنزله الله؟

٤٣. للإمام الراسبي خصوصية في الموقف السابق، بيّـنه؟

٤٤. إلى مَن يُنسب أهل الحق والاستقامة؟ وما معنى هذه النسبة؟

٤٥. لماذا خصّص الإباضية ابن وهب وابن إباض بالولاية؟

٤٦. مَـــنْ يقصد الناظم بقولـــه: (ومن قفا إثرهـــم مِن كلّ مجتهد..إلى آخر البيت)؟

خَـاتِـمَـةٌ

ثُمَّ اخْتَتَمَ الْمُصَنِّفُ ﵀ هَذَا النَّظْـمَ بِمَا ابْتَدَأَهُ بِهِ مِنْ حَمْدِ اللهِ والصَّلاةِ والسَّلامِ على نَبِيِّهِ ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ حَيْثُ قَالَ:

٧٥. وَالْحَمْـدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيـنَ عَلَى
إِتْمَـامِ مَا رُمْـتُ إِذْ مِنْ فَضْلِـهِ كَمَلا

وَقَدْ تَقَـدَّمَ مَعْنَى الْحَمْـدِ، وَهُوَ هُنَا مُبْتَـدَأٌ خَبَرُهُ مُتَعَلَّـقُ الْجَارِ والْمَجْـرُورِ الْمُقَدَّرِ، وَتَقْدِيـرُهُ: كَائِنٌ. و«الرَّبُّ» صِفَـةٌ للهِ، وَهُـوَ بِمَعْنى: السَّـيِّدِ الْمُصْلِحِ الْمَالِكِ لِلأَمْرِ.

والعَالَمُونَ: جَمْعُ عَالَـمٍ، والعَالَمُ يَصْدُقُ عَلى أيِّ جِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ الكائِنَاتِ كالإِنْسِ والْجِنِّ والوَحْشِ والطَّيْرِ، واشْـتِقَاقُهُ مِنَ العَلامَةِ، لأَنَّ جَمِيعَ أَفْرَادِ هَذِهِ الأَجْنَاسِ هِيَ عَلامَاتٌ عَلَى وُجُودِ اللهِ سُبْحَانَهُ.

وَقَدْ حَمَدَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ هُنَا حَمْدًا مَقْرُونًا بِذِكْرِ النِّعْمَةِ الَّتِي هِيَ مَنْشَأٌ لِلْقِيَامِ بِهَذَا الحَمْدِ، وَهِيَ التَّوْفِيقُ لإِنْجَازِ ما رَامَه - أيْ قَصَدَهُ - مِنْ نَظْمِ هَذِهِ المَجْمُوعَةِ الْمُخْتَصَرَةِ مِنْ عَقَائِدِ أَهْلِ الحَقِّ، وفي هَذَا الاخْتِتَام بِحَمْدِ اللهِ تَعالَى شُكْرٌ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَتَبَرُّكٌ بِذِكْرِهِ وَحَمْدِهِ، وَتَفاؤُلٌ بِختْمِ الأَجَلِ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ.

٧٦. ثُمَّ الصَّلاةُ وَتَسْلِيمٌ يُقَارِنُهَا
عَلَى الَّذِي خَتَمَ الْمَوْلَى بِهِ الرُّسُلا

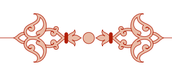
٧٧. وَالآلِ وَالصَّحْبِ مَا لاحَتْ فَضَائِلُهُمْ
وَمَنْ لَهُمْ فِي سَبِيلِ الْمَكْرُمَاتِ تَلا

سَبَقَ القَوْلُ في مَعْنَى **الصَّلاةِ والتَّسْلِيم والآلِ والصَّحْبِ**، فَلا دَاعِيَ لِتَكْرَارِهِ، وعَطَفَ عَلَيْهِمْ هُنَا كُلَّ مَنْ سَارَ على نَهْجِهِمْ في **سَبِيلِ الْمَكْرُمَاتِ**، وَهِيَ سَبِيلُ الْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعالَى، فالْمَكْرُمَاتُ تَتَمَيَّزُ عَنْ غَيْرِهَا بِمُوَافَقَةِ نَهْجِ الحَقِّ، إِذْ مَنْ حَادَ عَنْ هَذَا النَّهْجِ الصَّحِيحِ فَلا كَرَامَةَ لَهُ.

وَهَذَا آخِرُ مَا يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ تَهْذِيبِ ما كُنْتُ أَمْلَيْتُهُ سابِقًا مِنَ التَّعْلِيقِ عَلى هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَلَمْ تَكُنِ الفُرْصَةُ سَانِحَةً لِكِتَابَةِ شَرْحٍ يَلِيقُ بِقَدَرِ هَذِهِ الْمُنْظُومَةِ، وَإِنَّما أَمْلَيْتُ هَذَا الْمُدَوَّنَ عَلَى كَاتِبِهِ مِنْ غَيْرِ رُجُوعٍ إِلَى مَرْجِعٍ عِلْمِيّ إِلَّا في حَالاتٍ نَادِرَةٍ، وَإِنَّما أَرَدْتُ بِهِ أَنْ يَجِدَ فيهِ الطَّلَبَةُ النَّاشِئُونَ ما يُعِينُهُمْ على فَهْمِ الْمُرَادِ مِنْ **غَايَةِ الْمُرَادِ**، لِيَسْهُلَ عَلَيْهِمْ دَرْسُهَا، وَلِيُتْقِنُوا دَرْكَ مَقَاصِدِهَا.

واللهُ هُوَ الْمَسْؤُولُ بِأَنْ يُنْعِمَ عَلَيَّ بِالرِّضَا والقَبُولِ، وأَنْ يَمْنَحَنِي التَّوْفِيقَ لِمَا يُرْضِيهِ عَنِّي مِنَ الأَقْوَالِ والأَعْمَالِ، وأَنْ يُزَكِّيَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِالإِخْلاصِ لَهُ وَحْدَهُ، وأَنْ يَمُنَّ عَلَيَّ بِحُسْنِ الْخَاتِمَةِ، إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

وكَانَ الفَرَاغُ مِنْ إِمْلائِهِ فِي صَبِيحَةِ الثَّلاثِينَ مِنْ شَهْرِ رَجَب الحَرَام مِنْ عام أَلْفٍ وأَرْبَعِمِائَةٍ وثَلاثَةٍ وَعِشْرِينَ مِنْ هِجْرَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ.



أسئلـة:

١. ما معنى كلمة (الرب)؟

٢. بيّن معنى (العالم) بفتح اللام؟ ومن أين جاء اشتقاق هذه الكلمة؟

٣. على ماذا حمد الناظم ربه في آخر قصيدته؟

٤. من يقصد الناظم بقوله: (ومن لهم في سبيل المكرمات تلا)؟

٥. هل كان الشـــارح يعود إلى المراجع دائما في أثناء الشرح؟

٦. متى فرغ الشارح من تأليفه هذا؟

٧. ماذا قصد الشارح بشرحه للقصيدة؟

٨. سجِّـل دعاءك الخاتم لحفظ النظم وقراءة الشرح؟